

فيكتور إميل فرانكل

الإنسان والبحث عن المعنى

التسامي بالذات كظاهرة إنسانية



ترجمة: عبد المقصود عبد الكريم

صفحة



Man's Search for Meaning

Viktor E. Frankl

الإنسان والبحث عن المعنى

التسامي بالذات كظاهرة إنسانية

تأليف: فيكتور إميل فرانكل

ترجمة: عبد المقصود عبد الكريم

طبعة

صفحة



الكتاب

الإنسان والبحث عن المعنى

المؤلف

فيكتور إميل فرانكل

الطبعة الأولى: 2020

الترقيم الدولي

978-603-91352-9-6

رقم الإيداع

1441/7633

Copyright © 2006 by Viktor E. Frankl

Published by arrangement with Beacon Press

حقوق الترجمة العربية محفوظة

صفحة سبعة للنشر والتوزيع ©

E-mail: info@page-7.com

Website: www.page-7.com

Tel.: (00966)583210696

العنوان : الجبيل ، شارع مشهور

المملكة العربية السعودية

تستطيع شراء هذا الكتاب من متجر صفحة سبعة

www.page-7.com

الإهداء

إلى ذكرى والدي.....

المحتويات

7 تقديم الترجمة
9 تصدير هارولد س. كوشنر
15 تصدير «طبعة 1992»

الجزء الأول

21 خبرات في معسكر اعتقال
----	-----------------------------

الجزء الثاني

131 العلاج بالمعنى
133 إرادة المعنى
135 الإحباط الوجودي
136 الاضطرابات العصائبة ذات المنشأ العقلي
139 ديناميات النوّ
141 الفراغ الوجودي
144 معنى الحياة
145 جوهر الوجود

148 معنى الحبّ
149 معنى المعاناة
153 المشاكل بعد الإكلينيكيّة
153 دراما العلاج بالمعنى
156 المعنى الفائق
158 زوال الحياة
160 العلاج بالمعنى بوصفه تقنية
168 العصاب الجماعي
170 نقد الحتمية المطلقة
172 عقيدة الطبّ النفسيّ
173 الطبّ النفسيّ يسترجع طابعه الإنسانيّ
175 حاشية - 1984
175 حالة عن التفاؤل التراجيدي
195 كلمة ختامية

تقديم المترجم

بإلقاء نظرة سريعة على فهرس الكتاب الذي يحتوي على تصديرين: تصدير بقلم هارولد س. كوشنر، وآخر بقلم المؤلف كتبه لطبعة 1992 ويحتوي على كلمة ختامية بقلم وليم ج. ونسلد تتناول حياة فيكتور فرانكل والكتاب الذي بين أيدينا؛ يمكن ببساطة أن نقول إنه لا داعي لأن يضيف المترجم كلمة إلى كتاب ربّما لا يحتاج إليها.

قد يبدو الأمر صحيحاً للوهلة الأولى، وهو كذلك بالفعل، ولم أقصد بهذه الكلمة إلا كلمة موجزة تماماً، وأن تكون عن ترجمة الكتاب إلى العربية فقد سبق أن تُرجم الكتاب إليها، وقد ترجمه الدكتور طلعت منصور وراجع الترجمة وكتب مقدّمها الدكتور عبد العزيز القوصي، وكانت بعنوان «الإنسان يبحث عن المعنى: مقدّمة في العلاج بالمعنى، التّسامي بالنّفس»، وصدرت الترجمة عن دار القلم في الكويت عام 1982، وبعيداً عن افتقار تلك الترجمة إلى الدقّة في مواضع كثيرة، فإنّها ترجمة لطبعة مختلفة من الكتاب؛ لا تحتوي بالطّبع على تصدير المؤلف لطبعة 1992، وفيها تقديم بقلم جوردون ألبورت بدلاً من تصدير هارولد س. كوشنر، وتحتوي بدلاً من ملحق 1984 والكلمة الختامية، على دراسة لفكتور فرانكل بعنوان «التّسامي بالذّات ظاهرة إنسانية»

ودراسة بمثابة تعليق لأبراهام ماسلو على دراسة فرانكل والدراسات
منشورتان في مجلة علم النفس الإنساني Journal of Humanistic
(Psychology) عام 1966 .

باختصار وبعيداً عن الدقة، هذه ترجمة لطبعة صدرت عام 2006
وهي تختلف كثيراً عن الطبعة التي تمت ترجمتها من قبل إلى العربية
وصدرت عام 1982 .

في النهاية، رغم أن المؤلف نمساوي يكتب بالألمانية، فإن محتويات
الكتاب كله مكتوبة بالإنجليزية في الأصل، باستثناء الجزء الأول
«خبرات في معسكر الاعتقال» المكتوب بالألمانية. وهذا الجزء هو الذي
يمثل النواة الأولى لهذا الكتاب، وقد كتبه فيكتور فرانكل في تسعة أيام،
وصدر عام 1946 بالألمانية بعنوان «قل "نعم" للحياة رغم كل شيء»:
عالم نفس يعاني في معسكر الاعتقال -- trotzdem Ja zum Leben
وقد sagen: Ein Psychologe erlebt das Konzentrationslager
ترجم الكتاب إلى الإنجليزية مرات عديدة وكانت الترجمة الأولى بعنوان
«من معسكر الموت إلى الوجودية - From Death-Camp to
Existentialism»، وأشهر ترجمة له إلى الإنجليزية هي التي بين أيدينا
وعنوانها الأصلي الإنسان والبحث عن المعنى - *Man's Search for
Meaning*.

عبد المقصود عبد الكريم
القاهرة، مايو 2020

تصدير هارولد س. كوشنر

يُعدُّ كتاب فيكتور فرانكل «الإنسان والبحث عن المعنى - Man's Search for Meaning» أحد الكتب العظيمة في عصرنا. عادة، إذا كان هناك كتاب يحتوي على فقرة واحدة، أو فكرة واحدة، لها القدرة على تغيير حياة شخص، فإن ذلك وحده يبرر قراءة الكتاب، وإعادة قراءته، وإيجاد مساحة له على رفوف مكتبة المرء. وهذا الكتاب يحتوي على العديد من هذه الفقرات.

إنه قبل كل شيء كتاب عن النجاة والبقاء على قيد الحياة. مثل عدد كبير من اليهود الألمان ويهود أوروبا الشرقية الذين اعتقدوا أنهم آمنون في ثلاثينات القرن العشرين، تم إلقاء فرانكل في شبكة معسكرات الاعتقال والإبادة النازية. وقد نجا، بمعجزة، وبتعبير التوراة، نجا مثل «شعلة منتشلة من النار»⁽¹⁾. لكن روايته في هذا الكتاب عن مصائبه، عن المعاناة التي تعرض لها وعمّا فقده، أقل من روايته عن مصادر قوته من أجل البقاء على قيد الحياة. يقتبس فرانكل، عدة مرات في سياق الكتاب، كلمات نيتشه باستحسان تام: «من لديه سبب للحياة يمكن أن يتحمل

(1) - الاقتباس من سفر زكريا، الإصحاح الثالث، الآية الثانية، ونص الآية بالكامل "فَقَالَ الرَّبُّ لِلشَّيْطَانِ: لِيَنْتَهِكِ الرَّبُّ يَا شَيْطَانُ! لِيَنْتَهِكِ الرَّبُّ الَّذِي اخْتَارَ أُورُشَلِيمَ! أَفَلَيْسَ هَذَا شُعْلَةً مُنْتَشَلَةً مِنَ النَّارِ؟"، والترجمة عن الترجمة العربية للكتاب المقدس (المترجم).

أي شيء تقريبًا مهما يكن»⁽²⁾. إنه يصف بصورة مؤلمة ومؤثرة هؤلاء السجناء الذين تخلوا عن الحياة، أولئك الذين فقدوا كل أمل في المستقبل وكانوا لا محالة أول من يموتون. لم يكن موتهم نتيجة نقص في الطعام أو نقص في الدواء بقدر ما كان نتيجة فقدان الأمل، وانتفاء هدف يعيشون من أجله. وعلى النقيض من ذلك، بقي فرانكل على قيد الحياة وأبقى الأمل على قيد الحياة من خلال استدعاء التفكير في زوجته وإمكانية رؤيتها مرة أخرى، والحلم في أن يحاضر في مرحلة ما بعد الحرب في الدروس النفسية التي يمكن أن يتعلمها من الخبرة التي يكتسبها في معسكر أوشفيتز⁽³⁾. من الواضح أن عددًا كبيرًا من السجناء الذين يثسروا من الرغبة في الحياة ماتوا، مات بعضهم بسبب المرض، ومات بعضهم في المحرقة. لكن اهتمام فرانكل بالسؤال عن سبب موت معظمهم كان أقل من اهتمامه بالسؤال عن سبب نجاة أي شخص منهم عمومًا.

وقد عززت خبرته في معسكر أوشفيتز، بقدر ما كانت خبرة رهيبة، إحدى الأفكار التي كانت بالفعل واحدة من أفكاره الرئيسية: إن الحياة أولاً ليست بحثًا عن المتعة كما يعتقد فرويد، أو بحثًا عن السلطة كما علمنا ألفرد أدلر، لكنها بحث عن المعنى. إن أعظم مهمة لأي شخص تتمثل في أن يجد معنى في حياته أو في طريقة عيشها. وقد رأى فرانكل ثلاثة مصادر محتملة للمعنى: في العمل (القيام بعمل مهم)، وفي الحب

(2) - الاقتباس من كتاب غسق الأوثان أو كيف تتفلسف بمطرقة *Twilight of the Idols, or, How to Philosophize with a Hammer*. وهو كتاب كتبه نيتشه في عام 1888 ونشر في عام 1889. والكتاب ترجمه إلى العربية الروائي التونسي علي مصباح بعنوان "غسق الأوثان أو كيف نتعاطى الفلسفة طرفًا بالمطرقة". وصدرت الترجمة عن دار الجمل في 2010 (المترجم).

(3) - معسكر أوشفيتز Auschwitz: أحد أكبر المعسكرات النازية في بولندا في أثناء الحرب العالمية الثانية. وأحد أربعة معسكرات اعتقل فيها فيكتور فرانكل (المترجم).

٢٥
(الاهتمام بشخص آخر)، وفي الشجاعة في أثناء الأوقات الصعبة. إن المعاناة في حد ذاتها لا معنى لها؛ إننا نضفي معنى على معاناتنا بالطريقة التي نستجيب بها لهذه المعاناة. كتب فرانكل في مرحلة ما، إن الإنسان «قد يبقى شجاعًا وكريمًا ويؤثر الآخرين على نفسه، أو قد ينسى كرامته الإنسانية ويصبح مجرد حيوان، في النضال الأكثر مرارة من أجل الحفاظ على الذات». ويعترف فرانكل بأن عددًا ضئيلاً فقط من السجناء في المعسكرات النازية كانوا قادرين على أن يكونوا على الصورة الأولى، «ولكن حتى هذا المثال يُعدُّ دليلاً كافياً على أن القوة الداخلية للإنسان قد ترفعه فوق المصير الذي تحدده له الظروف الخارجية».

وفي النهاية، إن أكثر النظرات ثباتاً لفرانكل، هي تلك النظرة التي استدعتها كثيراً في حياتي وفي مواقف استشارية لا تُحصى: يمكن للقوى الخارجة عن إرادتك أن تسلبك كل ما تملك باستثناء شيء واحد وهو حرّيتك في اختيار الكيفية التي تستجيب بها للموقف. لا يمكنك التحكم في ما يحدث لك في الحياة، ولكنك تستطيع دائماً أن تتحكم في ما سوف تشعر به وما تقوم به إزاء ما يحدث لك.

هناك مشهد في مسرحية آرثر ميلر حادثة في فيشي⁽⁴⁾ التي يظهر فيها رجل صاحب مهنة من الطبقة المتوسطة العليا أمام السلطة النازية التي احتلت بلده ويظهر أوراق اعتماده: الشهادات الجامعية التي حصل عليها ورسائل توصية من مواطنين بارزين، وما شابه ذلك. سأله النازي:

(4) - حادثة في فيشي *Incident at Vichy*: مسرحية من فصل واحد للكاتب المسرحي الأمريكي آرثر ميلر Arthur Miller (1915 - 2005). نشرت عام 1964: وتصور مجموعة من الرجال الذين قام باعتقالهم في مدينة فيشي الفرنسية عام 1942 مجموعة من ضباط الجيش الألماني وشرطة فيشي الفرنسية (المترجم).

«هل هذا كل ما لديك؟» أوما الرجل برأسه إيجاباً. فرمي النازي كل شيء في سلة المهملات قائلاً له: «جيد، لم يعد لديك الآن أي شيء». إن الرجل، الذي كان احترامه لذاته يعتمد دائماً على احترام الآخرين، يتم تدميره بشكل مؤثر. وربما جادل فرانكل في أنه لا يمكن أبداً أن يُسلب منا كل شيء ونبقى دون أي شيء ما دمنا نحتفظ بحرية اختيار الكيفية التي سوف نستجيب بها.

لقد أظهرت لي خبرتي الجماعية الخاصة حقيقة الرؤى الثاقبة التي كان يتمتع بها فرانكل. لقد عرفت رجال أعمال ناجحين فقدوا كل شغف بالحياة إثر التقاعد. كان عملهم هو الذي يضفي معنى على حياتهم. وكان في أكثر الأحيان الشيء الوحيد الذي أضفى معنى على حياتهم، ومن دونه قضوا يوماً بعد يوم وهم يجلسون في البيت، مكتئبين، «ليس لديهم ما يفعلونه». لقد عرفت أناساً ارتقوا إلى مستوى جعلهم يتحدثون أبشع المحن والمواقف ويتحملونها طالما كانوا يعتقدون أن هناك هدفاً لمعاناتهم سواء كان ذلك الهدف حدثاً عائلياً بالغ الأهمية يريدون أن يعيشوا لفترة كافية ليشاركوا فيه أم كان إمكانيةً أن يجد الأطباء علاجاً من خلال دراسة مرضهم. كان لديهم سببٌ للحياة يمكنهم من تحمّل الطريقة التي يعيشون بها.

وتردد خبرتي الخاصة أصداء خبرة فرانكل بطريقة أخرى. تماماً كما اكتسبت الأفكار في كتابي حين تحدثت أمور سيئة للناس الطيبين⁽⁵⁾ القوة

(5) - حين تحدثت أمور سيئة للناس الطيبين *When Bad Things Happen to Good People*: كتاب من تأليف الحاخام الأمريكي هارولد كوشنر (1935 -). صدر عام 1981، ويتناول الكتاب مشكلة تبرير الخير الإلهي والعناية الإلهية في ظل وجود الشر (المترجم).

والمصداقية لأنها عُرضت في سياق كفاحي لفهم مرض ابنتنا وموته، وهو مذهب فرانكل للعلاج بالمعنى logotherapy، وشفاء الرّوح من خلال قيادتها للعثور على معنى في الحياة، وهو مذهب يكتسب مصداقية من معاناة فرانكل في معسكر أوشفيتز. وقد يكون النّصف الثاني من الكتاب أقلّ فعالية بكثير من نصفه الأوّل.

ومما له دلالة أن كتب عالم نفسي بارز تصديرَ طبعة عام 1962 من كتاب الإنسان والبحث عن المعنى، هو الدكتور جوردون ألبورت⁽⁶⁾، وقد كتب تصدير هذه الطبعة الجديدة رجل من رجال الدين. لقد أدركنا أن هذا كتاب ديني في جوهره. إنه يصرّ على أن الحياة لها معنى وأنه علينا أن نتعلّم أن نرى معنى للحياة رغم ظروفنا. ويؤكد أن هناك غاية نهائية للحياة. وفي نسخته الأصليّة، قبل إضافة الملحق، انتهى بجمله من الجمل المكتوبة في القرن العشرين التي تحمل دلالة دينية إلى أقصى حدّ:

لقد عرفنا الإنسان كما هو حقاً. ورغم كلّ شيء، الإنسان هو الذي اخترع غرف الغاز في أوشفيتز. ومع ذلك، فهو أيضاً الذي دخل غرف الغاز هذه وهو منتصب القامة، والدّعاء للرّبّ أو اسمع إسرائيل⁽⁷⁾ على شفّيته.

(6) - جوردون ألبورت Gordon Allport (1897 - 1967): عالم نفس أمريكي، من أوائل علماء النفس الذين اهتموا بدراسة الشخصية؛ من أهم إسهاماته في علم النفس نظريته حول سمات الشخصية، والمعروفة باسم "نظرية السمات trait theory" (المترجم).

(7) - اسمع إسرائيل *Shema Yisrael*: صلاة يهودية، وهي عنوان للصلاة التي تشكل محور خدمات الصلاة اليهودية في الصباح والمساء. "اسمع يا إسرائيل: الرب إلهنا، الرب واحد"، سفر التثنية 6: 4 (المترجم).

هارولد س. كوشنر

«هارولد س. كوشنر» هو حاخام فخري في معبد إسرائيل في بلدة
ناتيك، في ولاية ماساتشوستس، ومؤلف العديد من الكتب الأكثر
مبيعا، بما في ذلك حين تحدث الأشياء السيئة لأناس طيبين، حياة جديرة
بأن تُعاش Living a Life That Matters (1986)، وحين يكون كل ما
أردته ليس كافيًا When All You've Ever Wanted Isn't Enough
(1986).

تصدير «طبعة 1992»

عاش هذا الكتاب الآن ليرى ما يناهز مائة طبعة باللّغة الإنجليزية، بالإضافة إلى أنّه نُشر في إحدى وعشرين لغة أخرى. وقد بيعَ من الطّبّعات الإنجليزيّة وحدها أكثر من ثلاثة ملايين نسخة.

هذه هي الحقائق المجرّدة دون تفاصيل، قد تكون السّبب في أنّ مراسلي الصّحف الأمريكيّة وخاصّة في محطات التلفزيون الأمريكيّة يشرعون مقابلاتهم في كثير من الأحيان بعد سرد هذه الحقائق، بأن يصيحوا: «يا دكتور فرانكل، لقد أصبح كتابك من أكثر الكتب مبيعًا حقًا. ما شعورك أمام مثل هذا النّجاح؟» وعندئذ أردّ قائلًا: إنني في البداية لا أرى أيّ إنجاز على الإطلاق في أن يكون كتابي الأكثر مبيعًا وهذا الإنجاز من وجهة نظري ليس إلّا تعبيرًا عن بؤس عصرنا: إذا حاول مئات الألوف من النّاس الحصول على كتاب يعدّ عنوانه بتناول مسألة معنى الحياة، فلا بدّ أن تكون هذه المسألة مؤرّقة لهم حقًا.

من المؤكّد أن شيئًا آخر قد يكون ساهم في تأثير الكتاب: إن الجزء الثاني، النظري (العلاج بالمعنى بإيجاز - Logo therapy in a Nutshell) يتلخص، إذا جاز التعبير، في الدرس الذي قد يستخلصه المرء من الجزء الأول، حكاية السيرة الذاتية (خبرات في معسكر اعتقال - Experiences

من نظرياتي. وبالتالي، فإن كلا الجزئين يدعم كل منهما مصداقية الآخر دعماً متبادلاً.

لم يكن في ذهني أي شيء من هذا في الاعتبار حين أنني أنجزت الكتاب عام 1945. وقد فعلت ذلك في غضون تسعة أيام متتالية وبتصميم خالص على ضرورة نشر الكتاب دون ذكر اسم المؤلف. وفي الواقع، لا يظهر اسمي على الغلاف في الطبعة الأولى من النسخة الألمانية الأصلية، رغم أنه في اللحظة الأخيرة، قبل النشر الأول للكتاب، استسلمت أخيراً لرغبة أصدقائي الذين حثوني على أن أسمح بنشر الكتاب مع وجود اسمي في صفحة العنوان على الأقل. ومع ذلك، فقد كتبت في البداية باقتناع مطلق بأنه لا يمكن أن يحقق لمؤلفه أي شهرة أدبية، باعتباره سيكون مؤلفاً لكاتب مجهول. أردت ببساطة أن أنقل إلى القارئ مثلاً ملموساً أن الحياة تحمل معنى محتملاً في ظل أي ظرف، حتى في ظل أكثر الظروف بؤساً. واعتقدت أنه إذا تم توضيح الهدف في موقف متطرف مثل ذلك الموقف في معسكر من معسكرات الاعتقال، فقد يحظى كتابي بالقبول. وبالتالي شعرت بالمسؤولية عن تدوين ما مررت به من خبرات، لأنني اعتقدت أن ذلك قد يكون مفيداً لمن هم معرضون للإصابة باليأس.

ولذا فمن الغريب والمثير للدهشة بالنسبة إليّ أن هذا الكتاب الذي كنت أنوي نشره دون ذكر اسم المؤلف حتى لا يحقق أي سمعة لصاحبه، هو الذي يحقق تحديداً كل هذا النجاح من بين عشرات الكتب التي قمت

بتأليفها. وبالتالي أنصح تكرارا، طلابي في أوروبا وأمريكا على حدّ سواء بما يلي: «لا تسع إلى النجاح، فكلّما جعلته غايتك، زاد فقدك له. لأنّ النجاح مثل السعادة، لا يمكن السعي وراءه؛ لا بدّ أن تنشأ السعادة بصفتها نتيجة، أن تنشأ فقط في هيئة أثر جانبيّ غير مقصود لتفاني المرء في قضية أكبر من ذاته أو في هيئة منتج ثانويّ لاستسلام المرء لشخص آخر غير ذاته. وحتى تتحقّق السعادة، وينطبق الشيء نفسه على النجاح: عليك أن تجعلها تتحقّق من خلال عدم الاهتمام بها. أطلب منك أن تستمع لما يأمرك به ضميرك وأن تستمرّ في تنفيذه بقدر ما تعرف. وبعد ذلك سوف تعيش لترى أنّ النجاح على المدى الطويل -أقول على المدى الطويل- سوف يتبعك تحديدا لأنك نسيت أن تفكر فيه».

قد يسألني القارئ عن السبب الذي جعلني لم أحاول الهروب مما كان في انتظاري بعد أن احتلّ هتلر النمسا. اسمحوا لي بأن تكون الإجابة بتذكّر القصة التالية: قبل وقت قصير من دخول الولايات المتحدة الحرب العالميّة الثانية، تلقّيت دعوة للذهاب إلى القنصلية الأمريكيّة في فيينا للحصول على تأشيرة الهجرة الخاصّة بي. شعر والداي المسنّان بسعادة غامرة لأنّهما توقّعا أنّه قد يتمّ السماح لي بمغادرة النمسا قريبا. لكنني تردّدت فجأة. حاصرني السؤال: هل يمكنني حقّا أن أترك والديّ بمفردهما ليواجهها مصيرهما، أن يُرسلا عاجلاً أم آجلاً إلى معسكر من معسكرات الاعتقال، أو حتّى إلى ما يسمّى معسكرات إبادة؟ أين كانت تقع مسؤوليتي؟ هل يجب أن أرى طفل دماغني، أعني العلاج بالمعنى، بالهجرة إلى تربة خصبة حيث يمكن أن أنجز كتيبي؟ أو هل يجب أن أركّز على واجباتي بصفتي ابناً حقيقياً، ابن والديّ، الابن الذي كان عليه القيام

بكل ما في وسعه لحمايتهما؟ فكّرت في المشكلة بهذه الطريقة لكنني لم أستطع الوصول إلى حلّ. كانت هذه المعضلة من النوع الذي خلق أمانة أن يأتي الحلّ من "إشارة من السماء"، كما تقول العبارة.

وكان أن لاحظتُ بعد ذلك وجود قطعة من الرّخام ملقاة على طاولة في البيت. حين سألت أبي عنها، أوضح لي أنّه وجدها في الموقع الذي أحرق فيه الاشتراكيون القوميون⁽⁸⁾ أكبر كنيس في فيينا. وكان قد أخذ القطعة إلى البيت لأنها كانت جزءاً من الألواح التي كُتبت عليها الوصايا العشر. وقد نقش على القطعة حرف مذهب بالعبرية؛ شرح والدي لي أن هذا الحرف يمثل إحدى الوصايا. سألتُ بفارغ الصبر: «أي وصية؟» فأجاب: «أَكْرِمُ أَبَاكَ وَأُمَّكَ كَيْ تَطُولَ أَيَّامُكَ عَلَى الْأَرْضِ»⁽⁹⁾. في تلك اللحظة قررت أن أبقى مع والدي ووالدتي على الأرض، وتركتُ التأشيرة الأمريكية تسقط.

فيكتور إ. فرانكل

فيينا، 1992

(8) - الاشتراكيون القوميون National Socialists: يشير المصطلح إلى الحزب النازي (المترجم).

(9) - الاقتباس من سفر الخروج 20: 12؛ والترجمة عن الترجمة العربية للكتاب المقدس؛ ونص الوصية بالكامل: "أَكْرِمُ أَبَاكَ وَأُمَّكَ لِكَيْ تَطُولَ أَيَّامُكَ عَلَى الْأَرْضِ الَّتِي يُعْطِيكَ الرَّبُّ إِلَهُكَ" (المترجم).

الجزء الأول

خبرات في معسكر اعتقال

الجزء الأول

خبرات في معسكر اعتقال

لا يزعم هذا الكتاب أنه سرد لحقائق وأحداث ولكنه سرد لخبرات شخصية، وهي خبرات كثيرًا ما عانى منها ملايين السجناء. إنها القصة الداخلية لمعسكر اعتقال، يرويها أحد الناجين من الموت فيه. وهذه الحكاية لا تهتم بالفظائع الكبيرة التي وُصفت بالفعل في أحيان كثيرة بما فيه الكفاية (رغم أنها لا تُصدّق أحيانًا كثيرة بمثل هذا القدر)، بل تهتم بالعديد من العذابات الصغيرة. وبتعبير آخر، سوف تحاول الإجابة عن السؤال التالي: كيف انعكست الحياة اليومية في معسكر من معسكرات الاعتقال على عقل السجن العادي؟

إن معظم الأحداث الموصوفة هنا لم تحدث في المعسكرات الكبيرة والشهيرة، لكنها حدثت في المعسكرات الصغيرة حيث كانت تقع معظم عمليات الإبادة الحقيقية. إن هذه القصة ليست عن معاناة أبطال وشهداء

عظماؤهم ولا عن موتهم، ولا عن أفراد الكابو⁽¹⁰⁾ البارزين - السجناء الذين تصرفوا على أنهم أوصياء، ولديهم امتيازات خاصة - أو على أنهم سجناء مشهورون. وبالتالي فإن هذه القصة لا تهتم كثيرًا بمعاناة الأقوياء، بل بتضحيات الجيش الكبير من الضحايا المجهولين وغير المسجلين وبالتعذيب الذي تعرضوا له، وبموتهم. كان هؤلاء السجناء العاديون، الذين لم يكونوا يحملون علامات مميزة على سواعدهم، هم الذين احتقرهم أفراد الكابو حقًا. في حين أن هؤلاء السجناء العاديين لم يكن لديهم سوى القليل من الطعام أو ليس لديهم ما يأكلونه، لم يُجْع أي فرد من أفراد الكابو قط؛ في الواقع، كان أداء معظمهم في المعسكر أفضل مما كان عليه أداءهم طوال حياتهم. وكانوا أحيانًا كثيرة أشد قسوة على السجناء من الحراس، فقد ضربوهم بوحشية أكثر مما ضربهم رجال قوات الأمن الخاص. طبعًا، لم يكن يتم اختيار أفراد الكابو هؤلاء إلا من السجناء الذين توحى شخصياتهم بأنهم سوف يكونون مناسبين لمثل هذه الإجراءات، وإذا لم يلتزموا بما كان متوقعًا منهم، يتم خفض رتبهم على الفور. وسرعان ما أصبحوا يشبهون إلى حد كبير رجال قوات الأمن الخاص وحراس المعسكر ويمكن الحكم عليهم على أساس نفسي مماثل.

من السهل على الشخص الغريب أن يتصور المفهوم الخطأ عن حياة المعسكر، وهو مفهوم يختلط بالمشاعر والشفقة. إنه لا يعرف إلا القليل عن القتال الصعب من أجل الوجود، القتال الذي كان يحدث بين السجناء. وقد كان هذا القتال صراعًا لا يلين من أجل الخبز اليومي

(10) - الكابو Capos: سجناء في معسكر اعتقال نازي، كان حراس قوات الأمن الخاص يكلفونهم بالإشراف على العمل بالسخرة أو تنفيذ المهام الإدارية.

والحياة نفسها، من أجل المرء نفسه، أو من أجل صديق جيد.

كانت التخمينات واثقة إلى حد كبير في أن الوجهة النهائية قد تكون غرف الغاز، بشأن حالة النقل التي تم الإعلان عنها رسميًا لنقل عدد معين من السجناء إلى معسكر آخر. فقد يتم إرسال مجموعة مختارة من السجناء المرضى أو الضعفاء غير القادرين على العمل إلى أحد المعسكرات المركزية الكبيرة التي تم تجهيزها تجهيزًا جيدًا بغرف الغاز وأفران حرق الجثث. كانت عملية الاختيار إشارة إلى قتال دون أية قواعد بين جميع السجناء، أو بين جماعة ضد جماعة. كان كل ما يهم هو أن يتم شطب اسم الشخص واسم أحد الأصدقاء من قائمة الضحايا، ورغم أن كل شخص كان يعرف أنه لا بد من أن يتم العثور على ضحية أخرى مقابل كل رجل يتم إنقاذه.

كان لا بد من ذهاب عدد محدد من السجناء مع كل عملية نقل. ولم يكن من المهم حقًا معرفة أي شخص يُنقل، إذ لم يكن كل واحد منهم إلا رقمًا. فعند حجزهم في المعسكر (على الأقل كانت هذه هي الطريقة التي تجري بها الأمور في معسكر أوشفيتز)، كانت تُؤخذ منهم جميع وثائقهم وكل ممتلكاتهم الأخرى. وبالتالي، كانت تسنح لكل سجين فرصة لادعاء اسم وهمي أو مهنة وهمية؛ ولأسباب مختلفة فعل ذلك عدد كبير منهم. لكن السلطات لم تكن تهتم إلا بأرقام الأسرى. وكثيرًا ما كان يتم وشم هذه الأرقام على جلدتهم، وكان لا بد أيضًا من أن تتم خياطتها في مكان معين على البنطلون أو السترة أو المعطف. وكان على أي حارس

يريد توجيه تهمة ضدّ سجين أن يكفي بإلقاء نظرة خاطفة إلى رقمه (وكم أصابتنا هذه النظرات الخاطفة بالفزع!)؛ فلم يسأل أيّ حارس عن اسم سجين قطُّ.

وبالعودة إلى قافلة الترحيل حين تكون على وشك المغادرة. لم يكن هناك وقت أو رغبة في النظر في القضايا الأخلاقية أو الأدبية. لم تكن هناك سوى فكرة واحدة فقط تسيطر على كلّ إنسان: أن يبقى على قيد الحياة من أجل العائلة التي تنتظره في البيت، وأن ينقذ أصدقاءه. وبالتالي سوف يدبر أمرا لسجين آخر، أي «لرقم» آخر، دون أيّ تردد حتى يحلّ محله في عملية النقل.

وكما ذكرتُ من قبل، كانت عملية اختيار أفراد الكابو عملية سلبية؛ تمّ اختيار أكثر السّجناء وحشية فقط لهذه المهمة (رغم وجود بعض الاستثناءات المبهجة). ولكنّ بصرف النظر عن عملية اختيار أفراد الكابو التي كانت تقوم بها قوّات الأمن الخاصّ، كانت هناك عملية اختيار ذاتي، من نوع ما، مستمرة طوال الوقت بين جميع السّجناء. وكان أولئك السّجناء فقط الذين استطاعوا أن يبقوا على قيد الحياة هم الذين تخلّوا عن كلّ تردد في كفاحهم من أجل الوجود، بعد سنوات من التنقل المضني من معسكر إلى معسكر. لقد كانوا على استعداد لاستخدام كلّ الوسائل التزيهية وغيرها، من أجل إنقاذ أنفسهم حتى بالقوّة الوحشية والسرقة وخيانة أصدقائهم. إنّنا، نحن الذين عادوا بمساعدة العديد من الفرص السعيدة أو المعجزات - بصرف النظر عن الاسم الذي قد يختار المرء أن يطلقه عليها - نعلم أنّ أفضلنا لم يعودوا.

وقد تمّ تدوين عدد كبير من الحكايات الواقعية حول معسكرات الاعتقال بالفعل. هنا، سوف تكون الحقائق مهمة فقط بقدر ما تكون جزءاً من خبرات الإنسان. وسوف تحاول الدراسة التالية وصف الطبيعة الدقيقة لهذه الخبرات. بالنسبة إلى أولئك الذين كانوا سجناء في معسكر. سوف تحاول الدراسة شرح خبراتهم في ضوء المعرفة الحالية. وبالنسبة إلى أولئك الذين لم يسبق لهم أن كانوا داخل هذه المعسكرات، قد تساعدهم هذه الدراسة على فهم خبرات ذلك العدد الصغير جداً من السجناء الذين نجوا ويجدون الحياة الآن بالغة الصعوبة، وتفهم تلك الخبرات في البداية. كثيراً ما يقول هؤلاء السجناء السابقون: «إننا لا نحب الحديث عن خبراتنا. ليست هناك حاجة إلى تقديم تفسيرات لأولئك الذين كانوا داخل المعسكرات، والآخرين الذين لم يكونوا داخلها لن يفهموا ما كنا نشعر به في ذلك الوقت أو ما نشعر به الآن».

إن محاولة تقديم عرض منهجي للموضوع أمر بالغ الصعوبة، لأن علم النفس يتطلب قدرًا معينًا من التجرد العلمي. لكن هل يتمتع الرجل الذي يولي بملاحظاته بالتجرد المطلوب بينما كان هو نفسه سجينًا؟ يتم التسليم بهذا التجرد للشخص الذي كان خارج المعسكر، لكن مثل هذا الشخص أبعد ما يكون عن الإدلاء بأيّ بيانات ذات قيمة حقيقية. فلا يعرف الحقيقة إلا الإنسان الذي كان داخل المعسكر. قد لا تكون أحكامه موضوعية؛ قد تكون تقيّماته بعيدة عن الحقيقة. إنه أمر لا مفرّ منه. لا بدّ من بذل محاولة لتجنب أي تحيز شخصي، وهذه هي الصعوبة

الحقيقية في كتاب من هذا النوع. سوف يكون من الضروري أحيانا أن يتحلّى المرء بالشجاعة التي تجعله يروي خبرات حميمة للغاية. وكنت قد نويت أن أوّلف هذا الكتاب دون أن أذكر اسم المؤلّف، مكتفياً باستخدام رقمي في السّجن. ولكن حين اكتملت المخطوطة، رأيت أنّها إذا صدرت على أنّها مطبوعة مجهولة المؤلّف سوف تفقد نصف قيمتها، وأنّه عليّ أن أتحدّى بالشجاعة لإعلان قناعاتي علانية. لذلك امتنعت عن حذف أيّ فقرة من الفقرات، رغم الكراهية الشديدة للسلوك الاستعراضيّ.

سوف أترك للآخرين مسألة تقطير محتويات هذا الكتاب وتحويلها إلى نظريات جافة. قد تقوم هذه النظريات بالمساهمة في سيكولوجية حياة السجن، التي تم فحصها بعد الحرب العالمية الأولى، وقد جعلتنا نتعرف على متلازمة «مرض الأسلاك الشائكة»⁽¹¹⁾. ونحن مدينون للحرب العالمية الثانية بإثراء معرفتنا ب «علم النفس المرضي للجماهير» (إذا جاز لي أن أقتبس صيغة من التعبير المعروف وعنوان كتاب من تأليف ليون⁽¹²⁾، لأن الحرب قدمت لنا حرب الأعصاب وقدمت لنا معسكر الاعتقال.

وبما أنّ هذه القصة تدور حول خبراتي بصفتي سجيناً عادياً، فمن

(11) - مرض الأسلاك الشائكة *barbed wire sickness*: متلازمة وصفها الطبيب السويسري أدولف لوكاس فيشر *Adolf Lukas Vischer* (1884 - 1974)، في الأسرى الذين قضوا فترات طويلة في الأسر. وتشمل أعراضها الملل والارتباك وتشوش الوعي وفقدان الذاكرة (المترجم).

(12) - علم النفس المرضي للجماهير *psychopathology of the masses*: مصطلح يشير إلى الظواهر النفسية المرضية بين مجموعة كبيرة من الجماهير. وأظن أن الإشارة إلى كتاب الجماهير: دراسة للعقل الشعبي *The Crowd: A Study of the Popular Mind* من تأليف المثقف الموسوعي الفرنسي جوستاف ليون *Gustave Le Bon* (1841 - 1931)، صدر في عام 1895 بعنوان *Psychologie des Foules*. أي سيكولوجيا الجماهير، والكتاب ترجمه هاشم صالح إلى العربية بعنوان "سيكولوجية الجماهير"، وصدر عن دار الساقي، 1991 (المترجم).

المهم أن أذكر، ليس من دون فخر، أنني لم أعمل طبيياً نفسياً في المعسكر أو حتى بصفتي طبيياً، إلا في آخر بضعة أسابيع. كان عدد قليل من زملائي محظوظين بما يكفي للعمل في مراكز الإسعافات الأولية سيئة التدفئة التي تستخدم ضمادات مصنوعة من قصاصات من نفايات الورق. لكنني كنت رقم 119104، وفي معظم الأوقات كنت أقوم بالحفر ووضع مستلزمات مدّ خطوط السكك الحديدية. وفي وقت من الأوقات، كانت مهمتي تتمثل في حفر نفق، دون أي مساعدة، لقناة مياه رئيسية تحت الطريق. لم يذهب هذا الإنجاز دون مكافأة؛ قبل الكريسماس عام 1944 مباشرة، عُرضت عليّ هدية تسمى «الكوبونات المميزة». وكانت قد قامت بإصدارها شركة البناء التي تمّ بيعنا إليها عملياً على أننا عبيد: كانت الشركة تدفع لسلطات المعسكر سعراً ثابتاً في اليوم عن كلّ سجين. وكان كلّ «كوبون» من هذه «الكوبونات» يكلف الشركة خمسين فينجا⁽¹³⁾ وكان من الممكن أن تستبدل ستّ سجائر بكوبون، وكان ذلك يتمّ غالباً بعد أسابيع، رغم أنّ الكوبونات كانت تفقد صلاحيتها أحياناً. أصبحت المالك المزهو بكوبون مميّز بقيمة اثنتي عشرة سيجارة. لكنّ الأهمّ من ذلك، أنّه يمكن أن تستبدل بالسجائر 12 طبقاً من الحساء، وكثيراً ما كان اثنا عشر طبقاً من الحساء إرجاء حقيقياً للموت جوعاً.

تم الاحتفاظ بامتياز تدخين السجائر بالفعل لفرد الكابو، الذي كان له حصة مؤكدة من الكوبونات أسبوعياً؛ أو ربما للسجين الذي كان

(13) - الفينج pfennig: عملة معدنية المانية تساوي واحد على مائة من الفرنك (قبل استعمال اليورو)
(المترجم)

يعمل رئيسًا للعمال في مستودع أو ورشة عمل وتلقى بضع سجائر مقابل القيام بأعمال خطيرة. وكان الاستثناء الوحيد في هذا أولئك الذين فقدوا إرادة العيش وأرادوا «الاستمتاع» بأيامهم الأخيرة. وهكذا، حين كنا نرى رفيقًا يدخن سجائره، كنا نعلم أنه تخلى عن إيمانه بقدرته على أن يواصل الحياة، ونادرًا ما كانت تعود إليه إرادة الحياة.

حين يفحص المرء الكميّة الهائلة من المواد التي تمّ جمعها نتيجة ملاحظات لعدد كبير من السّجناء، ويدقّق في خبراتهم، تتضح له ثلاث مراحل من ردود الفعل العقلية للسّجين على الحياة في المعسكر: الفترة التي تلي دخوله؛ الفترة التي يكون فيها قد انغمس انغماسًا شديدًا في روتين المعسكر؛ والفترة التي تعقب إطلاق سراحه وتحرّره.

1 والصّدمة هي العَرَض الذي يميّز المرحلة الأولى. وفي ظلّ ظروف معيّنة، ربّما حتّى تحدث الصّدمة قبل أن يدخل السّجين إلى المعسكر بشكل رسميّ. وسوف أقدم، مثلاً، ظروف دخولي إلى المعسكر.

كان ألف وخمسةائة شخص يسافرون في القطار لعدة أيام وليالٍ: كان هناك ثمانون شخصًا في كل عربة. كان على الجميع أن يستلقوا على أمتعتهم، أي البقايا القليلة من ممتلكاتهم الشخصية. كانت العربات ممتلئة إلى درجة أن الأجزاء العلوية فقط من النوافذ كانت تسمح بدخول أول شعاع من ضوء النهار. وقد توقع الجميع أن يتجه القطار إلى بعض مصانع الذخائر، حيث نستخدم في العمل بالسّخرة. لم نكن نعرف ما إذا كنا لا نزال في سيليزيا⁽¹⁴⁾ أو أننا بالفعل في بولندا. كان لصافرة محرك

(14) - سيليزيا Silesia: منطقة تاريخية في أوروبا الوسطى. تغطي الأجزاء الجنوبية الغربية من بولندا وبعض أجزاء من ألمانيا وجمهورية التشيك (المترجم).

القطار صوت غريب، مثل صرخة لطلب المساعدة ترسل لمواساة الحمل التعيس الذي كان مقدرًا له أن يقاد إلى الهلاك. ثم تم تحويل مسار القطار، بالقرب من محطة رئيسية. وفجأة انطلقت صرخة من صفوف الركاب القلقين، "هناك يافطة، أوشفيتز!" اضطربت نبضات قلوب الجميع في تلك اللحظة. أوشفيتز - كان الاسم نفسه يمثل كل ما كان مروّعًا: غرف الغاز وأفران حرق الجثث والمذابح. ببطء، وبتردد تقريبًا، انتقل القطار كما لو كان يريد أن يجنب ركابه الإدراك المروع لأطول فترة ممكنة: أوشفيتز!

مع انبثاق الفجر تدريجيًا، ظهرت لنا الخطوط العريضة لمعسكر ضخّم: امتدادات طويلة من عدّة صفوف من أسوار من الأسلاك الشائكة؛ أبراج المراقبة والكشافات الضوئية و صفوف طويلة من بشر في حالة رثّة، كانوا شاحبين في شحوب ضوء الفجر، يشقون طريقهم بصعوبة على طول الطّرق المقفرة المستقيمة، إلى وجهة لم نكن نعرفها. كانت هناك صيحات متباعدة وصفارات للقيادة لم نكن نعرف معناها. قادتني مخيلتي إلى رؤية مشانق يتدلّى من فوقها بعض الأشخاص. وقد انتابني حالة من الرّعب، لكن كان هذا كافيًا أيضًا، لأنّه كان علينا أن نعتاد خطوة خطوة على فزع رهيب وهائل.

وصلنا إلى المحطة في النهاية. قطعت الصّمت المخيم على المكان أوامرٌ صادرةٌ بصوت مرتفع. وكان علينا أن نستمرّ مرارا في سماع تلك النّبرات الخشنة والقاسية منذ ذلك الحين في جميع المعسكرات. كان صوتهم يشبه تقريبًا الصرخة الأخيرة لأحد الضحايا، لكن يبقى أنّه كان هناك فرق.

كانت هناك بحة في الصوت، وكأنه جاء من حلق رجل كان مرغماً على أن يواصل الصراخ على هذا النحو، رجل يُقتل مراراً. كانت أبواب العربية مفتوحة، وكانت مجموعة صغيرة من السجناء تندفع إلى داخلها بعنف. كانوا يرتدون زيًا مخطّطاً، ورؤوسهم مخلوقة، لكن بدا عليهم أثر التغذية الجيدة. تحدّثوا بكل اللغات الأوروبية المحتملة، وكانوا يتمتعون جميعاً بقدر معين من روح الدّعابة، وقد بدت هذه الروح متنافرة في ظل تلك الظروف. مثل رجل يغرق يتعلّق بقشّة، تشبّث التّفاؤل المتأصل الذي أتمتع به (وغالباً ما كان يسيطر على مشاعري حتى في أكثر المواقف مدعاة لليأس) بهذه الفكرة: يبدو أنّ هؤلاء السجناء في حالة جيدة، يبدو أنّهم في حالة معنوية جيدة حتى أنّهم كانوا يضحكون. من يعرف؟ قد أنجح في أن أشاركهم وضعهم المفضل.

هناك حالة معيّنة في الطبّ النفسي تُعرف باسم «هذاء الإرجاء»⁽¹⁵⁾. يتوهم فيها الرّجل المحكوم عليه بالإعدام، قبل إعدامه مباشرة، بأنّه قد يتم إرجاء تنفيذ الحكم في اللّحظة الأخيرة. تمسّكنا نحن أيضاً ببقايا الأمل واعتقدنا حتى اللّحظة الأخيرة أنّ الأمر لن يكون بكلّ هذا السوء. كان مجرد رؤية الخدود الحمراء والوجوه المستديرة لهؤلاء السجناء يمثل تشجيعاً عظيماً. لم نكن نعلم بعد ذلك أنّهم قد شكّلوا نخبة مختارة خصيصاً لهذه المهمّة، كانت لسنوات فرقة استقبال للوافدين الجدد في أثناء دخولهم المحطّة يوماً بعد يوم. وكانت تتولّى مسؤولية الوافدين

(15) - هذاء الإرجاء: delusion of reprieve: مصطلح في علم النفس والطب النفسي يصف اعتقاد المرء بأنه سوف ينجو في اللّحظة الأخيرة من الكارثة التي يعلم أنه مقبل عليها. ويصف به فيكتور فرانكل السجناء الذين وصلوا للنو إلى معسكرات الاعتقال. يعتقد هؤلاء السجناء اعتقاداً خاطئاً، لكنه راسخ لا يتزحجج. بأنهم لن يقتلوا ولن تساء معاملتهم، وأنهم سوف يتفادون القتل وإساءة المعاملة في آخر لحظة. على الرغم من أنّهم على معرفة تامة بسمعة هذه المعسكرات وبما يحدث في داخلها.

الجدد وأمتعتهم، بما في ذلك الأشياء النادرة والمجوهرات المهرّبة. لا بدّ أن معسكر أوشفيتز كان بقعة غريبة في أوروبا في السّنوات الأخيرة من الحرب. لا بدّ أنّه كانت توجد هناك كنوز فريدة من الذهب والفضّة والبلاتين والماس، ليس فقط في المخازن الضّخمة ولكن في أيدي قوّات الأمن الخاصّ أيضًا.

تمّ تجميع ألف وخمسة مائة أسير في سقيفة تمّ بناؤها لاستيعاب مائتي شخص على أقصى تقدير. كنّا نشعر بالبرد والجوع، ولم يكن هناك مكان يكفي لجلوس الجميع على الأرض العارية، ناهيك عن الاستلقاء عليها. كان طعامنا الوحيد في أربعة أيّام قطعة من الخبز وزنها خمس أوقيات. ومع ذلك، سمعت كبار السّجناء المسؤولين عن السّقيفة يساومون أحد أعضاء فريق الاستقبال بشأن دبّوس ربطة عنق مصنوع من البلاتين والماس. سوف يتمّ تداول معظم الأرباح في نهاية المطاف مقابل بعض المشروبات الكحولية - الشنابس⁽¹⁶⁾. لم أعد أتذكر عدد آلاف الماركات اللازمة لشراء كمية المشروبات الرّوحية التي تكفي لقضاء «أمسية ممتعة»، لكنني أعلم أن هؤلاء السّجناء الذين قضوا فترة طويلة في السّجن كانوا يحتاجون إلى الشنابس. ومن الذي كان يمكن، في ظلّ هذه الظروف، أن يلومهم على محاولتهم تخدير أنفسهم؟ كانت هناك مجموعة أخرى من السّجناء الذين حصلوا على مشروبات كحولية بكميات غير محدودة تقريبًا من قبل قوّات الأمن الخاصّ: هؤلاء هم الرّجال الذين تمّ توظيفهم في غرف الغاز وأفران حرق الجثث، والذين كانوا يعرفون جيّدًا

(16) - الشنابس schnapps: مشروب كحولي قوي يشبه الجن، ويصنع بتقطير الفاكهة (الكُمثرى والتفاح والخرولة والموز والعنب والخوخ إلخ) أو هرس الحبوب دون استخدام أي إضافات.

أنهم قد يتم تخفيف العبء عنهم في يوم من الأيام بأن تحل مكانهم مجموعة جديدة من الرجال، وأنهم سوف يُرغمون على أن يتركوا الدور الإجباري الذي يقومون به، أي دور الجلاد، وأن يصبحوا هم أنفسهم ضحايا.

كان كل من في عربتنا تقريباً يعيش تحت وهم أنه سوف يتم إرجاء تنفيذ الحكم عليه، وأن كل شيء سوف يكون على ما يُرام. لم نكن ندرك المعنى الكامن وراء المشهد الذي كان لا بد أن يتبع ذلك الموقف عما قريب. طُلب منا أن نترك أمتعتنا في القطار وأن نصطف في صفين - النساء على جانب والرجال على الجانب الآخر - كي نمر على ضابط كبير في قوات الأمن الخاص. ومن المثير جداً للدهشة أن الشجاعة قد أسعفتني لإخفاء حقيبتي الصغيرة⁽¹⁷⁾ تحت معطفي. مرّ صفّي أمام الضابط، واحداً إثر آخر. أدركت أنني قد أتعرض للخطر إذا لمح الضابط حقيبتي. قد يطرحني أرضاً على أقل تقدير؛ عرفت ذلك من خبرة سابقة. استقمت عند الاقتراب من الضابط بشكل غريزي، حتى لا يلاحظ أنني أتأبط حملاً ثقيلاً. ثم كنا وجهاً لوجه. كان رجلاً طويل القامة بدا نحيفاً وأنيقاً في زيّه العسكري الناصع. كم كان متناقضاً معنا، نحن الذين كنا غير مهندمين ومتسخين بعد رحلتنا الطويلة! كان قد اتخذ وضعاً ينم عن الهدوء وعدم المبالاة، سانداً كوعه اليمنى بيده اليسرى. تمّ رفع يده اليمنى، وبسبابة تلك اليد أخذ يشير بروية شديدة إلى اليمين أو إلى اليسار. لم يكن لدى أيّ منا أدنى فكرة عن المعنى الشرير وراء هذه الحركة

(17) - حقيبتي الصغيرة: في الأصل haversack؛ وهي حقيبة صغيرة توضع على كتف واحد؛ يستخدمها عادة الجنود والمتنزهون.

الصغيرة لإصبع هذا الرجل، وهو يشير حينًا إلى اليمين وحينًا إلى اليسار، ولكنه كان يكرّر الإشارة إلى اليسار أكثر.

جاء دوري. وقد همس لي أحدهم بأن إرسال الشخص إلى الجانب الأيمن قد يعني العمل، والطريق إلى اليسار للمرضى الذين لا يستطيعون العمل، فإنه قد يتم إرسالهم إلى معسكر خاص. وكنت أنتظر فقط أن تأخذ الأمور مسارها، وكانت أول مرة من بين مرّات عديدة تأتي بعد ذلك. كانت حقيبتى الصغيرة تجعلني أميل إلى اليسار قليلا، لكنني بذلتُ بعض الجهد لأسير في وضع مستقيم. ألقى رجل الأمن الخاص نظرة إليّ، وبدا متردّدًا، ثم وضع كلتا يديه على كتفي. حاولتُ جاهدًا أن أبدو نشيطًا، وقد أدار كتفي ببطء شديد حتى صرّتُ إلى اليمين، وانتقلت إلى ذلك الجانب.

في المساء تمّ تفسير دلالة لعبة الإصبع لنا. كان الاختبار الأوّل، أوّل حكم على وجودنا أو عدم وجودنا. بالنسبة إلى الغالبية العظمى ممن كانوا في عربتنا، حوالي 90 في المائة، كان ذلك يعني الموت. تمّ تنفيذ الحكم عليهم خلال الساعات القليلة التالية. فقد سار أولئك الذين تمّ إرسالهم إلى اليسار من المحطة إلى أفران حرق الجثث مباشرةً. كُتبت على أبواب هذا المبنى، كما أخبرني أحد الأشخاص الذين كانوا يعملون هناك، كلمة «حمام» بعدة لغات أوروبية. عند الدّخول، كان كلّ سجين يحصل على قطعة صابون، ثم...، ولكنني لا أريد أن أصف الأحداث التي أعقبت ذلك. تمّت كتابة قصص كثيرة حول هذا الهلع.

وقد اكتشفنا، نحن الذين تمّ إنقاذهم، وكنا نمثل أقلية ممن كانوا في

عربتنا، هذه الحقيقة في المساء. وقد استفسرتُ من السجناء الذين كانوا هناك لبعض الوقت عن المكان الذي تمّ إرسال زميلي وصديقي «ب» إليه.

- هل تمّ إرساله إلى الجانب الأيسر؟

- أجبت: نعم.

- قيل لي: «من ثمّ يمكن أن تراه هناك».

- أين؟ أشارت اليد إلى المدخنة على بعد بضعة مئات الأمتار،

وكانت المدخنة ترسل عمودًا من اللهب إلى السماء الرمادية في

بولندا. وقد ذابت السماء في سحابة شريرة من الدخان.

كان الجواب هو «هنا حيث يخلق صديقك صاعدًا إلى السماء». لكنني

لم أفهم إلى أن تمّ شرح الحقيقة لي بكلمات مباشرة.

لكنني أروي الأشياء دون ترتيب. من وجهة نظر نفسيّة، كان أمامنا

طريق طويل جدا من انبلاج ذلك الفجر في المحطة حتى أوّل ليلة نقضيها

في المعسكر.

برفقة حراس قوآت الأمن الخاصّ ومعهم البنادق المشحونة، أجبنا

على الجري من المحطة إلى مكان التّظيف، عبر أسلاك المعسكر الشائكة

المشحونة كهربائيًا؛ كان هذا حمّامًا حقيقيًا، بالنّسبة إلى أولئك الذين

اجتازوا من بيننا الاختبار الأول. مرة أخرى وجد وهم الإرجاء في

نفوسنا تأكيدًا له. بدا رجال قوآت الأمن الخاصّ لطفاءً تقريبًا. وسرعان

ما اكتشفنا السّبب وراء ذلك. لقد كانوا لطفاء بنا طالما كانوا يرون

ساعات في معاصمنا ويمكن أن يقنعونا بالتخلّي عنها لهم بنبرة تنمّ عن

حسن النوايا. ألن نضطرّ إلى تسليم جميع ممتلكاتنا على أيّ حال، ولمّ لا يمتلك الساعة هذا الشخص اللطيف نسيباً؟ ربّما يقوم في يوم من الأيام بدور جيد في المقابل.

انتظرنا في سقيفة بدت كغرفة الانتظار تؤدّي إلى غرفة التعقيم. ظهر رجال قوّات الأمن الخاصّ ونشروا البطانيات التي كان علينا أن نرمي عليها جميع ممتلكاتنا وجميع ساعاتنا ومجوهراتنا. كان لا يزال هناك سجناء ساذجون بيننا سألوا عمّا إذا لم يكن من الممكن أن يحتفظوا بخاتم زفاف أو ميدالية أو قطعة تجلب الحظّ، ممّا أثار سخريّة من هم أكثر حنكة ممّن كانوا هناك باعتبارهم مساعدين. لم يكن في استطاعة أحد حتّى الآن أن يدرك حقيقة أن كلّ شيء سوف يتمّ انتزاعه.

حاولت أن أكسب ثقة أحد السّجناء القدامى. وأنا أقرب منه بشدّة، أشرت إلى لفافة من الورق في الجيب الدّاخلي لمعطفي وقلت: «انظر، هذه مخطوطة كتاب علميّ. أعرف ما ستقوله؛ يجب أن أكون ممتناً إذا استطعتُ الهروب بحياتي، وهذا كلّ ما عليّ أن أتوقّعه من قدرّي. لكن لم يكن باليد حيلة. لا بدّ أن أحفظ بهذه المخطوطة بأيّ ثمن؛ إنها تحتوي على عمل حياتي. هل تفهم ذلك؟»

نعم، كان قد بدأ يفهم. اصطنع ببطء ابتسامة عريضة متكلفة على وجهه، ابتسامة شفقة في البداية، ثم أصبحت تنم أكثر عن الاهتمام، ثم السخرية، والإهانة، إلى أن صرخ في وجهي بكلمة واحدة ردّاً على سؤالّي، وهي كلمة كانت موجودة دائماً في معجم سجناء المعسكر: «خراء - Shit!» في تلك اللحظة رأيت الحقيقة الواضحة وفعلتُ ما كان

يميز نقطة الذروة⁽¹⁸⁾ في المرحلة الأولى من رد فعلي على المستوى النفسي: لقد ضربت حياتي السابقة كلها. لقد محوت كل حياتي السابقة.

فجأة كانت هناك ضجة بين زملائي من المسافرين الذين كانوا يقفون بالقرب منا ووجوههم شاحبة تبدو عليها مشاعر الخوف، يتناقشون بإحساس بالعجز. سمعنا الأوامر تنطلق مرة أخرى بصوت مرتفع وبشكل فظ. تم دفعنا بالضرب إلى الردهة المباشرة للحمام. وهناك اجتمعنا حول رجل الأمن الخاص الذي انتظر حتى وصلنا جميعاً. ثم قال: «سوف أعطيكم دقيقتين، وسوف أحدد لكم الوقت بساعتي. في هاتين الدقيقتين سوف تخلعون ملابسكم بالكامل وتسقطون كل شيء على الأرض حيث تقفون. لن تأخذوا معكم شيئاً سوى الحذاء والحزام أو الحماله وربما الدعامة. إنني أبدأ بالعدّ - الآن!»!

بتسرع لا يمكن تصوّره، تخلص هؤلاء الناس من ملابسهم. ومع اقتراب انتهاء الوقت المحدد، ازداد توترهم وشدوا ملابسهم الداخليّة وأحزمتهم وأربطة الأحذية بطريقة تفتقر إلى الدقّة. ثم سمعنا الأصوات الأولى للضرب بالسيّاط؛ صوت سيّاط جلديّة تنهال بالضرب على أجساد عارية.

تمّ اقتيادنا بعد ذلك إلى غرفة أخرى للحلاقة: لم يتمّ فقط حلق شعر رؤوسنا، لكن لم يترك أيّ شعر على أيّ جزء من أجسامنا كلّها. ثمّ إلى

(18) - نقطة الذروة culminating point: في الاستراتيجية العسكرية، نقطة تفقد عندها القوة العسكرية القدرة على أداء عملياتها. في الهجوم، تشير إلى الوقت الذي لم تعد فيه القوة المهاجمة قادرة على مواصلة التقدم، بسبب مشاكل في الإمداد، أو القوة المعادية، أو بسبب الحاجة إلى الراحة. ومهمة المهاجم استكمال أهدافه قبل الوصول إلى نقطة الذروة. ومهمة المدافع، من ناحية أخرى، أن يجعل القوة المهاجمة تصل إلى نقطة الذروة قبل أن تكتمل أهدافها (المترجم).

الحّمّات، حيث اصطففنا مرّة أخرى. فلم نكد نتعرّف على بعضنا بعضًا. لكن لاحظ بعض الناس بارتياح كبير أنّ الماء الحقيقيّ يقطر من فتحات الدشّ.

بينما كنّا ننتظر الاستحمام، استوعبنا معنى عُرينا بوضوح: لم يكن لدينا أيّ شيء الآن سوى أجسادنا العارية حتّى دون شعر. كان كلّ ما نملكه هو وجودنا العاري تمامًا. أيّ شيء آخر بقي لنا غير ذلك على أنّه صلة مادّية بحياتنا السابقة؟ بالنسبة إليّ كانت هناك نظارتاي وحزامي. وكان عليّ في وقت لاحق أن أتخلّى عن الحزام مقابل قطعة من الخبز. وكان في انتظار أصحاب الدعامات بعض الإثارة الإضافيّة. في المساء، رحّب بنا السّجين القديم المسؤول عن كوخنا بخطاب أعطانا فيه كلمة الشرف بأنّه سوف يعلّق شخصيًّا «في تلك العارضة» -وأشار إليها- أيّ شخص قام بخياطة المال أو الأحجار الكريمة في دعاماته. وأوضح بفخر أن قوانين المعسكر تسمح له بالقيام بذلك بصفته أحد قدامى المقيمين فيه.

وفي ما يتعلّق بأحذيتنا، لم تكن الأمور بهذه البساطة، رغم أنّه كان من المفترض أن نحفظ بها، فقد كان على أولئك الذين لديهم أزواج من الأحذية في حالة جيّدة تمامًا أن يتخلّوا عنها رغم كلّ شيء وتمّ إعطاؤهم في المقابل أحذية لا تناسبهم بدلاً منها. في حالة بائسة كان هؤلاء السّجناء الذين اتّبَعوا النّصيحة حسنة النية على ما يبدو (المقدّمة في الرّدهة) من قدامى السّجناء أن يقصّروا الأحذية الطويلة عن طريق قطع الأجزاء العليا منها، ثم تلطّخ بعض الصّابون على الحواف المقطوعة لإخفاء ما حدث من أعمال تخريبية. يبدو أنّ رجال قوّات الأمن الخاصّ كانوا

ينتظرون ذلك بالضبط. كان على جميع المشتبه بهم في هذه الجريمة الذهاب إلى غرفة صغيرة مجاورة. بعد فترة، سمعنا مرة أخرى صوت الجلد بالسيّاط وصراخ الرجال المعذبين. وقد استمرّ هذه المرة لفترة طويلة.

وهكذا تمّ تدمير الأوهام التي كان بعضنا لا يزال محتفظاً بها تباعاً، وبعد ذلك، تغلّبت على معظمنا روح الدّعابة القائمة بشكل غير متوقّع تمامًا. كنّا قد عرفنا أنه ليس لدينا ما نخسره سوى حياتنا العارية بشكل مضحك للغاية. حين بدأت الأذشاش في التدفق، حاولنا جميعاً أن نسخر بقدر ما نستطيع، سواء من أنفسنا أو من بعضنا بعضاً. ورغم كلّ شيء،
تدفق الماء الحقيقي من الأذشاش!

وبصرف النظر عن هذا النوع من روح الدّعابة الغريبة، استولى علينا إحساس آخر: إنه الفضول. لقد شعرتُ بهذا النوع من الفضول من قبل، باعتباره استجابة أساسية لبعض الظروف الغريبة. حين تعرّضت حياتي للخطر بسبب حادث من حوادث التسلّق، شعرت بإحساس واحد فقط في اللحظة الحرجة: الفضول، حول ما إذا كان لا بدّ أن أخرج من الحادث على قيد الحياة أم بكسر في الجمجمة أم ببعض الإصابات الأخرى.

وقد ساد الفضول البارد حتّى في معسكر أوشفيتز، فاصلاً بطريقة ما العقل عن محيطه الذي تبين أنه يُنظر إليه بنوع من الموضوعيّة. في ذلك الوقت استثمر المرء هذه الحالة الذهنيّة باعتبارها وسيلة للحماية. كنّا متلهّفين إلى معرفة ما قد يحدث لنا لاحقاً، وما قد تكون عواقب وقوفنا

في الهواء الطلق، في برد أواخر الخريف في عري تام مثلاً، وأجسادنا لا تزال رطبة من الاستحمام. بعد أيام قليلة تطوّر فضولنا إلى مفاجأة؛ أننا لم نُصب بتزلة برد.

وكان هناك عدد كبير من المفاجآت المماثلة في انتظار الوافدين الجدد. لقد تعلّم رجال الطبّ الذين كانوا بيننا في البداية: «أنّ الكتب الدراسيّة تكذب!» يُقال في مكان ما إنّ الإنسان لا يمكن أن يعيش دون نوم لأكثر من عدد محدّد من السّاعات. وهو كلام خاطئ تمامًا! كنْتُ مقتنعًا بأنّ هناك أشياء معيّنة لا أستطيع أن أفعلها: لا أستطيع أن أنام دون هذا أو ذاك أو لا أستطيع أن أعيش مع هذا أو ذاك. في اللّيلة الأولى في معسكر أوشفيتز، نمنا فوق أسرّة تمّ بناؤها في شكل طوابق. وكان ينام في كلّ طابق (مقاسه من ست أقدام ونصف إلى ثماني أقدام تقريبًا) تسعة رجال مباشرة على الألواح. وقد اشترك كل تسعة رجال في بطانيتين. وكان يمكن طبعًا أن نستلقي على جوانبنا فقط، محتشدين ومكدّسين بجوار بعضنا بعضًا، وهو الأمر الذي كانت له بعض المزايا بسبب البرد القارس. ورغم أنّه كان ممنوعًا ارتداء الأحذية حتّى الأسرّة، إلّا أن بعض الأشخاص استخدموها وسائد بشكل سرّي رغم حقيقة أنّها كانت مكسوّة بالطّين. وإلّا كان على المرء أن يريح رأسه على انثناء ذراع مخلووعة تقريبًا. ومع ذلك جاء النّوم وجلب النّسيان وتخلصنا من الألم لبضع ساعات.

أودّ أن أذكر بعض المفاجآت المماثلة حول مقدار ما يمكن أن نتحمّله: لم نتمكّن من تنظيف أسناننا، ورغم النقص الحادّ في الفيتامينات، كانت

لثاتنا أكثر صحّة مما كانت في أيّ وقت مضى. كان علينا أن نرتدي القمصانَ نفسَها لمُدّة نصف عام، حتّى فقدت كلّ مظهر يدلّ على أنّها قمصان. ولعدّة أيّام لم نكن نتمكّن من الغسيل ولو جزئيًّا، بسبب تجمّد المياه في الأنابيب، ومع ذلك لم تتقيح التقرّحات والسحجات (أو الجروح) التي أصابت الأيدي المتسخة من العمل في التربة (أي ما لم يكن هناك قضمة صقيع). فمن كان نومه خفيفًا مثلًا، أو من كان يتزعج من أقلّ ضجيج في الغرفة المجاورة، وجد نفسه الآن يستلقي على صوت شخير رفيق بصوت عالٍ على بُعد بضع بوصات من أذنه وينام نومًا عميقًا في وجود الضوضاء.

إذا سأل شخصٌ ما أحدنا الآن عن حقيقة تصريح دوستوفسكي الذي يعرف فيه الإنسان بشكل صريح أنّه كائن يمكن أن يعتاد على أيّ شيء، فسردّ: «نعم، يمكن للإنسان أن يعتاد على أيّ شيء، لكن لا تسألنا كيف». لكن أبحاثنا النفسيّة لم تأخذنا إلى هذا الحدّ حتّى الآن؛ ولم نصل نحن السّجناء إلى هذه النّقطة. كنّا لا نزال في المرحلة الأولى من ردود أفعالنا النفسيّة.

رحّب الجميع بفكرة الانتحار، ولو لفترة وجيزة فقط. كانت الفكرة وليدة اليأس من الوضع وخطر الموت المستمرّ الذي يلوح لنا كلّ يوم وكلّ ساعة، والشّعور بقرب الموت الذي عانى منه الكثيرون. من القناعات الشخصيّة التي سوف يتمّ ذكرها لاحقًا، قدّمت لنفسي وعدًا قويًّا في أوّل أمسية لي في المعسكر، بأنني «لن ألتقي بالسّلك ولو صدفة». كانت هذه عبارة مستخدمة في المعسكر لوصف الطّريقة الأكثر شيوعًا

للانتحار: لمس سياج الأسلاك الشائكة المشحونة كهربائيًا. لم يكن من الصعب تمامًا عليّ أن أتخذ هذا القرار. لم يكن هناك جدوى من الانتحار، لأنه بالنسبة إلى السجن العادي، كان متوسط العمر المتوقع ضعيفًا جدًا، بالحساب الموضوعي وحساب جميع الفرص المحتملة. فلم يكن يستطيع بأي قدر من التأكيد أن يتوقع أن يكون من بين نسبة صغيرة من الرجال الذين نجوا من جميع الاختيارات. لم يكن سجين معسكر أوشفيتز، في المرحلة الأولى التي تتمثل في الصدمة، يخشى الموت. حتى غرف الغاز كانت قد فقدت أهوالها بالنسبة إليه بعد الأيام القليلة الأولى، ورغم كل شيء أنقذته هذه الأهوال من تنفيذ الانتحار.

أخبرني الأصدقاء الذين التقيت بهم في وقت لاحق أنني لست من أولئك الذين أصابتهم صدمة دخول المعسكر باكتئاب شديد. ابتسمت فقط، وبصدق، حين بدأت الحلقة التالية في صباح اليوم التالي على ليلتنا الأولى في معسكر أوشفيتز. رغم الأوامر الصارمة بعدم مغادرة «أجنحتنا»، قام زميل بالهروب إلى كوخنا، وكان قد وصل إلى معسكر أوشفيتز قبل عدة أسابيع. لقد أصبح نحيفًا إلى درجة أننا لم نتعرف عليه في البداية. أراد أن يهدّئنا ويبعث الارتياح في نفوسنا ويحكى لنا عن بعض الأشياء من خلال استعراض روح الدّعابة بشكل جيد وموقف ينم عن عدم المبالاة، قدّم لنا بعض النصائح العاجلة: «لا تخف! لا تخش الاختيارات! الدكتور «م...» (كبير أطباء قوات الأمن الخاصّة) لديه نقطة ضعف تجاه الأطباء». (وهو ما كان خطأ؛ كانت كلمات صديقي اللطيفة مُضلّلة. أخبرني أحد السجناء، وكان طبيبًا لمجموعة من الأكواخ ورجلًا يناهز الستين عامًا، كيف توّسل للدكتور «م...» ليطلق ابنه،

الذي كانت غرف الغاز مقدّرة له. ورفض الدكتور «م...» ببرود).

ثمّ تابع: «ولكنّ هناك شيء واحد أتوسّل إليكم أن تفعلوه؛ احلقوا يوميًا، إن أمكن، حتّى لو كان عليكم استخدام قطعة من الزجاج للقيام بذلك... حتّى لو كان عليكم إعطاء قطعة الخبز الأخيرة مقابل الحلاقة. سوف تبدوون أصغر سنًا ويجعل الكشط حدودكم تبدو أكثر نضارة. إذا كنتم ترغبون في البقاء على قيد الحياة، فهناك طريقة واحدة فقط: أن تبدووا صالحين للعمل. حتّى لو كان أحدكم يعرج لأنّه يعاني من دُمل صغير في كعبه مثلاً، واكتشف رجل قوّات الأمن الخاصّة ذلك، فسوف يزيجه جانبًا وفي اليوم التّالي من المؤكّد أنّه سوف يرسل إلى غرف الغاز. هل تعرفون ماذا نعني بالمسلم؟⁽¹⁹⁾ رجل يبدو بائسًا ومضطربًا ومُصابًا بهزال ولم يعد يستطيع القيام بالعمل البدنيّ الشاق بعد الآن... هذا هو «المسلم». عاجلاً أم آجلاً، عادةً عاجلاً، يذهب كلّ «مسلم» إلى غرف الغاز. لذلك، تذكّر: احلق وقفّ وامشِ بحيويّة. وبعد ذلك لا داعي للخوف من غرف الغاز. تقفون هنا جميعًا، حتّى لو كنتم هنا لمُدّة أربع وعشرين ساعة فقط، لا داعي للخوف من الغاز - مشيراً إليّ - باستثناء ربّما أنت». ثم قال: «أمل ألاّ تمنع في إخبارك بصراحة». وكرّر بالنسبة إلى الآخرين: «هو الوحيد من بينكم الذي يجب أن يخشى الاختيار التّالي. لذا، لا تقلقوا!» وابتسمتُ. وأنا الآن مقتنع بأنّ أيّ شخص في مكاني في ذلك اليوم كان سيفعل الشّيء نفسه.

(19) - مسلم Moslem: هكذا في الأصل، وكانت صيغة شائعة من كلمة Muslim في الماضي ولم نعد نستخدم إلا نادراً، وتستخدم أحياناً باعتبارها نوعاً من الإساءة والتهكم (المترجم).

أعتقد أن ليسنج⁽²⁰⁾ هو الذي قال ذات مرّة: «هناك أشياء لا بدّ أن تجعلك تفقد عقلك وإلاّ فإنه ليس لديك ما تفقده». إنّ ردّ الفعل غير الطبيعيّ على موقف غير طبيعيّ هو تصرف طبيعيّ. حتى نحن الأطباء النفسيين نتوقع أن تكون ردود فعل الإنسان على موقف غير طبيعيّ، مثل الالتزام بالحجز في مصحّة للأمراض النفسيّة، غير طبيعيّة بما يتناسب طرديًا مع درجة طبيعيّة الإنسان. ويمثّل ردّ فعل إنسان على حجزه في معسكر اعتقال أيضًا حالة ذهنيّة غير طبيعيّة، ولكنّ الحكم عليه بموضوعيّة أنّه أمر طبيعيّ، كما يتمّ توضيح ذلك لاحقًا، ردّ فعل نموذجيّ لظروف معيّنة. بدأت ردود الفعل هذه، كما وصفتها، تتغير في غضون بضعة أيام. انتقل السّجين من المرحلة الأولى إلى المرحلة الثانية؛ مرحلة اللامبالاة النسبيّة التي حقق فيها نوعًا من الموت الانفعاليّ.

وبصرف النظر عن ردود الفعل التي تمّ وصفها بالفعل، عانى السّجين الذي وصل حديثًا من عذابات الانفعالات الأخرى الأكثر إيلاّمًا، وقد حاول قتلها كلّها. في البداية، كان هناك شوق لا حدود له إلى بيته وأسرته. وكثيرًا ما قد يصبح هذا الشوق حادًا إلى درجة أنّ الإنسان يشعر بأنّ هذا الشوق يتملكه. ثمّ يكون هناك اشمئزاز. وهو اشمئزاز من كلّ البشاعة التي أحاطت بالإنسان حتّى في أشكالها الخارجيّة المجرّدة.

وقد حصل معظم السّجناء على زيّ عبارة عن أسمال بالية كان يمكن أن يجعل خيال الماتّة يبدو أنيقًا بالمقارنة بهم. وبين الأكواخ في المعسكر كانت تكمن القذارة المطلقة، وكلّما عمل المرء أكثر على إزالتها، كان المرء

(20) - جوتنهولد إفرايم ليسنج Lessing (1729 - 1781): كاتب، وفيلسوف، وكاتب مسرحي، وناقد فني ألماني وكان واحدًا من أهم ممثلي عصر التنوير (المترجم).

يضطرّ إلى أن يحتكّ بها أكثر. لقد كان من الممارسات المفضّلة أن يتمّ تكليف الوافد الجديد بالانضمام إلى مجموعة العمل التي كانت مهمتها القيام بتنظيف المراحيض وإزالة مياه الصّرف الصّحّي. إذا حدث، كما كان يحدث عادة، أن تناثر بعض البراز على وجهه في أثناء نقله عبر الحقول الوعرة، فإن أيّ علامة من علامات الاشمئزاز تبدو على السّجين أو تبدر منه أو أيّ محاولة لمسح القذارة سوف يعاقب عليها بضربة من أحد أفراد الكابو. وبالتالي كان يتمّ التّعجيل بإماتة ردود الأفعال الطّبيعيّة.

في البداية كان السّجين ينأى ببصره بعيدًا إذا رأى مواكب عقاب لجماعة أخرى؛ لم يكن يتحمّل أن يرى زملاءه السّجناء يسرون صعودًا وهبوطًا لساعات في الوحل، وتحركاتهم موجهة بالضرب. بعد أيام أو أسابيع كانت الأمور تتغيّر. في الصّباح الباكر، والظلام لا يزال حالكًا، كان السّجين يقف أمام البوّابة في حالة انفصال عن الواقع، على استعداد لرؤية المسيرة. كان يسمع صراخًا ويرى كيف يسقط أحد الرّفاق على الأرض، ويرغم على أن يقف على قدميه مرّة أخرى، ويسقط على الأرض مرّة أخرى - ولماذا؟ لأنّه كان يعاني من الحمّى، لكنّه ذهب إلى العيادة في وقت غير مناسب. وقد عُوقب على هذه المحاولة غير المعتادة لأنه تخلّى عن واجباته.

لكنّ السّجين الذي دخل المرحلة الثّانية من ردود أفعاله النّفسيّة لم يعد يتجنّب النّظر بعينه. وبحلول ذلك الوقت تكون مشاعره قد تبلّدت، ممّا يجعله يتأمل المشهد دون أن يتأثر. مثال آخر: لقد وجد نفسه

ينتظر في العيادة، على أمل أن يحصل على يومين من العمل الخفيف داخل المعسكر بسبب إصابات أو ربّما وذمة⁽²¹⁾ أو حمّى. وكان يقف دون أن تبدر منه أيّ حركة وهم يدفعون صبيّاً يبلغ اثني عشر عامًا ويجبرونه على أن يقف متصبّاً لساعات في الثلج أو على أن يعمل في الخارج وهو حافي القدمين لعدم وجود حذاء له في المعسكر. وقد تجمّدت أصابع قدميه، ويقوم الطّبيب المناوب بالتقاط الأجزاء السوداء المصابة بالغرغرينا بملاقط، جزءاً بعد جزء. إنّ الاشمئزاز والرّعب والشفقة انفعالات لم يعد المتفرّج يشعر بها. أصبح منظر الذين يعانون والمحتضرين والموتى من المناظر المعتادة بالنسبة إليه بعد أسابيع قليلة من الحياة في المعسكر إلى درجة أنّهم لم يعودوا قادرين على تحريك مشاعره.

قضيت بعض الوقت في كوخ لمرضى التيفوس⁽²²⁾ الذين كانت درجات حرارتهم مرتفعة للغاية وكثيراً ما كانوا في حالة هذيان، وكان عدد كبير يحتضر. بعد أن مات أحدهم للتوّ، كنت أشاهد دون أيّ اضطراب انفعاليّ المشهد الذي تلاه، وقد تكرّر بكثرة مرّة إثر أخرى مع كلّ حالة وفاة. كان السّجناء يقتربون واحداً بعد الآخر من الجسد الذي لا يزال دافئاً. ينتزع شخص منه بقايا وجبة بطاطس ملوّثة؛ ويقرّر شخص آخر أنّ الحذاء الخشبيّ للجنّة أفضل من حذائه، ويبدّل الحذاءين. ويقوم رجل ثالث بالشيء نفسه مع معطف الرّجل الميت، ويشعر شخص آخر بالسّعادة لأنّه تمكّن من تأمين - تخيل فقط! - بعض

(21) - وذمة edema: ورم نتيجة تجمع مائي عادة في جزء من أجزاء الجسم. ويحدث نتيجة لأسباب كثيرة منها الجروح والالتهابات (المترجم).

(22) - التيفوس typhus: أو الحمى النمشية أو حمى السجون مرض ينتقل عن طريق الحشرات وتتمثل الأعراض في حمى شديدة، قد تؤدي إلى الهذيان، ورجفة وصداع وألم في العضلات وطفح جلدي. وهو مرض قد يؤدي إلى الوفاة وخاصة فيمن تزيد أعمارهم عن الخمسين (المترجم).

الحِيطُ الأَصْلِيّ.

لقد شاهدتُ هذا كله بلا مبالاة. في النهاية طلبت من «الممرّض» إبعاد الجثة. وحين قرّر القيام بذلك، سحب الجثة من السّاقين، ممّا جعلها تسقط في الممرّ الصّغير بين صفّين من الألواح التي كانت أسرة لمرضى التّيفوس الخمسين، وجرّها عبر الأرض التّرابية الوعرة نحو الباب. وكانت الدّرجتان اللتان تؤدّيان إلى الهواء الطّلق تشكّلان دائماً مشكلة بالنّسبة إلينا، إذ كنّا نعاني من الهزال والإرهاك نتيجة النّقص المزمن في الغذاء. بعد بضعة أشهر من الإقامة في المعسكر، لم نكن نتمكّن من صعود هاتين الدّرجتين اللّتين يبلغ ارتفاع كلّ منهما حوالي ستّ بوصات، دون وضع أيدينا على دعائم الباب لرفع أنفسنا.

والرّجل الذي يجرّ الجثة يقرب من الدّرجتين. لا يكاد يجرّ نفسه. ثمّ الجسد: القدمان أولاً ثمّ الجذع وأخيراً -بضجيج غريب متتالٍ- يصطدم رأس الجثة بالدّرجتين.

كان مكاني على الجانب الآخر من الكوخ، بجانب النّافذة الصّغيرة الوحيدة التي بُنيت بالقرب من الأرض. بينما كانت يداي الباردتان تقبضان على طاسة من الحساء الساخن أرتشف منه بشراهة، وصادف أنّي كنت أنظر من النّافذة. كانت الجثة التي أزيحت للتوّ تحدّق فيّ بعينين برّاقتين. قبل ساعتين كنت أتحدّث إلى ذلك الرّجل. والآن كنتُ أواصل احتساء حسائي.

إذا لم يكن انعدام مشاعري مفاجئاً لي من وجهة نظر الاهتمام المهنيّ، ما كنتُ لأتذكر هذه الحادثة الآن، لأنّه لم يكن هناك إلاّ قدر ضئيل جدّاً

من الإحساس بها.

التبلد⁽²³⁾، برودة الانفعالات، والإحساس بأن المرء لم يعد يكثرث بأي شيء، كانت الأعراض التي ظهرت خلال المرحلة الثانية من ردود الأفعال النفسية للسجين، والتي جعلته في نهاية المطاف غير حساس من أثر الضرب كل يوم وكل ساعة. وبسبب هذا التبدل، كان السجين يستطيع بسرعة أن يحيط نفسه بصدفة واقية ضرورية للغاية.

وكان الضرب يحدث نتيجة لأتفه أشكال الاستفزاز، وفي بعض الأحيان دون أي سبب على الإطلاق. على سبيل المثال، كان يتم توزيع حصص الخبز علينا في موقع عملنا وكان علينا أن نقف في صف للحصول عليه. وذات مرة، وقف الرجل ورائي ومال قليلاً إلى أحد الجانبين وقد استاء حارس قوات الأمن الخاص من هذا الاختلال في الصف. لم أكن أعرف ما يحدث في الصف خلفي، ولا ما يدور في عقل حارس قوات الأمن الخاص، لكنني تلقيت بشكل مفاجئ ضربتين حادتين على رأسي. وحينها فقط لمحت الحارس إلى جانبي وكان يستخدم عصاه. في مثل هذه اللحظة، لم يكن الألم الجسدي هو الذي يؤلم أكثر (وهذا ينطبق على البالغين بقدر ما ينطبق على الأطفال الذين يخضعون للعقاب)؛ كان الأكثر إيلاماً هو العذاب النفسي الناتج عن الظلم، وعدم معقولة ذلك كله.

والغريب جداً أن الضربة التي لا تترك أي علامة يمكن أن تؤذي، في

(23) - التبدل Apathy: من الكلمة اللاتينية pathos. وتعني العاطفة أو الانفعال. وكلمة Apathy نفي أي انعدام العاطفة والانفعال؛ وهو مصطلح يستخدم في الطب النفسي لوصف عرض يتمثل في حالة تامة من اللامبالاة وانعدام الانفعال والعاطفة وعدم الاهتمام بأي شيء، أو القلق بشأن أي شيء (المترجم).

ظلّ ظروف معيّنة، أكثر من ضربة تترك علامة. كنت أقف ذات مرّة على مسار للسكك الحديد في عاصفة ثلجيّة، ورغم الطّقس السيّء كانت مجموعتنا مرغمة على الاستمرار في العمل. لقد عملت بجدّ في إصلاح المسار بالحصى، لأنّ هذه كانت الطّريقة الوحيدة للحفاظ على الشعور بالدّفء. توقّفت للحظة واحدة فقط لأتنفّس وأنا أتكئ على مجرّفة. ولسوء الحظّ استدار الحارس في ذلك الوقت فقط واعتقد أنّي أتسكّع. لم يكن الألم الذي سبّبه لي نتيجة أيّ إهانات أو أيّ ضربات. لم يظنّ هذا الحارس أنّ الأمر يستحقّ بعض الوقت لقول أيّ شيء، ولا حتّى كلمة بذيئة، للشخصية الرثة الهزيلة التي تقف أمامه، التي ربّما ذكّرته بشكل غامض فقط بشكل إنسان. وبدلاً من ذلك، التقط حجراً بشكل مرح ورماه عليّ. وقد بدت هذه الطّريقة، بالنّسبة إليّ، طريقة لجذب انتباه وحش، أو لاستدعاء حيوان أليف للقيام بوظيفته، أو مخلوق لا يوجد بينك وبينه أيّ شيء مشترك حتّى أنّك لا تكلف نفسك عناء أن تعاقبه.

إنّ الجزء الأكثر إيلاماً في الضّرب هو الإهانة التي ينطوي عليها. في وقت من الأوقات كان علينا أن نحمل بعض العوارض الطويلة الثّقيلة على مسارات جليديّة. إذا انزلق رجل واحد، فإنّه لا يعرّض نفسه للخطر فحسب، لكنّه يعرّض كلّ الآخرين الذين يحملون العارضة نفسها للخطر. كان أحد أصدقائي القدامى مُصاباً بخلع في الورك. وكان سعيداً بقدرته على العمل رغم ذلك، إذ كان يتمّ تقريباً إرسال المعوقين جسدياً إلى الموت حين تمّ الاختيار. كان يعرج على المسار بعارضة ثقيلة جدّاً، وبدأ على وشك السّقوط فجراً الآخرين معه. وإذا أنّني لم أكن أحمل عارضة، قفزت على الفور كي أساعده دون أن أتوقّف لحظة للتّفكير.

ضربت على ظهري على الفور، ووُبِّخت بفضاظة وأمرت بالعودة إلى مكاني. قبل بضع دقائق، قال لنا الحارس نفسه الذي ضربني بشكل مهين إننا "خنزير" نفتقر إلى روح الجماعة.

مرّة أخرى، في الغابة، وكانت درجة حرارة عند 2 درجة فهرنهايت،⁽²⁴⁾ بدأنا في حفر التربة السطحية،⁽²⁵⁾ التي كانت متجمّدة بشدّة، من أجل وضع أنابيب المياه. وفي ذلك الوقت كان الوهن قد تمكّن من جسدي إلى حدّ ما. وقد جاء فجأة رئيس العمّال بخديّه الموردين البضين. وقد ذكرني وجهه بكلّ تأكيد برأس خنزير. لاحظت أنّه كان يرتدي قفازًا جميلًا يدفئ يديه في هذا البرد القارس. نظر إليّ في صمت بعض الوقت. وشعرت بأنّ المشاكل كانت تختمر في ذهنه، وكان يتكدّس أمامي كوم من التراب يظهر بالضبط مقدار ما قمت بحفره.

ثم بدأ: «أيّها الخنزير، كنت أراقبك طول الوقت! ومع ذلك سوف أعلمك العمل! انتظر حتّى تحفر الوحل بأسنانك. سوف تموت مثل حيوان! في يومين سوف أُجهزُ عليك! لم تقم قطّ بأيّ عمل في حياتك. ماذا كنت تعمل يا خنزير؟ هل كنت رجل أعمال؟»

كنت قد اعتدّت على عدم الاهتمام بأيّ شيء. لكنّ كان عليّ أن أتعامل مع تهديده بقتلي بجدّية، لذا استقمّنتُ ونظرت إليه مباشرة في عينيه. «كنت طبيبًا متخصصًا».

(24) - أي حوالي 16 درجة مئوية تحت الصفر (المترجم).

(25) - التربة السطحية topsoil: طبقة من التربة تحتوي على أعلى تركيز للمواد العضوية، وتوجد فيها معظم جذور النباتات وهي الطبقة التي يقلبها المزارع في أثناء الحرث ويبلغ سمكها من بوصتين إلى ثماني بوصات تقريبًا (المترجم).

«ماذا؟ كنتَ طبيبًا؟ أراهن على أنك حصلت على الكثير من المال من الناس».

«ما حدث بالفعل، أنني كنت أقوم بمعظم أعمالي دون مقابل مادّي على الإطلاق، في عيادات مخصصة للفقراء». لكنني، الآن، قد تحدثتُ أكثر مما ينبغي. ألقى بنفسه عليّ وطرحتني أرضاً، وهو يصرخ مثل المجنون. ولم أعد أتذكر ما كان يلهج به.

أريد أن أوضح بهذه القصة التي تبدو تافهة، أن هناك لحظات يمكن أن يثير فيها السخط حتى سجيناً قوياً على ما يبدو. السخط ليس بسبب القسوة أو الألم، ولكن بسبب الإهانة المرتبطة بها. في ذلك الوقت اندفع الدم إلى رأسي لأنني اضطررتُ إلى أن أستمع لرجل وهو يحكم على حياتي ولم تكن لديه فكرة تذكر عنها، رجل (يجب أن أعترف: الملاحظة التالية، التي أدليت بها لزملائي السجناء بعد المشهد، قدّمت لي ارتياحاً طفولياً) «بدا مبتدلاً ووحشياً إلى درجة أن الممرضة التي كانت تعمل في قسم العيادات الخارجية في المستشفى الذي كنت أعمل فيه لم تكن لتدخله إلى غرفة الانتظار».

لحسن الحظّ كان فرد الكابو في مجموعة العمل التي أشارك فيها على علاقة طيبة معي؛ وكان قد أعجب بي لأنني استمعت لقصص حبه ومشاكله الزوجية التي تدفقت منه في أثناء المسيرات الطويلة إلى موقع عملنا. لقد تركت عنده انطباعاً طيباً بالتشخيص الذي قدّمته لشخصيته وبالنصائح العلاجية النفسية التي قدّمها له. بعد ذلك كان ممتناً، وقد كان هذا مفيداً لي بالفعل. كان، في عدّة مناسبات سابقة، يحجز لي مكاناً

بجواره في أحد الصفوف الخمسة الأولى من كتيبتنا، وكانت تتكوّن عادةً من مائتي وثمانين رجلًا. كانت هذه المزيّة مهمّة. كان علينا أن نصطفّ في الصّباح الباكر والظلام لا يزال حالكًا. كان الجميع يخافون من التّأخير والاضطرار إلى الوقوف في الصفوف الخلفيّة. إذا كان الرّجال مطلوبين لعمل بشع وكريه، كان كبير أفراد الكابو يظهر ويجمع عادة الرّجال الذين يحتاجهم من الصفوف الخلفيّة. وكان هؤلاء الرّجال يُرغمون على أن يسيروا إلى عمل آخر، وخاصّةً إلى نوع من العمل المرعب تحت قيادة حرّاس غرباء. وفي بعض الأحيان، اختار كبير أفراد الكابو الرّجال من الصفوف الخمسة الأولى، لمجرّد القبض على أولئك الذين حاولوا أن يكونوا أذكياء. وكان يتمّ إسكات جميع الاحتجاجات والتّوسّلات بعدد قليل من الرّكلات الموجهة، ويتمّ تعقب الضّحايا الذين وقع عليهم الاختيار حتّى مكان اللّقاء بالصّراخ والضّربات.

ومع ذلك، طالما كان فرد الكابو الذي أتبعه في حاجة إلى تفرّغ ما كان يحمل في قلبه، لم يكن من الممكن أن يحدث لي ذلك. كان لي مكان شرفيّ مضمون بجانبه. ولكن كانت هناك مزيّة أخرى أيضًا. كنت مثل جميع نزلاء المعسكر تقريبًا أعاني من الودمة. وكانت ساقي متورّمتين للغاية وتمدّد الجلد عليهما بشدّة إلى درجة أنني لم أكن أتمكّن من إثناء ركبتيّ إلّا بصعوبة بالغة. وكنت أضطرّ إلى ترك حذائي دون أن أربطه لأجعله يناسب قدميّ المتورّمتين. لم يكن هناك مكان للجورب حتّى لو كان لديّ أيّ جوارب. لذلك كانت قدميّ العاريتان جزئيًّا مبلّتين وحذائي مليئًا بالثلوج دائميًّا. هذا، بالطبع، تسبّب في قضمة الصّقيع وتقرّح اليدين والقدمين من الصّقيع. صارت كلّ خطوة تعذيبًا حقيقيًّا. وكانت كتل من

الثلج تتراكم على أحذيتنا في أثناء مسيرتنا في الحقول المغطاة بالثلوج. وكثيرًا ما انزلق الرّجال وتعثر من كانوا خلفهم وسقطوا فوقهم. وحينها قد يتوقّف الصّف لحظة، ولكنه لا يتوقّف لفترة طويلة. وسرعان ما يقوم أحد الحراس باتّخاذ إجراء ويدفع الرّجال بعقب بندقيته حتى ينهضوا بسرعة. وكلّما كان المرء في الجزء الأمامي من الصّف، كان أحيانًا كثيرة أقلّ انزعاجًا بالاضطرار إلى التّوقّف ثمّ تعويض الوقت الضائع بالركض على قدميه اللّتين تؤلمانه. كنت سعيدًا جدًّا لأنني الطّبيب المعيّن من سعادة الكابو شخصيًا، ولأنني أسير في الصّف الأول بخطوات منتظمة.

باعتبارها دفعة إضافية مقابل خدماتي، يمكنني أن أكون متأكدًا أنّه طالما تمّ توزيع الحساء في وقت الغداء في موقع عملنا، فإنّه، حين يأتي دوري، كان يقوم بغمس المغرفة إلى أسفل التنك ويصطاد بعض حبوب البازلاء. وكان هذا الفرد من أفراد الكابو، وكان ضابطًا سابقًا في الجيش، يتحلّى حتى بقدر من الشّجاعة يجعله يهمس لرئيس العمّال الذي تشاجرت معه، بأنّه كان يعرف أنّي عامل جيّد بشكل غير عاديّ. لم يحسّن هذا الأمور، لكنّه مع ذلك نجح في إنقاذ حياتي (في إحدى المرّات العديدة التي كان ينبغي فيها إنقاذ حياتي). في اليوم التّالي للحدث الذي جرى مع رئيس العمّال قام بتهريبي إلى مجموعة عمل أخرى.

كان هناك رؤساء عمّال شعروا بالأسف علينا وبذلوا قصارى جهدهم للتّخفيف عنّا، على الأقلّ في موقع البناء. لكنّهم استمروا حتى في تذكيرنا بأنّ العامل العاديّ يقوم بعدّة أضعاف ما نقوم به، ويستغرق منه وقتًا أقصر. لكن كان يمكن أن يعرفوا السّبب إذا قيل لهم إنّ العامل

العاديّ لا يعيش على 10 أوقيات ونصف من الخبز (نظريًا، في الواقع كنا نعيش غالبًا على أقلّ من ذلك) وبينت وثلاثة أرباع البينت⁽²⁶⁾ من الحساء الخفيف يوميًا؛ وأنّ العامل العاديّ لم يكن يعيش تحت هذا الضّغط النفسيّ الذي كان علينا أن نخضع له، وأنّه لم يكن لدينا أيّ أخبار عن عائلاتنا التي إمّا تمّ إرسال أفرادها إلى معسكر آخر أو أنهم ماتوا بالغاز على الفور؛ وأنّ العامل العاديّ لم يكن يتعرّض للتهديد بالقتل بشكل مستمرّ، في كلّ يوم وكلّ ساعة. حتّى أنّي سمحت لنفسي أن أقول مرّة لرئيس عمّال لطيف، «إذا كان بإمكانك أن تتعلّم مني كيفية إجراء عمليّة جراحية في الدّماغ في وقت قصير كما أتعلّم هذا العمل منك، فسوف أكنّ لك احترامًا كبيرًا». فابتسم.

كان التبدّل، وهو العرض الرّئيسيّ للمرحلة الثانية، آليّة ضروريّة للدّفاع عن النّفس. خفت الواقع، وتركزت كلّ الجهود وجميع الانفعالات على مهمّة واحدة: حفاظ المرء على حياته وحياة الرّفيق الآخر. كان من المعتاد سماع السّجناء، وهم يساقون عائدين إلى المعسكر من مواقع عملهم في المساء، يتنهدون بارتياح ويقولون: «حسنًا، لقد انتهى يوم آخر».

يمكن بسهولة فهم أنّ مثل هذه الحالة من حالات الإجهاد، إلى جانب الضّرورة المستمرّة للتركيز على مهمّة البقاء على قيد الحياة، أجبرت كلّ ما يعمل في أعماق السّجين من أفكار ومشاعر على التّدنّي إلى مستوى بدائيّ. تحدّث العديد من زملائي في المعسكر ممّن تدربوا على التّحليل

(26) - البينت pint: وحدة سعة تساوي 8/1 جالون. أي ما يساوي نصف لتر تقريبًا (المترجم).

النفسي في أحيان كثيرة عن حدوث «نكوص» في سجين المعسكر. والنكوص تراجع إلى شكل أكثر بدائية من الحياة العقلية. وقد تجلّت أمنياته ورغباته بوضوح في أحلامه.

بمّ كان يحلم السّجين في أغلب الأحيان؟ كان يحلم بالخبز والكعك والسّجائر والحّمّات الدّافئة اللّطيفة. وقد أدّى عدم إشباع هذه الرّغبات البسيطة إلى سعيه لتحقيق الرّغبات في الأحلام. وكانت مسألة أن تؤدّي هذه الأحلام إلى أيّ تحسين وضعه أمرًا آخر؛ كان على الحالم أن يستيقظ منها على واقع الحياة في المعسكر، وعلى التّباين الفظيع بين هذا الواقع وتلك الأوهام التي تراوده في أحلامه.

لن أنسى أبدًا كيف استيقظتُ ذات ليلة على أنين زميل في السّجن، كان يتقلّب بشدّة في نومه، ومن الواضح أنّه كان يعاني من كابوس رهيب. وبما أنّني كنت أشعر دائمًا بأسف شديد من أجل الأشخاص الذين يعانون من أحلام مخيفة أو هذيان، أردتُ أن أوقف الرّجل المسكين. فجأة سحبت اليد التي كانت على استعداد لأن تهزّه، وقد أصابني الخوف من الشّيء الذي كنت على وشك القيام به. في تلك اللّحظة أدركت بشدّة حقيقة أنّه لا يوجد حلم، مهما كانت بشاعته، يمكن أن يكون سيّئًا بقدر سوء واقع المعسكر الذي يحيط بنا، وكنت على وشك أن أستدعيه إلى هذا الواقع.

بسبب الدّرجة الرّهيبة من سوء التّغذية التي كان السّجناء يعانون منها، كان من الطّبعي أن تكون الرّغبة في الطّعام الغريزة البدائية الرّئيسية التي تدور حولها الحياة العقلية. دعنا نلاحظ أغلبية السّجناء حين

يصادف أنهم يعملون بالقرب من بعضهم بعضا دون رقابة لصيقة لبعض الوقت. سوف يبدوون على الفور مناقشة أمور تتعلق بالطعام. قد يسأل أحد الزملاء زميلاً آخر يعمل بجانبه في الخندق عن الأطباق التي كان يفضلها. ثم يتبادلان الوصفات ويضعان خطأ لقائمة الطعام في اليوم الذي قد يحدث فيه لمّ الشمل، وهو يوم في مستقبل بعيد حين يتحرران ويعودان إلى البيت. وقد يواصلان تصوير كل شيء بالتفصيل، حتى يصدر فجأة تحذير إلى أسفل الخندق، ويكون عادة في شكل كلمة مرور أو رقم خاص يعني أن «الحارس قادم».

كنت أعتبر المناقشات حول الطعام خطيرة دائماً. أليس من الخطأ استثارة الكائن الحي بهذه الصور التفصيلية والوجدانية للأطعمة الشهية حين يكون قد تمكّن بطريقة ما من التكيف مع حصص صغيرة للغاية من الطعام وسعرات حرارية منخفضة؟ ورغم أن هذه المناقشات قد توفر له شكلاً من أشكال الراحة النفسية المؤقتة، إلا أنه وهم ولا بدّ أنه لا يخلو، بالتأكيد، من الخطر من الناحية الفيزيولوجية.

في أثناء الجزء الأخير من سجننا، كانت الحصّة اليومية تتكوّن من حساء مائيّ خفيف للغاية يُعطى مرة واحدة يومياً، مع الحصّة الصغيرة المعتادة من الخبز. بالإضافة إلى ذلك، كان هناك ما يسمّى «حصّة إضافية»، وكانت تتكوّن من ثلاثة أرباع أوقية من السمن أو شريحة من السجق من نوعيّة رديئة أو قطعة صغيرة من الجبن أو مقدار ضئيل من العسل الاصطناعي⁽²⁷⁾، أو ملعقة من المربّى المخفّفة بالماء، وكانت تتنوع

(27) - العسل الاصطناعي synthetic honey: عسل مصنوع من السكر أو شراب الذرة مع بعض الإضافات والألوان (المترجم).

يومياً. وفيما يتعلّق بالسّعرات الحراريّة، كان هذا النّظام الغذائيّ غير كافٍ على الإطلاق، خاصّة إذا وضعنا في الاعتبار طبيعة عملنا اليديويّ الثقيل وتعرّضنا المستمرّ للبرد ونحن نرتدي ملابس غير كافية. وكان وضع المرضى الذين «تحت رعاية خاصة» - أي أولئك الذين كان يُسمح لهم بالاستلقاء في الأكواخ بدلاً من مغادرة المعسكر للعمل - أسوأ حالاً.

حين تلاشت الطبقات الأخيرة من الدّهون التي كانت تحت جلود المساجين، وكنا نبدو مثل الهياكل العظميّة المكسوّة بالجلد والخرق، كنا نستطيع أن نشاهد أجسادنا وهي تشرع في التهام نفسها. هضم الكائن الحيّ بروتين جسمه، واختفت العضلات. وبعد ذلك لم يبقَ للجسد أيّ قوّة على المقاومة. مات أفراد المجتمع الصّغير في كوخنا فرداً فرداً. كان يمكن لكلّ واحد منّا أن يحدّد بدقّة تامّة من صاحب الدّور التّالي، ومتى يأتي دوره هو نفسه. بعد عدد كبير من الملاحظات، عرفنا الأعراض جيّداً، مما جعل صحّة توقّعاتنا مؤكّدة إلى حدّ بعيد. كنا نهمس لبعضنا بعضاً «لن يبقى طويلاً»، أو «هذا هو الذي عليه الدّور»، وحين كنا نرى في أثناء بحثنا كلّ يوم عن القمل في أجسادنا العارية في المساء، ونفكر بالطريقة نفسها: هذا الجسد، جسدي، جثة بالفعل. ماذا طرأ عليّ؟ إنني لست سوى جزءٍ صغير من كتلة كبيرة من اللّحم البشري... كتلة خلف الأسلاك الشائكة، مكدّسة في عدد قليل من الأكواخ الطينيّة؛ كتلة يبدأ جزء منها بالتعفن كلّ يوم لأنّها أصبحت بلا حياة.

ذكرت من قبل كيف كانت الأفكار التي تدور حول الطّعام والأطباق المفضّلة لا مفرّ منها، وكيف أنّها فرضت نفسها على وعي

السّجين، كلّما سنحت له لحظة للتّفكير فيها. ربّما يمكن أن نفهم، إذن، أنّه حتّى الأكثر قوّة كان يتوق إلى الوقت الذي يمكن أن يحصل فيه على طعام جيّد إلى حدّ ما مرّة أخرى، ليس من أجل الطّعام الجيّد نفسه، ولكنّ من أجل معرفة أنّ هذا الوجود الذي يفتقر إلى الإنسانيّة، الذي جعلنا غير قادرين على التّفكير في أيّ شيء آخر غير الطّعام، سوف يتوقّف في النّهاية.

إنّ أولئك الذين لم يمرّوا بتجربة مماثلة لا يمكن أن يتصوّروا بسهولة ذلك الصّراع العقليّ المدمر للروح والاشتباكات مع قوّة الإرادة التي يعاني منها الإنسان الجائع. لا يمكن أن يفهموا ما يعنيه أن يقف المرء للحفر في خندق، ولا يستمع إلّا لصفارة الإنذار للإعلان عن السّاعة 9:30 أو السّاعة 10:00 صباحًا - فترة الغداء لمُدّة نصف ساعة - حين يتمّ توزيع الخبز (طالما كان لا يزال متاحًا)؛ يسأل رئيس العمّال بشكل متكرّر - إذا لم يكن رفيقًا سيّئ الطّبع - عن الوقت؛ ويلمس المرء قطعة خبز في جيب معطفه بحنين، ثمّ يمسحها بأصابع متجمّدة دون قفاز، ثمّ يكسر الفتات ويضعه في فمه، وأخيرًا، مع الجزء الأخير من قوّة الإرادة، ويضعها في جيبه مرّة أخرى، بعد أن يكون قد وعد نفسه في الصّباح بأن يصمد أمام الجوع حتّى بعد الظّهر.

يمكننا أن نُجري مناقشات لا نهاية لها حول جدوى طرق معيّنّة في التّعامل مع حصّة الخبز الصّغيرة أو عدم جدواها، الحصّة التي كانت تُقدّم إلينا مرّة واحدة فقط في اليوم في الجزء الأخير من سجننا. كانت هناك مدرستان فكريّتان. إحداها فضّلت تناول تلك الحصّة على الفور.

وكان لهذه الطريقة مزية مزدوجة تتمثل في إرضاء أسوأ آلام الجوع لفترة قصيرة جدًا على الأقل مرة واحدة في اليوم، وحماية تلك الحصّة من السرقة المحتملة أو تعرّضها للضياع. وقد استخدمت المجموعة الثانية التي اعتنقت فكرة توزيع الحصّة على فترات، حججًا مختلفة. وقد انضمت في النهاية إلى صفوف تلك المجموعة.

كانت اللحظة الأكثر بشاعة في السّاعات الأربع والعشرين من حياة المعسكر هي لحظة الاستيقاظ، حين كانت تمزقنا النفخات الصاخبة الثلاث من الصّفارة، ونحن لا نزال في ساعة من ساعات الليل، كانت تمزقنا بلا رحمة وتوقظنا من نومنا المنهك ومن الأشواق في أحلامنا. وبعد ذلك كان يبدأ الصّراع مع أحذيتنا المبلّلة التي كانت تؤلمنا إذ لا نستطيع أن نحشر فيها أقدامنا إلا بصعوبة بالغة لأنّها كانت متورّمة نتيجة الودّمة. وكان هناك أنين وتأوّه معتادان حول مشاكل تافهة، مثل قطع الأسلاك التي حلّت محلّ أربطة الأحذية. سمعت ذات صباح شخصًا كنت أعرف أنّه شجاع وكريم، يبكي مثل الطّفل لأنه اضطرّ أخيرًا إلى الذهاب إلى مناطق المشي الثلجية بقدمين حافيتين، إذ كان حذاؤه قد انكمش انكماشًا شديدًا ولم يستطع أن يلبسه. في تلك الدّقائِق المروّعة، كنت أجد بعض الارتياح؛ كنت أسحب قطعة صغيرة من الخبز من جيبِي وأمضغها في بهجة لا نظير لها.

من المحتمل أن يفسّر سوء التّغذية، بالإضافة إلى أنّه كان وراء الانشغال العامّ بالطّعام، حقيقة أن الرّغبة الجنسيّة كانت غائبة بشكل عامّ. بصرف النظر عن الآثار الأوّلية للصّدمة، يبدو أن هذا هو التّفسير

الوحيد لظاهرة كان على متخصص في علم النفس ملاحظتها في تلك المعسكرات الخاصة بالذكور: وهي أنه، على عكس جميع المؤسسات الذكورية الأخرى تمامًا - مثل ثكنات الجيش - لا يوجد فيها انحراف جنسي إلا في نطاق ضيق. لا يبدو أن السجن يهتم بالجنس حتى في الأحلام، رغم أن انفعالاته المحبطة، وأرق مشاعره وأكثرها سمواً، قد وجدت تعبيراً واضحاً عنها في تلك الأحلام.

مع غالبية السجناء، أدت الحياة البدائية وجهود التركيز على مجرد أن ينفذ المرء بجلده إلى تجاهل تام لأي شيء لا يخدم هذا الغرض، وفسر افتقار السجناء التام إلى الميول العاطفية. وهذا ما أتضح لي عند نقلي من معسكر أوشفيتز إلى معسكر تابع لمعسكر داخاو⁽²⁸⁾. مرّ بنا القطار الذي حملنا - وكنا حوالي 2000 سجين - عبر فيينا. في منتصف الليل تقريباً، بإحدى محطات السكك الحديدية في فيينا. وكان المسار يقودنا إلى الشارع الذي ولدت فيه، خلف المنزل الذي عشت فيه سنوات طويلة من حياتي، في الواقع، حتى تم القبض عليّ.

كنا 50 شخصاً في سيارة السجن التي كانت لها فتحتان صغيرتان فيها أعمدة من الحديد. لم يكن هناك سوى مساحة تكفي لمجموعة واحدة تجلس القرفصاء على الأرض، في حين أن الآخرين، الذين أرغموا على الوقوف لساعات طويلة، كانوا يحتشدون حول الفتحتين. وأنا أقف على أطراف أصابعي وأنظر إلى رؤوس الآخرين من خلال

(28) - معسكر داخاو Dachau: معسكر نازي تأسس في ألمانيا في 22 مارس عام 1933 في منطقة تحمل الاسم نفسه. وقد حررته القوات الأمريكية في 29 أبريل عام 1945، وكان يعتبر أول المعسكرات النازية وأحد أشهر تلك المعسكرات (المترجم).

أعمدة النافذة، ألقيت نظرة غريبة على بلدي الأصلية. كنا نشعر جميعًا بأننا أموات أكثر مما نشعر بأننا على قيد الحياة، لأننا اعتقدنا أن السيارة التي تقلنا كانت متجهة إلى المعسكر الذي يوجد في ماوتهاوزن⁽²⁹⁾ ولم يتبق أمامنا في هذه الحياة سوى أسبوع أو أسبوعين. كان لدي شعور مميز بأنني رأيت شوارع طفولتي وساحاتها وبيوتها بعيني رجل ميت عاد من عالم آخر وكان ينظر إلى مدينة أشباح.

بعد ساعات من التأخير غادر القطار المحطة. وكان هناك الشارع: شارعي! كان الشباب الذين قضوا عددًا من سنوات الحياة في المعسكر وكانت هذه الرحلة حدثًا رائعًا بالنسبة إليهم يحدقون بانتباه من خلال الفتحة. بدأت أتوسل إليهم وأتضرع إليهم، كي يسمحوا لي بأن أقف في المقدمة لحظة واحدة فقط. حاولت أن أشرح ما يعنيه النظر عبر تلك النافذة بالنسبة إليّ في ذلك الوقت. تم رفض طلبي بوقاحة وسخرية: «هل عشت هنا طوال تلك السنوات؟ حسنًا، لقد رأيت منها ما يكفي بالفعل!»

بشكل عام كان هناك أيضًا «مخيم ثقافي»⁽³⁰⁾ في المعسكر. كان هناك استثناءان لهذا المخيم: السياسة والدين. كان الحديث يدور عن السياسة في كل مكان في المعسكر، بشكل شبه مستمر؛ وقد استندت المناقشات بشكل رئيسي إلى الشائعات التي تم التقاطها وتمريضها بشغف. وعادة ما

(29) - ماوتهاوزن Mauthausen: بلدة في النمسا كانت تضم معسكرًا من معسكرات الاعتقال النازية. والمعسكر يحمل اسمها (المترجم).

(30) - بيئات ثقافية cultural hibernation: تعني كلمة hibernation البيئات الشتوية؛ والمصطلح يعني عمومًا غياب أي انقسام ثقافي أو تفرد لشخص داخل المعسكر (باستثناء الدين والسياسة التي كانت القوة الدافعة للأمل). لقد أدت الحياة القاسية في السجن بين الجميع إلى انتزاع الفردية من الجيب حيث كان عليهم جميعًا أن يتحملوا الجحيم نفسه (المترجم).

كانت الشائعات حول الوضع العسكري تأتي متضاربة. كان تتابع إشاعة بعد الأخرى بسرعة ولم تنجح إلا في المساهمة في حرب الأعصاب التي دارت في أذهان جميع السّجناء. وفي كثير من الأحيان، كانت تُحبط الآمال التي أثارها الشائعات المتفائلة في نهاية سريعة للحرب. وقد فقد بعض الرّجال كلّ الأمل، لكن كان المتفائلون الذين لا يمكن إثنائهم عن تفاؤلهم أكثر الرّفاق إثارة للتوتر.

كان الاهتمام الديني للسّجناء هو الأكثر صدقًا، بقدر المدى الذي يتطور إليه والسرعة التي يتطور بها. وكثيرًا ما اندهش وافد جديد من عمق العقيدة الدينية وقوتها فتأثر بهما. وكان الأكثر إثارة للإعجاب في هذا الصّدد الصّلوات أو الخدمات المرتجلة في زاوية أحد الأكواخ أو في ظلام شاحنة الماشية المقفلة التي نُعاد فيها من موقع عمل بعيد، متعبين وجائعين ومحمّدين في ملابسنا الرثة.

نفّس مرض التيفوس في شتاء وربيع عام 1945 وقد أصاب جميع السّجناء تقريبًا. كانت الوفيات كبيرة في صفوف الضّعفاء، الذين اضطرّوا إلى مواصلة عملهم الشاقّ بقدر ما استطاعوا. كانت الأماكن المخصّصة للمرضى غير مناسبة إلى أقصى حدّ، ولم يكن هناك عمليًا أيّ أدوية أو مشرفين على العلاج. كانت بعض أعراض المرض مزعجة إلى حدّ كبير: نفور لا يمكن السيطرة عليه حتى من حفنة من الطّعام (وهو أمر كان يمثل خطرًا إضافيًا على الحياة) ونوبات مروّعة من الهذيان. وقد عانى من أسوأ حالة من الهذيان صديق لي اعتقد أنّه يحتضر وكان يريد الصّلاة. لم يتذكّر في هذيانه الكلمات التي يحتاج إليها لأداء الصّلاة.

حاولت أن أبقى مستيقظًا معظم الليل، مثلما فعل عدد كبير من الآخرين لتجنب هذه النوبات من الهذيان. كنت أقضي الساعات وأنا أولف خطبًا في ذهني. وفي النهاية بدأت في إعادة كتابة المخطوطة التي فقدتها في غرفة التطهير في معسكر أوشفيتز، وكتبت الكلمات الرئيسية باختزال على قصاصات صغيرة من الورق.

كان يدور في بعض الأحيان نقاش علمي في المعسكر. وذات مرة شاهدتُ شيئًا لم أراه من قبل، حتى في حياتي الطبيعية، رغم أنه يكمن إلى حد ما بالقرب من اهتماماتي المهنية: جلسة استحضار أرواح. لقد تلقيت دعوة من كبير الأطباء في المعسكر (وكان سجينًا أيضًا)، وكان يعرف أنني متخصص في الطب النفسي. عُقد الاجتماع في غرفته الخاصة الصغيرة في الأماكن المخصصة للمرضى. وقد اجتمعت دائرة صغيرة، كان من بينهم، بشكل غير قانوني تمامًا، ضابط الصف من فرقة الصحة العامة.

بدأ رجل باستدعاء الأرواح بصلاة من نوع ما. جلس كاتب المعسكر أمام ورقة بيضاء، دون أي نية واعية أو متعمدة للكتابة. في غضون الدقائق العشر التالية (بعد ذلك تم إنهاء جلسة استحضار الأرواح بسبب فشل الوسيط في استحضار الأرواح للظهور) رسم قلم الكاتب ببطء خطوطًا على الورقة، مشكلاً «VAE V» بشكل واضح. وكان قد تم التأكيد على أن الكاتب لم يتعلم اللغة اللاتينية مطلقًا وأنه لم يسمع من قبل عن التعبير «vae victis» - أي ويل للمهزومين. وكان في رأيي لا بد أنه قد سمعه ذات يوم في حياته، دون أن يتذكر ذلك، ولا بد أن التعبير

كان متاحًا "للروح" (روح عقله الباطن) في ذلك الوقت، قبل بضعة أشهر من تحريرنا ونهاية الحرب.

رغم كل بدائية الحياة الجسدية والعقلية التي كانت مفروضة في معسكرات الاعتقال، كان من الممكن أن تتعمق الحياة الروحية. قد يكون الأشخاص الحساسون الذين اعتادوا على حياة فكرية غنية قد عانوا من آلام كثيرة (كانوا غالبًا أصحاب بنية رقيقة)، لكن الضرر الذي لحق بأعماق نفوسهم كان أقل. كانوا قادرين على الانسحاب من محيطهم الرهيب إلى حياة الثراء الداخلي في أعماقهم وإلى الحرية الروحية. بهذه الطريقة فقط يمكن للمرء أن يفسر المفارقة الواضحة التي مفادها أن بعض السجناء أصحاب التكوين الأقل صلابة بدأ أنهم يتحملون في كثير من الأحيان حياة المعسكر بشكل أفضل من ذوي البنية القوية. ولأجعل ما أقوله أكثر وضوحًا، أجد نفسي مضطرًا إلى العودة إلى خبرة شخصية. اسمحوا لي بأن أحكي ما كان يحدث في الصباح الباكر في تلك الأيام التي يكون علينا أن نسير فيها إلى موقع عملنا. كانت هناك أوامر بصوت مرتفع: "كتيبة، إلى الأمام سر! يسار 2-3-4! يسار 2-3-4! يسار 2-3-4! يسار 2-3-4! الرّجل الأوّل هناك تحرك، إلى اليسار وإلى اليسار وإلى اليسار وإلى اليسار! اخلعوا القبّعات!" هذه الكلمات مازالت تدوي في أذنيّ حتى الآن». عند الأمر «اخلعوا القبّعات!» كنا نعبّر بوابة المعسكر ويتمّ تسليط الكشافات علينا. كان كلّ من لا يسير بسرعة تكون في انتظاره ركلة. وكان الرّجل الذي يسحب، بسبب البرد، قبّعته مرّة أخرى على أذنيه قبل أن تُمنح الإذن يتعرّض لما هو أسوأ من ذلك.

وكنا نتعثّر في الظلام، وفوق الأحجار الكبيرة وخلال البرك الكبيرة، على طول الطريق الوحيد الذي يبدأ من المعسكر. وكان الحراس المرافقون لا يكفّون عن الصّراخ فينا ودفعنا بأعقاب بنادقهم. وأي شخص كان يعاني من ألم شديد في قدميه كان يستند على ذراع جاره. لم نكن ننطق بكلمة؛ كانت الرّياح الجليديّة لا تشجّع على الكلام. همس الرّجل الذي يسير خلفي فجأة، وهو يخبئ فمه خلف ياقته المقلوبة، قائلاً: «إذا كانت زوجاتنا يستطيعن أن يرئنا الآن! أتمنى أن يكنّ في حالة أفضل في معسكراتهنّ ولا يعرفن ما يحدث لنا».

وقد جعلني ذلك أفكّر في زوجتي. وبينما كنا نتعثّر لأميال، وننزلق على البقع الجليديّة، ويسند بعضنا بعضاً مرّة بعد أخرى، ويسحب بعضنا بعضاً إلى أعلى وإلى الأمام، لم ننطق بكلمة، لكننا كنا نعرف: كان كلّ منا يفكّر في زوجته. كنت أنظر إلى السّماء من حين إلى آخر، حيث كانت النّجوم تشحب ويشرع الضّوء الوردّي في الصّباح في الانتشار خلف مجموعة مظلمة من الغيوم. لكنّ عقلي كان يتشبّث بصورة زوجتي، ويتخيّلها بقوة خارقة. سمعتها تردّ عليّ ورأيتُ ابتسامتها، وطلعتها الصّريحة والمشجّعة. وسواء كان ذلك حقيقةً أم لم يكن، كانت طلعتها أكثر إشراقاً من الشّمس التي كانت تبدأ في الإشراق.

- لقد أذهلّني الفكرة: لأوّل مرّة في حياتي رأيت الحقيقة كما تغنى بها عدد كبير من الشعراء، وقد ادّعى عدد كبير من المفكّرين أنّها الحكمة النهائيّة. وتمثّل هذه الحقيقة في أنّ الحبّ هو الهدف النهائيّ الأسمى الذي يمكن أن يطمح إليه الإنسان. وبعد ذلك أدركت معنى السرّ

الأعظم الذي يجب أن ينقله الشعر الإنساني والفكر الإنساني والإيمان الإنساني: إن خلاص الإنسان يكون من خلال الحب وفي الحب. فهمت كيف أن إنساناً لم يبق له شيء في هذا العالم مازال يعرف النعيم، ولو في لحظة قصيرة، في تأمل محبوبه. في حالة من الخراب التام، حين لا يستطيع الإنسان التعبير عن نفسه بفعل إيجابي، حين يمكن أن يكون إنجاز الوحد تحمل معاناته بالطريقة الصحيحة - بطريقة شريفة - في مثل هذه الحالة يمكن للإنسان، من خلال الحب وهو يتأمل الصورة التي يحملها لمحبوبه، أن يحقق الشعور بالرضا. للمرة الأولى في حياتي، تمكنت من فهم معنى الكلمات: «إن الملائكة غارقون في تأمل دائم لمجد لا نهائي».

تعثر رجل أمامي وسقط فوقه الرجال الذين كانوا يسرون خلفه. وهرع الحارس وانهاه بسوطه عليهم جميعاً. وهكذا توقفت أفكاري لبضع دقائق. ولكن سرعان ما وجدت رוחي طريقها للعودة من عالم السجين إلى عالم آخر، واستأنفت الحديث مع حبيبي: وجهتُ إليها أسئلة وقامت بالرد عليّ. ووجهتُ إليّ أسئلة بدورها وقمتُ بالرد عليها.

«قف!» وصلنا إلى موقع عملنا. اندفع الجميع إلى الكوخ المظلم على أمل الحصول على أداة لائقة إلى حد ما. وحصل كل سجين على مجرفة أو معول.

«ألا يمكن أن تسرعوا يا خنازير؟» سرعان ما استعدنا الأوضاع التي كنا عليها في اليوم السابق في الخندق. تصدعت الأرض المتجمدة تحت حدّ الفؤوس، وتطايرت الشرارات. كان الرجال صامتين، وقد تحذرت أدمغتهم.

وكان عقلي لا يزال متشبثًا بصورة زوجتي. وقد خطرت في ذهني فكرة: إنني لم أكن أعرف حتى ما إن كانت لا تزال على قيد الحياة. كنت لا أعرف إلا شيئًا واحدًا فقط - شيئًا تعلمته جيدًا الآن: يتجاوز الحب إلى حد بعيد الشخصية الجسدية للمحجوب. إنَّ الحب يجد أعمق معانيه في الكيان الروحي للمحجوب، في أعماق ذاته. سواء كان حاضرًا أم غير حاضر، سواء كان لا يزال على قيد الحياة أم لم يكن على قيد الحياة على الإطلاق، بشكل ما لا يبقى لذلك أي أهمية.

لم أكن أعرف ما إذا كانت زوجتي على قيد الحياة، ولم يكن لدي أي وسيلة لمعرفة ذلك (طوال فترة سجنني لم يكن هناك بريد صادر أو وارد)؛ ولكن في تلك اللحظة لم يعد لذلك أي أهمية. لم يكن هناك حاجة إلى أن أعرف؛ لا شيء يمكن أن يلمس قوة حبي وأفكاري وصورة حبيتي. لو علمت آنذاك أن زوجتي ماتت، أعتقد أنني كنت سأظل محافظًا على نفسي، دون انزعاج من هذه المعرفة، وأنا أتأمل صورتها، وأن محادثتي العقلية معها كانت ستبقى حية ومُرضية. «اجعَلني كخاتم على قلبك، لأن المحبة قوية كالموت»⁽³¹⁾.

ساعد هذا التكثيف في الحياة الداخلية السجن على إيجاد ملاذ من الخواء والخراب والفقر الروحي لوجوده، من خلال السماح له بالهروب إلى الماضي. وحين كان يطلق العنان لخياله، كان خياله يلعب بأحداث

(31) - الاقتباس عن "نشيد الأنشاد"، 6-8، والنص الكامل للآية "اجعَلني كخاتم على قلبك. كخاتم على ساعدك. لأنَّ المحبة قوية كالموت. الغيرة قاسية كالهوية. ليهيها لهيب نار لظى الرب." والترجمة عن ترجمة الكتاب المقدس (المترجم).

الماضي، وهي غالبًا أحداث غير مهمة، لم تكن إلا أحداثًا بسيطة وأمورًا تافهة. وكانت ذاكرة حنينه إلى الماضي تمجد هذه الأحداث والأمور وتُفترَض لها خاصية غريبة. بدا عالمها ووجودها بعيدين جدًا، وكانت الروح تمتد إليها باشتياق: كنت أتخيل أنني أستقل حافلة، وأفتح الباب الأمامي لشقتي، وأرد على هاتفي، وأقوم بإضاءة المصابيح الكهربائية. وكثيرًا ما تركزت أفكارنا على تفاصيل من هذا القبيل، وكان يمكن لهذه الذكريات أن تدفع المرء إلى البكاء.

بينما كانت الحياة الداخلية للسجين في طريقها إلى أن تصبح أكثر كثافة، كان المرء يشعر أيضًا بجمال الفن والطبيعة كما لم يشعر من قبل. تحت تأثيرهما، كان ينسى أحيانًا ظروفه الرهيبة. إذا كان لشخص ما أن يرى وجوهنا في الرحلة من معسكر أوشفيتز إلى معسكر بافاريا حيث لمحنا جبال سالزبورج⁽³²⁾ مع توهج قممها عند غروب الشمس، من خلال النوافذ الصغيرة المدعومة بقضبان في عربة السجن، ما كان له أن يصدق أن تلك وجوه رجال فقدوا كل أمل في الحياة والحرية. رغم هذا العامل - أو ربما بسببه - فقد أخذنا بجمال الطبيعة، الذي افتقدناه طويلاً.

في المعسكر، أيضًا، كان يمكن للرجل أن يلفت انتباه رفيق يعمل بجانبه إلى المنظر الجميل للشمس التي في طريقها إلى الغروب وهي تسطع عبر الأشجار العالية في الغابات البافارية (كما تبدو في اللوحات الشهيرة التي رسمها دورر بالألوان المائية)⁽³³⁾، الغابات نفسها التي قمنا

(32) - بافاريا Bavaria: بافاريا ولاية ألمانية. سالزبورج Salzburg: رابع أكبر مدينة نمساوية وهي عاصمة ولاية سالزبورج الاتحادية (المترجم).

(33) - ألبرخت دورر Dürer (1471 - 1528): رسام ألماني. وأحد المنظرين لعصر النهضة الألمانية (المترجم).

بناء مصنع سرّي ضخّم للذخائر فيها. ذات مساء، حين كنا نرتاح بالفعل على أرضية الكوخ، منهكين إلى أقصى حدّ، وسلاطين الحساء في أيدينا، اندفع زميل سجين إلينا وطلب منا أن نركض إلى أرض التجمع لنرى روعة غروب الشمس. ونحن نقف في الخارج رأينا غيومًا شريفة تتوهج في الغرب والسماء بأكملها زاخرة بسحب بأشكال وألوان تتغير باستمرار، من الأزرق الفولاذي إلى الأحمر الدموي. وقد شكّلت أكواخ الطين الرمادية المقفرة تباينًا حادًا، بينما عكست البرك على الأرض الموحلة السماء المتوهجة. ثمّ، بعد دقائق من الصمت المؤثر، قال سجين لآخر: «كم يمكن أن يكون العالم جميلًا!»

في مرّة أخرى ونحن نعمل في خندق. كان الفجر رماديًا من حولنا؛ وكانت السماء رمادية من فوقنا؛ وكان الثلج رماديًا في ضوء الفجر الشاحب؛ ورمادية كانت الخرق التي يرتديها زملائي السجّناء، ورمادية كانت وجوههم. كنت أتحدّث بصمت مرّة أخرى مع زوجتي، أو ربّما كنت أكافح للعثور على سبب لمعاناتي، لموتي البطيء. في احتجاج عنيف أخير على اليأس من الموت الوشيك، شعرت بروحي تخرق الكأبة المغلّفة. شعرت أنّها تتجاوز ذلك العالم اليأس الذي لا معنى له، ومن مكان ما سمعت «نعم» بنبرة انتصار ردًا على سؤالي حول وجود هدف نهائيّ. في تلك اللحظة، اشتعل ضوء في بيت ريفيّ بعيد، وقد وقف في الأفق كما لو كان يلوّن هناك، وسط الرماديّ البائس للصباح المنبثق في

بافاريا. «والنور يضيء في الظلمة»⁽³⁴⁾. لعدة ساعات وقفت متباطئًا على الأرض الجليدية. مرّ الحارس، وأهانني، ومرّة أخرى تواصلت مع حبيبتني. ازداد شعوري بأنها كانت حاضرة، وأنها كانت معي؛ وقد تولّد لديّ شعور بأنني قادر على لمسها، وقادر على مدّ يدي والإمساك بها. كان هذا الشعور قويًا جدًا: كانت هناك. ثمّ، في تلك اللحظة على وجه التّحديد، طار طائر في صمت وجثم أمامي مباشرة، على كوم من التّربة التي حفرتها من الخندق، ونظر إليّ بثبات.

ذكرت الفنّ في وقت سابق. هل يوجد شيء من هذا القبيل في معسكر اعتقال؟ يعتمد الأمر بالأحرى على ما يختار المرء أن يطلق عليه اسم الفنّ. تمّ ارتجال نوع من الكباريات من وقت إلى آخر. كان يتمّ تنظيف الكوخ بشكل مؤقت، ويتمّ دفع بعض المقاعد الخشبيّة بجوار بعضها البعض أو تثبيتها معًا ويتمّ تقديم برنامج. في المساء كان أولئك الذين في وضع جيّد إلى حدّ ما في المعسكر - أفراد الكابو والعمّال الذين لم يضطّروا إلى مغادرة المعسكر في مسيرات بعيدة - يتجمّعون هناك. كان يأتون كي يضحكوا قليلًا أو ربّما كي يبكوا قليلًا. وعلى أيّ حال، كي ينسوا. كانت هناك أغانيّ تغني وقصائد تنشد ونكات تُحكى، وكان بعضها يتضمّن هجاء يتعلّق بالمعسكر. كان الجميع يسعون إلى مساعدتنا على النسيان، وقد ساعدونا. كانت التّجمّعات فعّالة للغاية إلى درجة أن بعض السّجناء العاديين كانوا يذهبون لرؤية الكباريه رغم تعبهم ورغم

(34) - والنور يضيء في الظلمة: في الأصل باللاتينية *Et lux in tenebris lucet*، ثم بالإنجليزية: وهي من الترجمة اللاتينية لإنجيل يوحنا، 1 - 5، ونص الآية بالكامل عن الترجمة العربية للكتاب المقدس: "والنور يضيء في الظلمة، والظلمة لم تُدرِكهُ": واسم مسرحية نثرية من فصل من تأليف بريخت (المترجم).

أن حصّتهم اليوميّة من الطّعام كانت تفوتهم بالذهاب إليه.

في أثناء فترة الغداء التي لا تتجاوز نصف ساعة حين كان يتمّ توزيع الحساء (الذي دفع المقاولون مقابله ولم ينفقوا الكثير) علينا في موقع عملنا، كان يسمح لنا بالتّجمع في غرفة محرّكات غير مكتملة. عند الدّخول، كان كلّ شخص يحصل على مغرفة من الحساء المائيّ الخفيف. ونحن نشربه بشراهة، كان سجين يصعد على حوض ويغنيّ الحاناً إيطاليّة. لقد استمتعنا بالأغاني، وكان يحصل على حصّة مضاعفة من الحساء، مباشرة «من أسفل الإناء» - وهذا يعني أن الحساء يحتوي على بعض البازلاء!

كانت المكافآت في المعسكر لا تمنح للتّرفيه فقط، ولكن أيضاً للتّصفيق. كان من الممكن مثلاً، أن أجد الحماية (كم كنت محظوظاً لأنني لم أكن في حاجة إليها من قبل!) من فرد الكابو في المعسكر الأكثر إثارة للرّعب، الذي عُرف لأكثر من سبب معقول باسم «الكابو القاتل». وهكذا حدثت الحكاية. ذات مساء، حظيت بشرف كبير بدعوتي مرّة أخرى إلى الغرفة التي جرت فيها جلسة استحضار الأرواح. وكان يجتمع فيها الأصدقاء الحميميون أنفسهم، أصدقاء كبير الأطباء، بشكل غير قانونيّ، وكان صفّ الضّابط من فرقة الصّحّة العامّة موجوداً مرّة أخرى. دخل الكابو القاتل الغرفة عن طريق الصّدفّة، وطُلب منه إلقاء إحدى قصائده التي أصبحت مشهورة (أو سيّئة السّمعة) في المعسكر. لم يكن في حاجة إلى أن يُطلب منه ذلك مرّتين وسرعان ما أنتج نوعاً من دفتر اليوميّات وشرع في قراءة عيّنات من فنّه. قمت بعضّ شفّتيّ حدّ

الألم حتى لا أضحك على إحدى قصائده عن الحب، ومن المحتمل جدًا أنني قد أنقذت حياتي بهذه الطريقة. نظرًا إلى أنني كنت كريمًا أيضًا في التصفيق، فقد تم إنقاذ حياتي حتى لو تم اختياري في فريق العمل الذي تم تكليفي بالعمل فيه من قبل ولو ليوم واحد. وكان اليوم كافيًا تمامًا بالنسبة إلي. كان من المفيد، على أي حال، أن يكون المرء معروفًا للكابو القاتل من زاوية إيجابية. لذلك صفتُ بأقصى ما أستطيع.

عموما، كان أي سعي وراء الفن في المعسكر غريبًا إلى حد ما. أود أن أقول إن الانطباع الحقيقي الذي أحدثه أي شيء مرتبط بالفن نشأ فقط من التباين الرهيب بين الأداء وخلفية الحياة في المعسكر الكئيب. لن أنسى أبدًا كيف استيقظت من نوم عميق نتيجة الإنهاك في ليلتي الثانية في معسكر أوشفيتز على صوت الموسيقى. كان أقدم حراس الكوخ يحتفل احتفالًا من نوع ما في غرفته، التي كانت بالقرب من مدخل الكوخ. علت بعض الأصوات المخمورة ببعض الألحان المبتذلة. وفجأة خيم الصمت على المكان، وعُزف في الليل على الكمان تانجو حزين للغاية، لحن غير عادي لم يفسده العزف المتكرر. بكى الكمان وبكى جزء مني، لأنه في ذلك اليوم نفسه كان شخص ما يحتفل بعيد ميلاده الرابع والعشرين. كان ذلك الشخص يقبع في جزء آخر من معسكر أوشفيتز، ربما فقط على بعد بضع مئات من الياردات أو ألف ياردة، ولكنه كان بعيد المنال تمامًا. كان ذلك الشخص زوجتي.

إن اكتشاف أن هناك أي شيء يشبه الفن في معسكر الاعتقال، يجب أن يكون مفاجئًا بما يكفي بالنسبة إلى شخص من خارج المعسكر، ولكنه

قد يُفاجأ أكثر حين يسمع أنه يمكن للمرء أن يجد روح الدّعاة هناك أيضًا؛ بالطبع، أثر ضئيل لثانية، ولا يستمرّ بعد ذلك إلا لبضع ثوانٍ أو دقائق فقط. كانت روح الدّعاة من بين أسلحة أخرى من تلك الأسلحة التي تستخدمها الرّوح في الكفاح من أجل الحفاظ على الذات. من المعروف أنّ روح الدّعاة، أكثر من أيّ شيء آخر في التكوين البشري، يمكن أن تقدّم العزلة والقدرة على الارتفاع فوق أيّ موقف، حتى لو كان ذلك لبضع ثوانٍ فقط. لقد درّبت فعلاً أحدَ أصدقائي وكان يعمل بجانبني في موقع البناء على تطوير روح الدّعاة. اقترحت عليه أن يعد كل منّا الآخر باختراع قصّة مسليّة على الأقلّ يوميًا، حول بعض الأحداث التي يمكن أن تحدث بعد يوم واحد من تحريرنا. كان جرّاحًا وكان مساعدًا في طاقم مستشفى كبير. لذا حاولت ذات مرّة أن أجعله يتسم من خلال وصفه كيف أنّه لن يتمكّن من فقدان عادات حياة المعسكر حين يعود إلى عمله السّابق. في موقع البناء (خاصة حين كان المشرف يقوم بجولته التّفقيّة)، كان رئيس العمّال يشجّعنا على العمل بشكل أسرع من خلال الصّياح: «العمل! العمل!» قلت لصديقي: «ذات يوم سوف تعود إلى غرفة العمليّات وأنت تجري عمليّة كبيرة على البطن. فجأة سوف يندفع أحد الممرّضين معلنًا عن وصول كبير الجراحين وهو يصيح "العمل! العمل!"»!

في بعض الأحيان، اخترع الرّجال الآخرون أحلامًا مسليّة تدور حول المستقبل، مثل التنبؤ بأنهم قد ينسون أنفسهم أثناء تناول العشاء في المستقبل حين يتمّ تقديم الحساء ويتوسّلون للمضيّفة أن تغرف «من أسفل».

إن محاولة تطوير الإحساس بروح الدّعابة ورؤية الأشياء في ضوء روح الدّعابة نوع من الحيل التي يتعلّمها المرء في أثناء إتقان فنّ الحياة. ومع ذلك، من الممكن ممارسة فنّ الحياة حتّى في معسكر من معسكرات الاعتقال، رغم انتشار المعاناة في كلّ مكان. لرسم تشابه جزئيّ: إنّ معاناة الإنسان تشبه سلوك الغاز. إذا تمّ ضخّ كمية معيّنة من الغاز في غرفة فارغة، فسوف يملأ الغاز الغرفة بالكامل وبالتساوي، بغضّ النظر عن حجم الغرفة. وهكذا تملأ المعاناة تمامًا نفس الإنسان وعقله الواعي، بغضّ النظر عمّا إذا كانت المعاناة كبيرة أم صغيرة. وبالتالي يكون «حجم» المعاناة الإنسانيّة نسبيًا تمامًا.

ويترتب على ذلك أيضًا أنّ شيئًا تافهًا للغاية يمكن أن يكون سببًا لأعظم أشكال البهجة. خذ مثلًا شيئًا حدث في رحلتنا من معسكر أوشفيتز إلى المعسكر التابع لمعسكر داخاو. كنّا جميعًا خائفين من يكون القطار متّجهًا إلى معسكر ماوتهاوزن. أصبحنا أكثر توترًا حين اقتربنا من جسر معيّن فوق نهر الدّانوب والذي كان على القطار عبوره للوصول إلى ماوتهاوزن، وفقًا لبيان رفقاء السّفر ذوي الخبرة. إنّ أولئك الذين لم يسبق لهم أن رأوا أيّ شيء من هذا القبيل لا يمكن أن يتخيّلوا رقصة الفرح التي قام بها السّجناء في العربة حين رأوا أنّ القطار الذي كنّا نستقلّه لم يكن يعبر الجسر بل كان يتّجه «فقط» إلى داخاو.

ومرّة أخرى، ماذا حدث عند وصولنا إلى ذلك المعسكر، بعد رحلة استمرّت لمُدّة يومين وثلاث ليالٍ؟ ولم تكن هناك مساحة كافية للجميع ليجلسوا القرفصاء على أرضيّة العربة في الوقت نفسه: كان على معظمنا

الوقوف على طول الطريق، بينما تناوب عدد قليل على جلوس القرفصاء على قش ضئيل مشبع ببول الإنسان. وحين وصلنا كان أول خبر مهم سمعناه من السجناء الأقدم، أن هذا المعسكر الصغير نسبيًا (وكان عدد نزلائه 2500) لا يحتوي على «فرن»، ولا محرقة، ولا غاز! وكان هذا يعني أن الشخص الذي أصبح «مسلمًا»⁽³⁵⁾ لا يمكن أخذه مباشرة إلى غرفة الغاز، ولكن عليه أن ينتظر حتى يتم ترتيب ما يسمى «قافلة المرضى» للعودة إلى معسكر أوشفيتز. وقد جعلتنا هذه المفاجأة المبهجة جميعًا في حالة مزاجية جيدة. لقد تحققت رغبة كبير حراس كوخنا في معسكر أوشفيتز: لقد وصلنا بأسرع ما يمكن إلى معسكر لا يحتوي على «مدخنة» - على عكس معسكر أوشفيتز. ضحكنا وتبادلنا النكات رغم كل ما كان علينا أن نمرّ به خلال الساعات القليلة التالية.

حين تمّ إحصاء عددنا، نحن القادمين الجدد، كان أحدنا في عداد المفقودين. وبالتالي كان علينا أن نتظر في الخارج تحت المطر والرياح الباردة حتى يتم العثور على الرجل المفقود. تمّ اكتشافه أخيرًا في كوخ، حيث غلبه النوم نتيجة الإرهاق. وبعد ذلك تمّ تحويل نداء الأسماء إلى عرض للعقاب. طوال الليل وإلى وقت متأخر من صباح اليوم التالي، كان علينا جميعًا أن نقف في الخارج، متجمّدين ومنقوعين في المياه تمامًا بعد الإجهاد الذي عانينا منه في رحلتنا الطويلة. ومع ذلك فقد سررنا جميعًا سرورًا حقيقيًا! لم يكن هناك مدخنة في هذا المعسكر وكان معسكر أوشفيتز بعيدًا جدًا.

(35) - نستخدم الكلمة في هذا الكتاب بمعنى خاص، انظر هامش سابق للمترجم (المترجم).

مرّة أخرى رأينا مجموعة من السّجناء يجتازون موقع عملنا. كم بدت نسبيّة كل المعاناة واضحة لنا! لقد حسدنا هؤلاء السّجناء على حياتهم الأمانة والمنظمة بشكل جيد نسبيّاً. لقد اعتقدنا بأسى بأنهم كان لديهم بالتأكيد فرص منتظمة للاستحمام. من المؤكّد أنّه كان لديهم أفراس أسنان وفرش ملابس ومراتب لكلّ واحد منهم، وكان البريد الشهريّ يجلب لهم أخبار مكان وجود أقاربهم، أو على الأقلّ ما إذا كانوا لا يزالون على قيد الحياة أم لا. وكنا قد فقدنا هذا كلّهُ منذ زمن طويل.

وكم حسدنا أولئك الذين أتيحت لهم الفرصة للدّخول إلى مصنع والعمل في غرفة لها سقف! كان كلّ فرد يرغب في أن يكون له مثل هذا الحظّ الذي ينقذ حياته. يمتدّ نطاق الحظّ النسبيّ حتّى إلى أبعد من ذلك. حتّى بين تلك الكتائب الموجودة خارج المعسكر (كنت عضواً في واحدة منها) كانت هناك بعض الوحدات التي تعتبر أسوأ من غيرها. كان يمكن للمرء أن يحسد رجلاً لم يكن يضطرّ إلى أن ينحوض في الطين الموحل العميق على منحدر حادّ وهو يفرغ أحواض السكك الحديدية الضيقة⁽³⁶⁾ لمدة اثنتي عشرة ساعة في اليوم. وقد قعت معظم الحوادث اليومية في هذه الوظيفة، وكثيراً ما كانت حوادث مميتة.

في مجموعات العمل الأخرى، حافظ المشرفون على تقاليد محلّية على ما يبدو في التعامل مع الضربات الكثيرة، مما جعلنا نتحدّث عن الحظّ النسبيّ لأننا لسنا تحت إمرتهم، أو ربّما لأننا كنا تحتها بشكل مؤقت فقط.

(36) - السكك الحديدية الضيقة small field railway: خطوط سكك حديدية ألمانية بمقاس أصغر من المقاس المعتاد وكانت تستخدم بالأساس لنقل المنتجات الزراعية والمواد الخام التي تحتاج إليها الصناعة (المترجم).

ذات مرة، ولسوء الحظ، انضمتُ إلى مجموعة من هذا النوع. إذا لم يوقفنا عن العمل إنذار بغارة جوية بعد ساعتين (كان رئيس العمال في خلالها يعمل معي بشكل خاص)، مما جعل من الضروري إعادة تجميع العمال بعد ذلك، أعتقد أنني كنت سأعود إلى المعسكر على إحدى الزلاجات التي حملت أولئك الذين ماتوا أو كانوا يموتون من الإرهاق. لا يمكن لأحد أن يتصور الراحة التي يمكن أن تسببها صفارات الإنذار في مثل هذه الحالة؛ ولا حتى الملاكم الذي يسمع جرسًا يدل على انتهاء الجولة وقد أُنقذ في اللحظة الأخيرة من خطر الضربة القاضية.

كنا نمتن لأصغر شكل من أشكال الرحمة. كنا نسعد حين يكون هناك وقت نتخلص فيه من القمل قبل أن نذهب إلى الفراش، رغم أن هذا في ذاته لم يكن أمرًا مبهجًا، لأنه كان يعني أن يقف المرء عاريًا في كوخ يخلو من وسائل التدفئة وحيث كانت كتل الثلج تتدلى من السقف. لكننا كنا نمتن إذا لم يكن هناك إنذار بغارة جوية في أثناء هذه العملية ولم يتم إطفاء الأنوار بالتالي. إذا لم نتمكن من القيام بهذه المهمة بشكل صحيح، فقد تبقى مستيقظين حتى منتصف الليل.

قدّمت المملذات الهزيلة في حياة المعسكر نوعًا من السعادة السلية - «التحرر من المعاناة» كما وصفها شوبنهاور⁽³⁷⁾ وقد قدّمتها بشكل نسبي فقط. المملذات الإيجابية الحقيقية، حتى المملذات الصغيرة، كانت قليلة جدًا. أتذكر أنني قمت برسم نوع ما من بيان بالمملذات في يوم من الأيام

(37) - يركز موقف شوبنهاور عن الانتحار على إمكانية تحقيق "التحرر من المعاناة" من خلال إنكار إرادة الفرد في الحياة. ويجادل شوبنهاور بأن الانتحار يفسل في تحقيق هذه الحرية. لأنه، في المقام الأول، فعل إرادة يؤكد الإرادة في الحياة بدلًا من أن ينكرها؛ وربما هذا ما يجعل فيكتور فرانكل يصفها بالسعادة السلية (المترجم).

ووجدت أنني لم أمر، في عدد كبير من الأسابيع السابقة، إلا بلحظتين ممتعتين فقط. حدثت واحدة حين سُمع لي، عند عودتي من العمل، بالدخول إلى مطبخ المعسكر بعد انتظار طويل ووقفت في طابور التقديم حتى الطاهي السجين «ف...». وكان يقف وراء مقلاة من المقالي الضخمة ويغرف الحساء في الطاسات التي يقدمها إليه السجناء الذين اصطفوا خلفي بسرعة. وكان الطاهي الوحيد الذي لا ينظر إلى الرجال الذين يملأ طاساتهم؛ والطاهي الوحيد الذي يوزع الحساء بالتساوي، بغض النظر عن المتلقي، ولم يكن يفضل أصدقاءه أو مواطنيه، إذ يمكن أن يقدم لهم البطاطس، بينما يحصل الآخرون على حساء مائي خالٍ من قمة الوعاء.

لكن ليس لي أن أصدر أحكامًا على هؤلاء السجناء الذين يميزون أبناء شعبهم على الجميع. من يستطيع أن يلقي حجرًا على رجل يفضل أصدقاءه في ظروف تكون فيها المسألة، عاجلاً أو آجلاً، مسألة حياة أو موت؟ لا ينبغي أن يصدر الرجل حكماً ما لم يسأل نفسه بأمانة مطلقة ما إن كان يمكن أن يفعل الشيء نفسه إذا وضع في موقف مماثل.

بعد فترة طويلة من استئناف الحياة الطبيعية مرة أخرى (وهذا يعني بعد وقت طويل من خروجي من المعسكر)، أراني شخصاً ما مجلة أسبوعية مصورة فيها صور فوتوغرافية لسجناء مستلقين ومزدحمين على أسرّتهم، يحدقون ببلادة في زائر. «أليست هذه وجوهاً رهيبه، تحدق بشكل مروّع - كل شيء فيها رهيب».

سألت «لماذا؟» لأنني بصراحة لم أفهم. في تلك اللحظة رأيت كل

شيء مرة أخرى: في الخامسة صباحًا، وكان الظلام لا يزال حالكا في الخارج. كنت مستلقيا على ألواح صلبة في كوخ ترابي حيث تتم «رعاية» سبعين منا. كنا مرضى ولم نكن مضطرين إلى أن نغادر المعسكر للعمل؛ لم يكن علينا أن نذهب إلى العرض. وكان يمكننا أن نستلقي طوال اليوم في الركن الصغير الذي نحتله في الكوخ ونغفو ومنتظر التوزيع اليومي لحصة الخبز (الذي كان يتم تخفيضها بالطبع للمرضى) وللحصة اليومية من الحساء (المائي وقد نقص أيضا في الكمية). ولكن كم كنا قانعين؛ كنا سعداء رغم كل شيء. وبينما كنا نتزاحم بجوار بعضنا بعضا لتجنب أي خسارة غير ضرورية للدفع، وكنا كسالى للغاية وغير مهتمين بتحريك إصبع دون داع، سمعنا صافرات تدوي وصراخا يأتي من الساحة حيث عاد أفراد الدورية الليلية للتو وكانوا يتجمعون من أجل نداء التمام. فُتح الباب فجأة، واندفعت العاصفة الثلجية إلى كوخنا. تعثر رفيق منك، مغطى بالثلج، في الداخل ليجلس بضع دقائق. لكن كبير الحراس أخرجه مرة أخرى. كان ممنوعاً منعاً باتاً دخول شخص غريب إلى كوخ في أثناء أخذ تمام الرجال. كم أسفْتُ لذلك الزميل وكم كنت مسرورا لأنني لستُ في موقفه في تلك اللحظة، ولكنني بدلا من ذلك كنت مريضا وقادرا على النوم في الأماكن المخصصة للمرضى! يا له من أمر ينقذ الحياة أن يكون المرء هناك ليومين، وربما ليومين إضافيين بعد ذلك!

تبادر كل هذا إلى ذهني حين رأيت الصور في المجلة. حين شرحت الأمر، فهم مستمعى السبب في أنني لم أجد الصورة فظيعة للغاية: الأشخاص الذين يظهرون فيها قد لا يكونون تعساء رغم كل شيء.

في يومي الرابع من الإقامة في جناح المرضى، تمّ نقلي على الفور إلى
الدورية الليلية حين هرع كبير الأطباء وطلب منّي أن أتطوّع لأداء مهامّ
طبية في معسكر آخر يحتوي على المرضى الذين يعانون من التيفوس. ضدّ
النصيحة العاجلة لأصدقائي (ورغم حقيقة أنّ أياً من زملائي لم يعرضوا
خدماتهم تقريباً)، قرّرت أن أتطوّع. كنت أعرف أنّي قد أموت في فرقة
عمل في وقت قصير. ولكن إذا كان عليّ أن أموت فقد يكون هناك على
الأقلّ معنى لموتي وأنا أعمل مع المرضى. اعتقدت أنه قد يكون هناك بلا
شكّ هدفٌ في محاولة مساعدة رفاقي بصفتي طبيباً بدلاً من التراخي أو
فقدان حياتي في النهاية وأنا أقوم بعمل غير منتج وهو ما كنت عليه في
ذلك الوقت.

كانت هذه المسائل بالنسبة إليّ بسيطة ولم تكن تضحية. ولكن بشكل
سري، أمر ضابط الصّف من فرقة الصّحة العامّة بضرورة «العناية»
بالطبيين اللّذين تطوّعا للعمل في معسكر التيفوس حتى مغادرتهم. كان
يبدو علينا الضعف الشديد إلى درجة أنه كان يخشى أن يكون لديه جثتان
إضافتان على يديه، بدل أن يكون لديه طبيبان.

لقد ذكرت من قبل كيف أن كل شيء لم يكن مرتبطاً بالمهمّة الفورية،
التمثّلة في الحفاظ على ذات المرء وعلى حياة أقرب الأصدقاء، فقد قيمته.
تمت التضحية بكل شيء من أجل هذا الهدف. صارت شخصية الإنسان
منشغلة بهذا الهدف حتّى أنه وقع في أسر اضطراب عقليّ هدّد كلّ القيم
التي يحملها وجعلها في موضع شكّ. وتحت تأثير عالم لم يعد يعترف
بقيمة الحياة البشريّة والكرامة الإنسانيّة، عالم حرم الإنسان من إرادته

وجعله شيئًا يجب إبادته (بعد التخطيط للأمر بحيث يتم استهلاكه بالكامل أولًا - حتى الأوقية الأخيرة من موارد المادّية) - تحت هذا التأثير عانت الأنا الشخصيّة في النهاية من فقدان القيم. إذا لم يكافح الرّجل في معسكر الاعتقال ضدّ هذا في محاولة أخيرة للحفاظ على احترامه لذاته، فإنّه يكون قد فقد الشّعور بأنّه فرد، بأنّه كائن له عقل، وبأنّه يتمتّع بحريّة داخلية وقيمة شخصيّة. لقد اعتقد حينها أنّه مجرد جزء من كتلة هائلة من النّاس؛ انحدر وجوده إلى مستوى الحياة الحيوانية. كان الرّجال يساقون كالقطيع - أحيانًا إلى مكان ثمّ إلى آخر؛ وأحيانًا أخرى يساقون معًا، ثم يساقون متباعدين - مثل قطيع من الأغنام دون أي فكرة أو إرادة خاصّة بهم. شاهدت مجموعة صغيرة من الأفراد ولكنهم كانوا خطرين من جميع الجهات، وكانوا على دراية جيدة بأساليب التعذيب والسّادية. ساقوا القطيع باستمرار إلى الأمام بالصراخ والركلات والضربات. ونحن، الأغنام، لم نكن نفكر إلّا في شيئين فقط - كيف نهرب من الكلاب الشريرة وكيف نحصل على القليل من الطعام. تمامًا مثل الأغنام التي تتجمّع في حالة خوف في وسط القطيع، حاول كل منا الوصول إلى منتصف تشكيلاتنا. أعطى ذلك للمرء فرصة أفضل لتجنب ضربات الحراس الذين كانوا يسيرون على كلا الجانبين في مقدّمة الطّابور وفي مؤخرته. وكان الجزء الأوسط يتمتّع بمزيّة إضافية تتمثل في توفير الحماية من الرّياح الشّديدة. وبالتالي، في محاولة المرء أن يفرّ بجلده كان يحاول أن يغرق وسط الزّحام حقًا. وكان هذا يتمّ بشكل تلقائي في التشكيلات. ولكن في أوقات أخرى كان يتمّ بشكل واعٍ جدًّا من جانبنا، وفقًا لأحد القوانين الأكثر إلحاحًا في الحفاظ على الذات في المعسكر: لا

تكن واضحًا. كنا نحاول في كل الأوقات أن نتجنب جذب انتباه قوات
الحرس الخاص.

وكان من الممكن، بطبيعة الحال، بل ومن الضروري أن تكون هناك
أوقات يتعد فيها المرء عن الحشد. من المعروف جيدًا أن الحياة الجماعية
القسرية التي يتم فيها الانتباه إلى كل ما يقوم به المرء في كل وقت، قد
تؤدي إلى رغبة لا تقاوم في الابتعاد فترة قصيرة على أقل تقدير. كان
السجين يحنُّ إلى أن يكون وحيدًا مع نفسه وأفكاره. كان يتوق إلى
الخصوصية والعزلة. بعد نقلي إلى ما يسمى «معسكر الراحة»، وقد
منحت لي فرصة نادرة للعثور على هذه العزلة لخمس دقائق في كل مرة.
خلف الكوخ الترابي الذي كنت أعمل فيه ويكتظ فيه حوالي خمسين
مريضًا يعانون من الهذيان، كان هناك مكان هادئ في زاوية السياج
المزدوج للأسلاك الشائكة المحيطة بالمعسكر. وقد تمت إقامة خيمة هناك
بشكل ارتجالي ببعض الأعمدة وفروع الأشجار من أجل إيواء ست
جثث (المعدّل اليومي للوفيات في المعسكر). وكانت هناك أيضا فتحة
تؤدي إلى أنابيب المياه. كنت أجلس القرفصاء على الغطاء الخشبي لهذه
الفتحة حين لا تكون هناك حاجة إلى خدماتي. كنت أجلس وأكتفي
بالنظر إلى المنحدرات المزهرة الخضراء والتلال الزرقاء البعيدة في المناظر
الطبيعية البافارية التي تحيط بها شبكات من الأسلاك الشائكة. كنت
أحلم بشوق، وكانت أفكاري تتجول في الشمال والشمال الشرقي في اتجاه
بيتي، لكنني لم أر إلا الغيوم.

ولم تكن تزعجني الجثث التي يزحف عليها القمل قريبا مني. وحدها

خطوات الحراس المارين كانت تستطيع أن توقظني من أحلامي. أو ربما يكون الاستدعاء إلى جناح المرضى أو لاستلام إمدادات طبيّة جديدة من أجل كوشي - تتكون ربما من خمسة أقراص أو عشرة أقراص من الأسبرين، تبقى لعدة أيام من أجل 50 مريضًا. كنت أستلمها ثم أقوم بجولاتي في الجناح، وأجسّ نبضات المرضى وأعطي نصف قرص للحالة الخطيرة. ولم يكن المرضى الذين يعانون من أمراض ميؤوس منها يتلقون أيّ دواء. لم تكن لتساعدهم، وإلى جانب ذلك، تحرم منها أولئك الذين لا يزال لديهم بعض الأمل. وبالنسبة إلى الحالات الخفيفة، لم يكن لديّ أي شيء، ربما باستثناء كلمة تشجيع. بهذه الطريقة كنت أتقل ببطء من مريض إلى مريض، رغم أنني كنت ضعيفًا ومرهقًا من حالة خطيرة من التيفوس. ثم أعود إلى مكاني الوحيد على الغطاء الخشبي لفتحة الماء.

أنقذت هذه الفتحة حياة ثلاثة من الزملاء السّجناء فعلا. قبل التحرر بقليل، تمّ تنظيم عمليّات النّقل الجماعيّ للذهاب إلى «داخاو»، وحاول هؤلاء السّجناء الثلاثة بحكمة تجنّب الرّحلة. نزلوا إلى الفتحة واختبؤوا هناك من الحراس. كنت أجلس بهدوء على الغطاء، وأبدو بريئًا وألعب لعبة طفوليّة تتمثّل في رمي الحصى على الأسلاك الشائكة. حين لمحني الحارس، تردّد لحظة، ولكنه مرّ بعد ذلك. وسرعان ما استطعت أن أخبر الرّجال الثلاثة في الحفرة بأن أسوأ خطر قد انتهى.

من الصّعب جدًّا على أي شخص من خارج المعسكر أن يدرك مدى ضآلة قيمة حياة الإنسان في المعسكر. صار النزير في المعسكر أكثر خبرة، وربما أصبح أكثر وعيًا بهذا التّجاهل الكامل للوجود الإنساني حين تمّ

إعداد قافلة للرجال المرضى. تمّ إلقاء أجساد المرضى الذين يعانون من هزال على عربات بعجلتين سحبها السّجناء لعدة أميال إلى المعسكر التالي، وكثيرًا ما كان ذلك يحدث في العواصف الثلجية. وإذا مات أحد الرجال المرضى قبل أن تبرح العربة موضعها، يتمّ رميه فيها على أي حال - يجب أن تكون القائمة صحيحة! كانت القائمة هي الشيء الوحيد الذي يتمّ. كان الإنسان يوضع في الحسبان فقط من خلال رقمه. صار المرء رقمًا بكل معنى الكلمة: سواء كان ميتًا أم حيًا - كان هذا لا يهمّ؛ لم تكن حياة «الرقم» أي صلة بالأمر على الإطلاق. وكان ما وراء هذا الرقم وحياة صاحبة أقل أهمية: مصير الإنسان وتاريخه واسمه. في عربة المرضى الذين كان عليّ، بصفتي طبيبًا، أن أرافقهم من معسكر في بافاريا إلى معسكر آخر، كان هناك سجين شابّ لم يكن شقيقه مدرجًا في القائمة، وبالتالي لا بدّ أن يتركه وراءه. توّسل الشابّ لفترة طويلة إلى درجة أن حارس المعسكر قرّر أن يقوم بعملية تبادل، وحلّ شقيق هذا الشابّ مكان رجل فضّل البقاء في الخلف في ذلك الوقت. لكنّ القائمة يجب أن تكون صحيحة! كان ذلك سهلًا. وقد تبادل ذلك الشقيق الرقم مع السجين الآخر.

وكما ذكرت من قبل، لم يكن لدينا وثائق تخصّصنا؛ كان كلّ شخص محظوظ لأنه يمتلك جسدًا لا يزال يتنفس رغم كل شيء. وكل ما تبقى بشأننا، أي الخرق المعلقة من هياكلنا العظمية الهزيلة، كان ذا أهمية فقط إذا تمّ تكليفنا بنقل المرضى المعتلين. تمّ فحص «المسلمين» المغادرين بفضول لا يعرف الخجل لمعرفة ما إن كانت معاطفهم أو أحذيتهم ليست أفضل من تلك الخاصة بالمرء. رغم كلّ شيء، كانت مصائرهم غامضة.

لكن أولئك الذين بقوا في المعسكر، والذين لا يزالون قادرين على القيام ببعض الأعمال، كان عليهم الاستفادة من كل الوسائل لتحسين فرصهم في البقاء. لم يكونوا عاطفيين. رأى السجناء أنفسهم يعتمدون اعتمادًا كاملاً على الحالة المزاجية للحراس - لعبة القدر - مما جعلهم أقل إنسانية مما تسمح به الظروف.

في معسكر أوشفيتز، كنت قد وضعت قاعدة لنفسي أثبتت أنها جيدة واتبعتها معظم رفاقي بعد ذلك. كنت أجيب بشكل عام عن كل أنواع الأسئلة بصدق. لكنني كنت أصمت بشأن أي شيء لا يُطلب بشكل صريح. إذا سُئلت عن عمري، فإني أجيب. إذا سُئلت عن مهنتي، فإني أقول «دكتور»، لكنني لا أوضح. في صباح اليوم الأول في معسكر أوشفيتز جاء ضابط من قوات الأمن الخاص إلى ساحة العرض. وكان علينا أن نصطف في مجموعات منفصلة من السجناء: فوق أربعين عامًا، والأقل من أربعين عامًا، عمال المعادن والميكانيكيون، وما إلى ذلك. ثم تم فحصنا بحثًا عن إصابات بفتق، وكان يجب تشكيل مجموعة جديدة من بعض السجناء. تم نقل المجموعة التي كنت فيها إلى كوخ آخر، حيث وقفنا في صف مرة أخرى. وبعد أن تم تصنيفنا مرة أخرى وبعد الإجابة على الأسئلة المتعلقة بعمري ومهنتي، تم إرسالنا إلى مجموعة صغيرة أخرى. ومرة أخرى، تمت قيادتنا إلى كوخ آخر وتم تجميعنا بشكل مختلف. استمرت هذه العملية بعض الوقت، وصرت غير سعيد تمامًا، وقد وجدت نفسي بين غرباء يتحدثون لغات أجنبية غير مفهومة. ثم جاء الاختيار الأخير، ووجدت نفسي في المجموعة التي كانت معي في الكوخ الأول! لم يكادوا يلاحظون أنني أرسلت من كوخ إلى كوخ في

غضون ذلك. لكنني كنت أدرك أن القدر، في تلك الدقائق القليلة، قد تجاوزني بأشكال مختلفة.

حين تمّ تنظيم نقل المرضى المعتلين إلى «مخيم الراحة»، تمّ وضع اسمي (أي رقمي) في القائمة، إذ كانوا في حاجة إلى بعض الأطباء. ولكن لم يكن أحد مقتنعًا بأن الوجهة كانت حقًا معسكر من معسكرات الراحة. قبل أسابيع قليلة تمّ إعداد الرحلة نفسها. ثم، أيضًا، كان الجميع يعتقدون أنها في طريقها إلى أفران الغاز. حين تمّ الإعلان عن أن أيّ شخص تطوع للعمل في الدورية الليلية المروعة سوف يستبعد من قائمة الرحلة، تطوع اثنان وثمانون سجينًا على الفور. بعد ربع ساعة تمّ إلغاء الرحلة، لكنّ الاثنين والثمانين بقوا على القائمة في الدورية الليلية. وكان هذا يعني، بالنسبة إلى غالبيتهم، الموت في غضون أسبوعين.

الآن تمّ ترتيب النقل إلى معسكر الراحة للمرة الثانية. مرة أخرى، لم يكن أحد يعرف ما إذا كانت هذه خدعة للحصول على آخر جزء من العمل من المرضى - فقط لمدة أربعة عشر يومًا - أو ما إذا كانوا سيذهبون إلى أفران الغاز أو إلى معسكر حقيقي من معسكرات الراحة. أخبرني كبير الأطباء، الذي كان يعجبني، بشكل قاطع في العاشرة إلاّ الربع من إحدى الليالي: «لقد أوضحت في غرفة التنظيم أنه لا يزال بإمكانك شطب اسمك من القائمة؛ يمكنك القيام بذلك حتى العاشرة».

قلت له إنني لا أتصرّف بهذا الشكل؛ وإنني تعلّمت أن أترك القدر يأخذ مجراه. وقلت: «قد أبقى كذلك مع أصدقائي». كانت هناك شفقة في عينيه، كما لو كان يعلم... صافح يدي في صمت، وكأنه وداع ليس من

أجل الحياة، ولكن من الحياة. عدت ببطء إلى كوخني. هناك وجدت صديقًا جيدًا ينتظرنني.

سأل بحزن: «هل تريد الذهاب معهم حقًا؟»

«نعم أنا ذاهب معهم».

ظهرت الدموع في عينيه وحاولت تهدئته. ثم كان هناك شيء آخر عليّ أن أقوم به لأعلن وصيتي: «اسمع يا أوتو، إذا لم أعد إلى البيت لزوجتي، وإذا كان عليك أن تراها مرة أخرى، فأخبرها أنني كنت أتحدث عنها كل يوم، وكل ساعة. تذكر ذلك. ثانيًا، لقد أحببتها أكثر من أي شخص آخر. ثالثًا، الوقت القصير الذي تزوجتها فيه يفوق ويعوّض كل شيء، حتى كل ما مررنا به هنا من صعاب».

أوتو، أين أنت الآن؟ هل أنت على قيد الحياة؟ ماذا حدث لك منذ آخر ساعة قضيناها معًا؟ هل وجدت زوجتك مرة أخرى؟ وهل تتذكر كيف جعلتك تحفظ وصيتي عن ظهر قلب -كلمة كلمة- رغم دموعك الطفولية؟

في صباح اليوم التالي غادرت في العربة. لم تكن خدعة هذه المرة. لم نتجه إلى غرف الغاز، وقد ذهبنا بالفعل إلى معسكر من معسكرات الراحة. أولئك الذين أشفقوا عليّ ظلّوا في المعسكر حيث كانت المجاعة أكثر قسوة بكثير مما كانت عليه في معسكرنا الجديد. حاولوا إنقاذ أنفسهم، لكنهم حدّدوا مصائرهم فقط. بعد أشهر من التحرر، التقيت بصديق من المعسكر القديم. أخبرني كيف بحث، بصفته شرطي المعسكر، عن قطعة من اللحم البشري كانت مفقودة من كوم من الجثث.

وصادرها من قدر وجدها تطبخ فيه. شاع أكل لحوم البشر. لقد غادرت في الوقت المناسب.

ألا يذكر هذا بقصة الموت في طهران؟ سار فارسي غني وعظيم ذات مرة في حديقته مع واحد من خدمه. صاح الخادم قائلاً إنه قد رأى الموت للتو، وقد هدّده. توّسل إلى سيّده ليعطيه أسرع حصان لديه حتى يتمكن من الفرار بسرعة إلى طهران، كي يتمكن من أن يصل إليها في مساء اليوم نفسه. وافق السيّد وانطلق الخادم على الحصان. عند عودته إلى منزله، التقى السيد نفسه بالموت، وسأله: «لماذا أخفت خادمي وهدّدته؟» فقال الموت: «لم أهدّده. فقط كم كانت دهشتي لأنني وجدته هنا وقد خطّطت لمقابلته الليلة في طهران».

كان السجين في المعسكر يشعر بالخوف من اتخاذ القرارات ومن اتخاذ أي شكل من أشكال المبادرة مهما كان. كان هذا نتيجة شعور قوي بأن القدر هو سيد المرء، وأنه على المرء ألاّ يحاول التأثير عليه بأي شكل من الأشكال، وكان عليه بدلاً من ذلك أن يتركه ليأخذ مجراه الخاص. بالإضافة إلى ذلك، كان هناك قدر هائل من التبلّد، وقد ساهم إلى حدّ كبير في تشكيل مشاعر السّجين. في بعض الأحيان، كان لا بدّ من اتخاذ قرارات بسرعة البرق، قرارات تعني الحياة أو الموت. وكان السّجين يفضل أن يترك القدر يختار له. كان هذا الهروب من الالتزام أكثر وضوحاً حين يضطرّ السّجين إلى اتخاذ قرار بمحاولة الهروب أو ضدّ المحاولة. في تلك الدقائق التي كان عليه أن يقرّر فيها -وكانت دائماً مسألة دقائق- كان يعاني من عذاب يشبه عذاب الجحيم. هل يحاول

الفرار؟ هل عليه أن يخاطر؟

وقد عانيتُ أيضًا من هذا العذاب. مع اقتراب جبهة المعركة، أتيحت لي الفرصة للهروب. أراد أحد زملائي، الذي كان عليه أن يزور الأكواخ خارج المعسكر في أثناء قيامه بواجباته الطبية أن يفرّ ويأخذني معه. تحت ذريعة إجراء استشارة حول مريض كان مرضه يحتاج إلى نصيحة متخصص، قام بتهريبي. وخارج المعسكر، كان على أحد أعضاء حركة المقاومة الأجنبية أن يزودنا بالزيت والوثائق. في اللحظة الأخيرة ظهرت بعض الصعوبات التقنية واضطررنا إلى العودة إلى المعسكر مرة أخرى. وقد قمنا باستغلال هذه الفرصة لتزويد أنفسنا ببعض المؤن -بعض البطاطس الفاسدة- وللبحث عن حقيبة من حقائب الظهر اقتحمنا كوخًا فارغًا من معسكر النساء الذي كان شاغورًا، وكان قد تم إرسال النساء إلى معسكر آخر. كان الكوخ في حالة فوضى شديدة. كان من الواضح أنّ عددًا كبيرًا من النساء حصلن على الإمدادات وهربن؛ كان هناك أسمال وقش وطعام متعفن وأوانٍ فخارية مكسورة. وكانت بعض الأوعية لا تزال في حالة جيّدة وكانت مفيدة للغاية بالنسبة إلينا، لكننا قررنا عدم أخذها. وقد علمنا في وقت لاحق أنّه حين ساءت الظروف للغاية، لم تكن تستخدم للطعام فقط، ولكنها كانت تستخدم أيضًا أحواضًا للغسيل وقصاري لقضاء الحاجة. (كانت هناك قاعدة مفروضة بصرامة ضدّ وجود أي نوع من الأواني في الكوخ. ومع ذلك، اضطرّ بعض الناس إلى كسر هذه القاعدة، وخاصة مرضى التيفوس الذين كانوا أضعف من أن يخرجوا حتّى مع المساعدة.) بينما كنت أقوم بدور الساتر، اقتحم صديقي الكوخ وعاد بعد فترة وجيزة بحقيبة من حقائب الظهر

كان يخفيها تحت معطفه. وقد رأى حقيية أخرى وكان عليّ أن آخذها. تبادلنا الأماكن ودخلت. حين فتّشت في القمامة، وجدت حقيية الظهر وحتى فرشاة أسنان، ورأيت فجأة جسد امرأة من بين كل الأشياء التي تُركت.

عدت إلى كوخني لجمع كل ممتلكاتي: طاسة الطعام وزوج من القفّازات الممزقة «ورثته» من مريض ميّت من مرضى التيفوس، وبضع قصاصات من الورق مغطاة بملاحظات بلغة الاختزال (كما ذكرت من قبل، كنت قد شرعت في إعادة كتابة المخطوطة التي فقدتها في معسكر أوشفيتز). وقد قمت بجولة أخيرة سريعة على مرضاي الذين كانوا مستلقين على ألواح من الخشب البالي على جوانب الأكواخ. جئت إلى ابن بلدي الوحيد، الذي كان على وشك الموت، وكان لديّ طموح بأن أنقذ حياته رغم سوء حالته. كان عليّ أن أحافظ على نيّتي في الهروب سرًا في نفسي، لكن يبدو أن رفيقي خمن في أن هناك خطأ ما (ربما بدا عليّ بعض التوتّر). سألني بصوت متعب: «هل سترحل أيضًا؟» أنكرت الأمر، لكنني وجدت صعوبة في أن أتجنّب نظرتة الحزينة. بعد جولتي عدت إليه. ومرة أخرى، استقبلني بنظرة يأس وشعرت بطريقة ما بأنها نظرة اتهام. سيطر عليّ شعور سيّء بمجرد أن أخبرت صديقي بأن مسألة هروبي معه صارت أكثر صعوبة. فجأة قرّرت أن أتحمّم في مصيري مرة واحدة. خرجتُ مسرعًا من الكوخ وأخبرت صديقي بأنني لن أستطيع أن أذهب معه. بمجرد أن أخبرته بشكل نهائيّ أنني قرّرت أن أبقى مع مرضاي، لم أعد أحسّ بذلك الشعور السيّء. لم أكن أعرف ما الذي ستجلبه الأيام التالية، لكنني شعرتُ بسلام داخلي لم أشعر به من قبل.

عدت إلى الكوخ، جلست على الألواح عند أقدام مواطني وحاولت تهدئته؛ ثم تحدثت مع الآخرين، محاولاً تهدئتهم في هذيانهم.

حان آخر يوم لنا في المعسكر. مع زيادة اقتراب جبهة المعركة، نقلت وسائل النقل الجماعي كل السجناء تقريباً إلى معسكرات أخرى. كانت سلطات المعسكر وأفراد الكابو والطباخون قد فروا. وفي هذا اليوم، صدر أمر بإخلاء المعسكر بالكامل عند غروب الشمس. حتى السجناء القلائل المتبقون (المرضى وبعض الأطباء وبعض «المرضى») سوف يضطرون إلى المغادرة. وفي الليل كان من المقرر إشعال النار في المعسكر. في فترة ما بعد الظهر لم تظهر الشاحنات التي كان من المفترض أن تجمع المرضى. وبدلاً من ذلك، أُغلقت أبواب المعسكر فجأة وتمت مراقبة الأسلاك الشائكة مراقبة لصيقة، حتى لا يتمكن أحد من الفرار. ويبدو أن السجناء الباقين كان مقدراً لهم الحرق مع المعسكر. للمرة الثانية قررت وصديقي أن نهرب.

تم توجيه الأمر إلينا بدفن ثلاثة رجال خارج سياج الأسلاك الشائكة. كنا الاثنين الوحيدين في المعسكر اللذين يمتلكان القوة الكافية للقيام بالمهمة. وكان الآخرون جميعاً يرقدون تقريباً منهكين من الحمى والهذيان في الأكواخ القليلة التي كانت لا تزال قيد الاستخدام. وضعنا الآن خططنا: مع الجثة الأولى نهرب حقية ظهر صديقي ونخفيها في حوض الغسيل القديم الذي كان بمثابة تابوت. حين نخرج الجثة الثانية، سوف نهرب حقيبتنا أيضاً، وفي الرحلة الثالثة كنا ننوي الهروب. سارت الرحلتان الأولى والثانية وفقاً للخطة. بعد عودتنا، كنت أنتظر بينما كان

صديقي يحاول العثور على قطعة من الخبز كي يكون لدينا شيء نأكله خلال الأيام القليلة القادمة في الغابة. انتظرت. مرّت دقائق. نفذ صبري أكثر وأكثر لأنّه لم يعد. بعد ثلاث سنوات من السّجن، كنت أتصوّر الحرّيّة بفرح، أتخيّل كم يكون رائعاً أن أركض نحو جبهة المعركة. لكننا لم نصل إلى هذا الحدّ.

فُتحت بوّابة المعسكر على مصراعيها في اللّحظة التي عاد فيها صديقي. تدحرجت سيّارة فخمة بلون الألمنيوم، وقد رُسمت عليها صلبان حمراء كبيرة، تدحرجت ببطء إلى أرض العرض. وصل مندوب من الصّليب الأحمر الدّولي في جنيف، وكان المعسكر ونزلاؤه تحت حمايته. واختار المندوب لنفسه منزلاً ريفياً في المنطقة المجاورة، ليكون بالقرب من المعسكر في جميع الأوقات في حالة الطّوارئ. من يمكن أن يفكر في الهروب الآن؟ كان يتمّ إفراغ صناديق الأدوية من السيّارة وتوزيع السّجائر، ويتمّ تصويرنا فسادت البهجة في أسمى أشكالها. لم نعد الآن في حاجة إلى أن نخاطر ونجري نحو خطّ القتال.

نسينا الجثّة الثالثة من شدّة حماسنا، لذا حملناها إلى الخارج وأسقطناها في القبر الضيق الذي حفرناه للجثث الثلاث. وفجأة صار الحارس الذي كان يرافقنا وكان يبدو رجلاً غير مؤذٍ ولطيفاً للغاية. رأى أنّه قد يتمّ قلب الطاولات وحاول أن يفوز برضانا. وانضمّ إلى الصّلوات القصيرة التي أقمناها للموتى قبل أن نهيل عليهم التراب. بعد التوتّر والإثارة في الأيام والسّاعات الماضية، تلك الأيام الأخيرة في سباقنا مع الموت، كانت كلمات صلاتنا التي تطلب السّلام، متوهّجة مثل أيّ كلمات ينطق به

وهكذا مرّ آخر يوم في المعسكر ونحن نترقب الحرّية. لكنّ بهجتنا كانت قبل الأوان. لقد أكّد لنا مندوب الصليب الأحمر أنه تمّ التوقيع على اتفاق، وأنه لا يجب إخلاء المعسكر. لكن في تلك اللّيلة، وصلت قوّات الأمن الخاص بشاحنات ومعها أوامر بإخلاء المعسكر. سوف يتمّ نقل آخر السّجناء المتبقّين إلى معسكر مركزيّ، إذ من المفترض أن يتمّ إرسالهم إلى سويسرا في غضون ثمان وأربعين ساعة، ليتّم تبادلهم مع بعض أسرى الحرب. لم نكد نتعرّف على أفراد قوّات الأمن الخاص. لقد كانوا ودودين للغاية، يحاولون إقناعنا بدخول الشّاحنات دون خوف، ويخبروننا بأننا يجب أن نمتنّ لحسن حظّنا. أولئك الذين كانوا أقوياء بما فيه الكفاية ازدحموا في الشّاحنات ورفعوا المرضى بصعوبة شديدة وضعف. وقد وقفت وصدّقي - ولم نكن نخفي حقيبتينا الآن - في المجموعة الأخيرة، إذ سيتمّ اختيار ثلاثة عشر من أفرادها ليركبوا الشّاحنة قبل الأخيرة. أحصى كبير الأطباء العدد المطلوب، لكنّه حذف كلينا. وتمّ تحميل الثلاثة عشر سجيناً في الشّاحنة وكان علينا أن نبقي. وجهنا اللّوم باستغراب وانزعاج شديد وخيبة أمل إلى كبير الأطباء، الذي اعتذر بقوله إنه كان متعباً ومشتتاً. وقال إنه كان يعتقد أننا مازلنا ننوي الهرب. جلسنا بفارغ الصّبر، وأبقينا على الحقيبتين على ظهرينا، ونحن ننتظر الشّاحنة الأخيرة مع عدد قليل من السّجناء المتبقّين. كان علينا أن ننتظر فترة أطول. وقد كُنّا، أخيراً، نستلقي على مراتب غرفة الحراسة المهجورة، منهكين من الإثارة في الساعات والأيام القليلة الماضية، التي كُنّا نتأرجح فيها باستمرار بين الأمل واليأس. نمنا في ملابسنا وأحذيتنا، جاهزين

للرحلة.

أيقظنا ضجيج البنادق والمدافع. دخلت ومضات رصاصات التبع⁽³⁸⁾ وطلقات البنادق إلى الكوخ. اندفع رئيس الأطباء وأمرنا بالانبطاح على الأرض. قفز سجين على بطني من السرير الذي فوقي وهو يتعل حذاءه. أيقظني ذلك تمامًا! ثم استوعبنا ما كان يحدث: لقد وصلت جبهة المعركة إلينا! انخفض معدّل إطلاق النار وبرز نور الصّباح. في الخارج على السّارية عند بوابة المعسكر رفرف العلم الأبيض في الرّيح.

اكتشفنا بعد عدّة أسابيع أنه حدّ تلك السّاعات الأخيرة كان القدر يتلاعب بذلك العدد الضّئيل ممن تبقى منّا نحن السّجناء. اكتشفنا إلى أيّ مدى تكون القرارات البشريّة غير مؤكّدة، لا سيّما في مسائل الحياة والموت. رأيتُ صورًا تمّ التقاطها في معسكر صغير لم يكن بعيدًا عن معسكرنا. تمّ نقل أصدقاءنا الذين اعتقدوا أنّهم كانوا يسافرون لإطلاق سراحهم في تلك اللّيلة في الشّاحنات إلى هذا المعسكر، وهناك حُبسوا في الأكواخ وأُحرقوا حتّى الموت. تمّ التعرّف على جثثهم المتفحّمة جزئيًّا في الصّورة. فكّرت مرّة أخرى في قصّة «الموت في طهران».

كان تبدّل السّجناء، بصرف النّظر عن دوره باعتباره آليّة من الآليات الدفاعية، نتيجة لعوامل أخرى. ساهم فيه الجوع وقلة النّوم (كما يفعلان في الحياة الطّبيعيّة أيضًا) كما ساهما في التّوتر العام الذي كان سمة أخرى من سمات الحالة العقليّة للسّجناء. وتعود قلة النّوم جزئيًّا إلى إزعاج

(38) - رصاصة التبع tracer bullet: رصاصة تتبرك مسارًا من الدخان أو النار.

الحشرات التي تغزو الأكواخ المكتظة بشكل رهيب بسبب النقص العام في النظافة والصرف الصحي. كما ساهمت في حالة التبلد والتوتر حقيقة أنه لم يكن لدينا نيكوتين أو كافيين.

— إلى جانب هذه الأسباب الجسدية، كانت هناك أسباب عقلية، في شكل عقد معينة. كان غالبية السجناء يعانون من نوع ما من عقد النقص. لقد كنا جميعًا ذات يوم "أشخاصًا بشكل ما" أو كنا نتخيل أننا كنا كذلك. الآن كنا نعامل على أننا بلا هوية على الإطلاق. (إن وعي المرء بالقيمة الداخلية يرتكز على أشياء أسمى وأكثر روحانية، ولا يمكن أن تهزه حياة المعسكر. لكن كم عدد الرجال الأحرار، ناهيك عن السجناء، الذين يتمتعون بهذا الوعي؟). دون التفكير في ذلك بوعي، كان السجن العادي نفسه يشعر بأنه منبوذ تمامًا. وقد أصبح هذا واضحًا حين لاحظ المرء التناقضات التي تقدمها البنية الاجتماعية الفردية في المعسكر. كان السجناء الأكثر «بروزًا»، أعني أفراد الكابو والطباخين وأصحاب المتاجر وشرطة المعسكر، كقاعدة عامة، لا يشعرون بأنهم منبوذون على الإطلاق، مثل غالبية السجناء، بل على العكس - تم الترويج لهم! حتى أن البعض طور هذيانات مصغرة من هذيانات العظمة. وجد رد الفعل العقلي للأغلبية الحاسدة والمتدمرة تجاه هذه الأقلية المفضلة التعبير بعدة طرق، وأحيانًا في صورة نكات. مثلًا، سمعت سجينًا يتحدث إلى آخر حول فرد من الكابو، قائلاً: «تخيل! كنت أعرف ذلك الرجل حين كان رئيس بنك كبير فقط. أليس من حسن الحظ أنه ارتفع إلى هذه الدرجة في العالم»؟

حينما كان ينشب صراع بين الأغلبية المنبوذة والأقلية المعززة (وكانت هناك الكثير من الفرص لذلك، بدءًا من توزيع الطعام) تكون النتائج مدوية. وبالتالي أصبح التوتر العام (الذي تمت مناقشة أسبابه الجسدية من قبل) أكثر حدة عند إضافة هذه التوترات العقلية. وليس من المستغرب أن هذا التوتر كان ينتهي أحيانًا كثيرة في شجار عام. ولما كان السجين يشهد باستمرار مشاهد الضرب، فقد ازداد الاندفاع نحو العنف. وكنت أشعر بأن قبضة يدي تطبق بشدة حين كان يتابني الغضب وأنا جائع ومتعب. كنت عادة متعبًا للغاية، إذ كان علينا أن نشعل موقدنا -الذي سمح لنا بإبقائه في كوخنا لمرضى التيفوس - طوال الليل. ومع ذلك، فإن بعض أكثر الساعات الشاعرية التي قضيتها على الإطلاق كانت في منتصف الليل حين يكون الآخرون جميعًا غارقين في هذيانهم أو نائمين. كان بإمكانني أن أستلقي متمدّدًا أمام الموقد وأشوي بضع بطاطس مسروقة في نار مصنوعة من فحم مسروق. لكنني، في اليوم التالي، كنت أشعر دائمًا بالتعب والتبلد والتوتر.

بينما كنت أعمل طبيبًا في جناح التيفوس، كنت قد اضطررتُ أيضًا إلى أن أحل محل كبير مشرفي الجناح الذي كان مريضًا. لذا، كنت مسؤولاً أمام سلطة المعسكر عن الحفاظ على الكوخ نظيفًا، إذا كان يمكن استخدام كلمة «نظيف» لوصف مثل هذه الحالة. وكان التظاهر بالتفتيش الذي كان يخضع له الكوخ بشكل متكرر بغرض التعذيب أكثر مما كان بغرض الصحة العامة. ربّما كان من الممكن أن يساعدنا المزيد من الطعام وقليل من الأدوية، ولكن الشاغل الوحيد للمفتشين كان البحث عن قطعة من القش تُركت في الممر الرئيسي، أو ما إذا كانت بطانيات

المرضى، تلك المتسخة والممزقة التي تعج بالحشرات قد طويت بدقة عند أقدامهم. أما مصير السجناء فكان لا يعينهم. إذا أبلغت بذكاء، رافعاً قبعة السجن من على رأسي الحليق مع النقر بكعبي: «الكوخ رقم 9/6: 52 مريضاً، وممرضان مساعدان، وطبيب»، كان ذلك يكفيهم. ثم يغادرون. ولكن حتى وصولهم - وكان في أحيان كثيرة يتم بعد ساعات من الإعلان عنه، وفي بعض الأحيان كانوا لا يأتون على الإطلاق - كنتُ أضطرّ إلى الحفاظ على فرد البطانيات، والتقاط قطع القش التي تسقط من على الأسرّة، والصراخ على الشياطين البؤساء الذين كانوا يتقلبون في أسرّتهم مما يهدد بإفساد كل جهودي في الحفاظ على النظام والنظافة. كان التبلد يزداد بشكل خاص بين المرضى الذين يعانون من الحمى، وبالتالي ما كانوا يتفاعلون على الإطلاق ما لم يصح المرء في وجوههم. وحتى هذا الصباح كان يفشل أحياناً، وبعد ذلك يتطلب الأمر قدرًا هائلًا من ضبط النفس حتى لا يُهاجموا. لأن سرعة الانفعال لدى المرء أخذت أبعادًا هائلة في مواجهة تبلد الآخرين وخاصة في وجه الخطر (أي التفتيش الوشيك) الذي كان ينتج عنه.

في محاولتي تقديم هذا التفسير النفسي للمرضى للخصائص النموذجية التي يتسم بها السجناء في معسكر الاعتقال، قد أعطي انطباعاً بأن الإنسان يتأثر بمحيطه تأثيراً تاماً بشكل لا يمكن تجنبه. (في هذه الحالة يكون المحيط هو البنية الفريدة للحياة في المعسكر، التي أجبرت السجناء على أن يكتفوا سلوكه مع نمط معين). ولكن ماذا عن حرية الإنسان؟ ألا توجد حرية روحية فيما يتعلق بالسلوك ورد الفعل تجاه أي محيط معين؟ هل هذه النظرية صحيحة مما قد يجعلنا نعتقد أن الإنسان ليس أكثر من

نتاج لعدد كبير من العوامل الشرطية والبيئية، سواء كانت ذات طبيعة بيولوجية أم نفسية أم اجتماعية؟ هل الإنسان مجرد منتج عرضي لهذه العوامل؟ والأهم من ذلك، هل تثبت ردود فعل السجناء على العالم الفريد في معسكر الاعتقال أن الإنسان لا يستطيع الهروب من تأثيرات محيطه؟ ألا يوجد أمام الإنسان خيار لمواجهة هذه الظروف؟

يمكننا الإجابة عن هذه الأسئلة من الخبرة وكذلك من حيث المبدأ. تظهر تجارب الحياة في المعسكر أن الإنسان لديه خيار لاتخاذ إجراء. كانت هناك أمثلة كافية، وكثيرًا ما كانت ذات طبيعة بطولية، أثبتت أنه يمكن التغلب على التبلد وقمع التوتر. يمكن للإنسان أن يحافظ على بقايا الحرية الروحية واستقلال العقل، حتى في مثل هذه الظروف الرهيبة التي يعاني فيها من الإجهاد النفسي والجسدي.

يمكننا نحن الذين عشنا في معسكرات الاعتقال أن نتذكر الرجال الذين ساروا عبر الأكواخ لتهدئة الآخرين، متنازلين عن آخر قطعة من الخبز. قد يكون عددهم قليلًا، لكنهم يقدمون دليلًا كافيًا على أنه يمكن أن يؤخذ من الإنسان كل شيء إلا شيء واحد: آخر الحريات الإنسانية، أن يختار المرء موقفًا في ظل أي جملة معينة من الظروف، أن يختار طريقه الخاص.

وكانت هناك دائمًا فرص للاختيار. في كل يوم، وفي كل ساعة، كانت تسنح فرصة لاتخاذ قرار يحدّد ما إذا كنت سوف تخضع أم لا لتلك السلطات التي هدّدت بأن تسلبك ذاتك وحرّيتك الداخلية؛ قرار يحدّد ما إذا كنت سوف تصبح ألعوبة في يد الظروف، متخليًا عن الحرية

والكرامة ليتم تشكيلك في الشكل المعتاد الذي يتسم به السجين.

انطلاقاً من هذا المنظور لا بدّ أن تبدو لنا ردود الفعل العقلية لسجناء معسكر الاعتقال أكثر من مجرد تعبير عن ظروف جسدية واجتماعية معينة. رغم أنّ ظروفًا مثل قلة النوم، وعدم كفاية الطعام والضغط العقلية المختلفة قد تشير إلى أن النزلاء كانوا مضطرين إلى التفاعل بطرق معينة، إلا أنه يصبح من الواضح في التحليل النهائي أن نوع الشخصية التي كان يؤول إليها السجين كان نتيجة لقرار داخلي، وليس نتيجة لتأثيرات المعسكر وحدها. وبالتالي، يمكن لأيّ شخص حتى في مثل هذه الظروف أن يقرّر ما الذي سوف يصبح عليه عقلياً وروحياً. قد يحتفظ بكرامته الإنسانية حتى في معسكر الاعتقال. قال دوستوفسكي ذات مرة: «هناك شيء واحد يفزعني: ألا أستحقّ معاناتي». كثيراً ما تتبادر إلى ذهني هذه الكلمات بعد أن تعرّفت على هؤلاء الشهداء الذين كان سلوكهم في المعسكر، هؤلاء الذين يعانون معاناتهم وموتهم، على حقيقة أنه لا يمكن فقدان الحرية الداخلية الأخيرة. ويمكن القول إنهم كانوا يستحقّون معاناتهم. كانت الطريقة التي تحمّلوا بها معاناتهم إنجازاً روحياً ملموساً. هذه الحرية الروحية - التي لا يمكن إزالتها - هي التي تجعل الحياة ذات معنى وتجعلها هادفة.

تخدم الحياة النشطة غاية منح الإنسان الفرصة لإدراك القيم في العمل الإبداعي، بينما تقدّم له حياة المتعة السلبية فرصة الحصول على الكمال في الشعور بالجمال أو الفنّ أو الطبيعة. ولكن هناك أيضاً غاية في تلك الحياة التي تكاد تكون خالية من الإبداع والمتعة التي لا تعترف إلا باحتمال

واحد للسلوك الأخلاقي السامي: أي في موقف الإنسان من وجوده، وجود تقيده قوى خارجية. إن الحياة الإبداعية وحياة المتعة محظورتان عليه. ولكن لا يعني هذا أن المعنى يقتصر على الإبداع والمتعة فقط. إذا كان هناك معنى في الحياة عمومًا، فلا بد أن يكون هناك معنى في المعاناة. المعاناة جزء لا يتجزأ من الحياة، حتى في هيئة القدر والموت. من دون المعاناة والموت لا يمكن أن تكتمل حياة الإنسان.

إن الطريقة التي يقبل بها الإنسان قدره وكل المعاناة التي ينطوي عليها، والطريقة التي يحمل بها صليبه، تمنحه فرصة كبيرة - حتى في ظل أصعب الظروف - لأن يضيف معنى أعمق لحياته. قد تبقى حياة شجاعة وكريمة وخالية من الأنانية. أو قد ينسى الإنسان كرامته الإنسانية ويصبح مجرد حيوان في خضم النضال المرير من أجل الحفاظ على الذات. وهنا تكمن فرصة الإنسان للاستفادة من فرص تحقيق القيم الأخلاقية التي قد يوفرها له الوضع الصعب أو التخلي عن هذه الفرص. وهذا ما يحدد إن كان يستحق معاناته أم لا يستحقها.

لا تظن أن هذه الآراء خيالية وبعيدة جدًا عن الحياة الواقعية. صحيح أن قلة فقط قادرة على الوصول إلى مثل هذه المعايير الأخلاقية السامية. حافظ عدد قليل فقط من السجناء على حرّيتهم الداخلية الكاملة وحصلوا على تلك القيم التي منحها لهم معاناتهم، ولكن حتى هذا المثال يعدّ دليلًا كافيًا على أن قوة الإنسان الداخلية قد ترفعه فوق قدره الخارجي. لا يوجد مثل هؤلاء الناس في معسكرات الاعتقال فقط. بل في كل مكان يواجه الإنسان القدر، مع وجود فرصة لتحقيق شيء ما من

خلال المعاناة التي يمرّ بها.

لتأمل مصير المرضى، خاصّة أولئك الذين لا أمل في شفاء حالاتهم. قرأت ذات مرّة رسالة كتبها شابّ عاجز، أخبر فيها أحد الأصدقاء أنّه اكتشف للتوّ أنّه لن يعيش لفترة طويلة، حتّى العمليّة لن تكون مفيدة. وكتب كذلك أنّه تذكّر فيلمًا كان قد شاهده يُصوّر فيه رجلٌ ينتظر الموت بطريقة شجاعة وكريمة. كان الصّبيّ يعتقد أنّ تحقيق الموت بهذه الطّريقة الجيّدة إنجازٌ عظيم. والآن - كما كتب - يعرض القدر عليه فرصة مماثلة.

وربّما خطرت في ذهن أولئك الذين رأوا الفيلم واسمه البعث⁽³⁹⁾ - المأخوذ من كتاب تولستوي - منذ سنوات، أفكارًا متشابهة. هنا كانت توجد أقدار عظيمة ورجال عظماء. لم يكن هناك قدر عظيم بالنّسبة إلينا في ذلك الوقت. لم يكن هناك فرصة لتحقيق مثل هذه العظمة. ذهبنا بعد مشاهدة الفيلم إلى أقرب مقهى، ومع فنجان قهوة و«سندويتش»، نسينا الأفكار الميتافيزيقية الغريبة التي عبرت عقولنا للحظة. ولكن حين واجهنا قدرٌ عظيمٌ وكان علينا اتّخاذ قرار مواجهته بعظمة روحية مماثلة، كنّا قد نسينا حماسة الشّباب منذ فترة طويلة، وفشلنا.

ربما حلّ يوم بالنّسبة إلى بعضنا لمشاهدة الفيلم نفسه مرة أخرى أو فيلم مماثل. ولكن حتّى ذلك الوقت، قد تتكشف صور أخرى في الوقت نفسه أمام العين الداخليّة للمرء؛ صور الأشخاص الذين حقّقوا في حياتهم أكثر بكثير ممّا يمكن أن يظهر في فيلم عاطفيّ. ربما ظهرت بعض

(39) - البعث *Resurrection*: فيلم صدرت نسخته الأولى في هوليوود في عام 1927، عن الرواية التي كتبها في 1899 ليو تولستوي بالعنوان نفسه، وهي آخر رواية كتبها، وفي عام 1931، تم إنتاج نسخة جديدة من هذا الفيلم. وهناك إنتاج سينمائي مصري لهذه الرواية في فيلم "أشياء ضد القانون" (1982)، بطولة محمود ياسين ومديحة كامل (المترجم).

التفاصيل حول العظمة الداخليّة لإنسان معيّن في ذهن المرء، مثل قصّة المرأة الشّابة التي شاهدتُ موتها في معسكر من معسكرات الاعتقال. إنّها قصّة بسيطة. هناك القليل ممّا يمكن روايته وقد يبدو الأمر كأنني قد اخترعته؛ ولكن هذه القصّة تبدو بالنّسبة إليّ قصيدة.

كانت هذه الشّابة تعرف أنّها على وشك أن تموت في الأيام القليلة القادمة. ولكن حين تحدّثتُ معها كانت مبتهجة رغم هذه المعرفة. قالت لي: «إنني ممتنة لأنّ القدر صفعني بشدّة. كنت مدلّلة في حياتي السّابقة، ولم أكن أتعامل مع الإنجازات الروحية على محمل الجدّ». قالت وهي تشير من نافذة الكوخ: «هذه الشّجرة هي الصديقة الوحيدة لي في وحدتي». لم تكن تستطيع أن ترى من خلال تلك النّافذة إلا فرعاً واحداً فقط من شجرة الكستناء، وكان على الفرع زهرتان. قالت لي: «كثيراً ما أتحدّث إلى هذه الشّجرة». لقد أذهلتني ولم أكن أعرف كيف أتعامل مع كلماتها. هل كانت المرأة تعاني من حالة هذيان؟ هل كانت تعاني من هلوسات عارضة؟ سألتها بفارغ الصّبر إذا كانت الشّجرة قد ردّت عليها. فقالت: «نعم». سألتها عمّا قالت لها الشّجرة، فأجابت: «قالت لي: أنا هنا - أنا هنا - أنا حياة، حياة أبدية».

لقد ذكرنا أنّ الأسباب التي كانت مسؤولة في نهاية المطاف عن حالة الذات الداخليّة للسّجين لم تكن تلك النّفسية والجسدية التي تمّ ذكرها بقدر ما كانت نتيجة لقرار حرّ. وقد أظهرت الملاحظات النّفسية للسّجناء أنّ الرّجال الذين سمحوا بأن تتراخي قبضتهم الداخليّة على نفوسهم الأخلاقية والروحية لتضعف في النهاية وقعوا وخدمهم ضحية

للتأثيرات المدمرة في المعسكر. والسؤال الذي يطرح نفسه الآن، ما الذي يمكن أن يشكل هذه «القبضة الداخليّة»، أو ما الذي ينبغي أن يشكلها؟

يتفق السّجناء السابقون عند الكتابة عن خبراتهم أو روايتها، على أنّ التأثير الأكثر إيجاباً على الإطلاق هو أن السّجين كان لا يستطيع معرفة مدة سجنه. ولم يتمّ تحديد موعد له لإطلاق سراحه. (في معسكرنا كان حتى التحدّث عن ذلك يمثل نوعاً من العيب). في الواقع، لم تكن مدة السّجن غير مؤكّدة فحسب، لكنّها كانت غير محدودة أيضاً. أشار باحث شهير في علم النفس إلى أنّ الحياة في معسكر اعتقال يمكن أن تسمّى «وجوداً مؤقتاً». ويمكن أن نضيف إلى ذلك بتعريفه على أنّه «وجود مؤقت إلى أجل غير معروف».

لم يكن الوافدون الجدد عادةً يعرفون أيّ شيء عن ظروف الإقامة في المعسكر. وكان أولئك الذين عادوا من معسكرات أخرى يضطّرون إلى التزام الصّمت، ومن بعض المعسكرات لم يعد أحد. كان يطرأ تغير على عقول الناس عند دخول المعسكر. مع انتهاء عدم اليقين هناك جاء عدم اليقين بشأن النهاية. كان من المستحيل توقع ما إذا كان هذا الشكل من الوجود سوف ينتهي، إذا انتهى عموماً، أو متى ينتهي.

إن كلمة نهاية «finis» اللاتينية لها معنيان: النهاية أو الانتهاء، وهدف يتمّ الوصول إليه. الإنسان الذي لم يكن يستطيع رؤية نهاية «وجوده المؤقت» لم يكن قادراً على تحديد هدف نهائيّ في الحياة. لم يعد يعيش من أجل المستقبل، على عكس الإنسان في الحياة الطّبيعيّة. لذا فقد تغيّرت البنية الكاملة لحياته الداخليّة؛ تتشكّل مجموعة من علامات التّدهور التي

نعرفها من مجالات الحياة الأخرى. ويكون العامل العاطل مثلاً، في وضع مشابه. أصبح وجوده مؤقتاً وبمعنى ما لا يمكنه العيش من أجل المستقبل أو أن يسعى من أجل هدف. وقد أظهرت الأبحاث التي أجريت على عمّال المناجم العاطلين عن العمل أنّهم يعانون من نوع غريب من تشوّه الإحساس بالزمن -الزمن الداخلي- وذلك نتيجة لحالتهم بصفتهم عاطلين. كما عانى السّجناء من هذه «الخبرة الزمنية» الغريبة. في المعسكر، امتلأت وحدة زمنية صغيرة، اليوم مثلاً، بالتعذيب والإرهاق على مدار الساعة. ويبدو أنّ وحدة زمنية أكبر ربّما كانت أسبوعاً كانت تمرّ بسرعة كبيرة. وقد اتفق معي رفاقي حين قلت إنّ اليوم في المعسكر يستمرّ أكثر من الأسبوع. كم كانت خبرتنا بالزمن تنطوي على مفارقة! في هذا الصّد، نتذكّر رواية «الجبل السّحري» لتوماس مان⁽⁴⁰⁾، التي تحتوي على بعض الملاحظات النفسية شديدة الوضوح. يدرس توماس مان التّطوّر الرّوحي للأشخاص الذين هم في وضع نفسيّ مماثل، أي مرضى السّل في مصحّة لا يعرفون أيضاً موعداً لإطلاق سراحهم. إنهم يشعرون بوجود مشابه: أنّهم بلا مستقبل وليس لهم هدف.

قال لي أحد السّجناء، وكان قد سار لدى وصوله في طابور طويل من السّجناء الجدد من المحطّة إلى المعسكر، في وقت لاحق، إنه شعر كما لو كان يسير في جنازة أُعدّت له. كانت تبدو له حياته دون أيّ مستقبل على

(40) - الجبل السّحري *The Magic Mountain*: رواية نشرت أول مرة عام 1924؛ وتوماس مان Thomas Mann (1875 - 1955): روائي ألماني حصل على نوبل عام 1929؛ وهذه الرواية وتعتبر واحدة من أهم أعماله؛ والرواية مترجمة إلى العربية، ترجمة علي عبد الأمير صالح، وصدرت عن منشورات الجمل، 2010 (المترجم).

الإطلاق. رأى أنها قد اكتملت وانتهت، وكان يشعر كأنه مات بالفعل. وقد زادت شدة هذا الشعور بأنه بلا حياة لأسباب أخرى: بمرور الوقت، كان الإحساس بعدم وجود حدّ لمدة السجن أشدّ وطأة؛ وخاصّة في فضاء يمثل الحدود الضيقة للسجن. أصبح أيّ شيء خارج الأسلاك الشائكة حلماً بعيد المنال. إنّ الأحداث التي تجري في الخارج والأشخاص الذين هناك، وكل الحياة الطبيعيّة في الخارج، كان لها جانب شبحيّ بالنسبة إلى السجنين. إنّ الحياة الخارجيّة، أي بقدر ما كان يمكن له أن يرى، ظهرت له تقريباً كما قد تظهر لرجل ميّت ينظر إليها من عالم آخر.

إنّ الإنسان الذي ترك نفسه تضحّل لأنه لا يرى أيّ هدف مستقبليّ قد وجد نفسه مشغولاً بأفكار تتعلق بأحداث الماضي. وقد تحدّثنا بالفعل، في موضع مختلف، عن الميل إلى النظر إلى الماضي، للمساعدة في جعل الحاضر، بكلّ أهواله، أقلّ واقعية. لكن في سرقة صفة الواقعية من الحاضر يكمن خطر معيّن. لقد أصبح من السهل التّغاضي عن فرص تحقيق أيّ شيء إيجابيّ من حياة المعسكر، مع أنّ الفرص كانت موجودة بالفعل. إنّ النظر إلى "وجودنا المؤقت" على أنّه غير واقعيّ كان في حدّ ذاته عاملاً مهمّاً في التّسبّب في فقد السّجناء سيطرتهم على حياتهم؛ بطريقة ما أصبح كلّ شيء بلا هدف. نسي مثل هؤلاء أنّ مثل هذا الوضع الخارجيّ الصّعب للغاية يكون، في أحيان كثيرة، هو الذي يمنح الإنسان الفرصة للنموّ روحياً بما يتجاوز حدود نفسه. وبدلاً من اعتبار مشاكل المعسكر اختباراً لقوتهم الداخليّة، لم يأخذوا حياتهم على محمل الجدّ واحتقروها لأنهم اعتبروها شيئاً لا جدوى منه. فضّلوا أن يغلقوا عيونهم

ويعيشوا في الماضي. أصبحت حياة هؤلاء الناس بلا معنى.

كان عدد قليل من الناس طبعاً يتمتعون بالقدرة على الوصول إلى سموّ روحيّ عظيم. لكنّ عددًا قليلاً من الناس مُنِحوا الفرصة لتحقيق عظمة الإنسان حتّى من خلال فشلهم الدنيوي وموتهم، وهو إنجاز لم يكن ليحقّقوه في الظروف العاديّة. بالنّسبة إلى الآخرين، المتوسّطين والضعفاء، يمكن تطبيق كلمات بسمارك⁽⁴¹⁾: «إن الحياة تشبه زيارة إلى طبيب الأسنان. تعتقد دائماً أن الأسوأ لم يأت بعد، ومع ذلك يكون الأسوأ قد انتهى بالفعل». وبدلاً من ذلك، يمكن أن نقول إن معظم الرجال في معسكر الاعتقال كانوا يعتقدون أن فرص الحياة الحقيقيّة قد ولّت. ومع ذلك، كانت هناك، في الواقع، فرصة وشكل من أشكال التحدّي. كان يمكن للمرء أن ينتصر في ظل تلك الخبرات، ويحول الحياة إلى انتصار داخلي، أو كان يمكن للمرء أن يتجاهل التحدّي ويعيش ببساطة حياة فارغة، كما فعل معظم السجناء.

كان من الحتمي أن يكون هدف أي محاولة لمحاربة التأثير النفسي المرّضي للمعسكر على السجنين بطرق العلاج النفسي أو الصحة النفسية أن تمنحه قوة داخلية من خلال تحديد هدف مستقبلي له يمكن أن يتطلع إليه. وقد حاول بعض السجناء بشكل غريزي العثور بأنفسهم على هدف. إن ما يميز الإنسان أنه لا يستطيع أن يعيش إلا من خلال التطلع

(41) - بسمارك Bismarck (1815 - 1898): رئيس وزراء مملكة بروسيا (1862 - 1890). وأشرف على توحيد الولايات الألمانية وتأسيس الإمبراطورية الألمانية، وأصبح أول مستشار لها بعد قيامها في عام 1871. إلى أن عزله فيلهلم الثاني في عام 1890 (المترجم).

إلى المستقبل - من منظور أبدي⁽⁴²⁾. ويكون هذا خلاص السجين في أصعب لحظات وجوده، على الرغم من أنه يضطر في بعض الأحيان إلى إجبار عقله على القيام بهذه المهمة.

أتذكر خبرة شخصيّة. وأنا أكاد أبكي من الألم (كنتُ أعاني من قروح رهيبه في قدميَّ من ارتداء أحذية ممزّقة)، كنت أعرج لعدة كيلومترات في طابور طويل من الرّجال من المعسكر إلى موقع عملنا. صفعتنا رياح قاسية شديدة البرودة. ظللتُ أفكر في المشاكل الصّغيرة التي لا نهاية لها في حياتنا البائسة. ماذا قد يكون هناك لتناول الطّعام اللّيلة؟ إذا جاءت قطعة من النّقانق باعتبارها حصّة إضافيّة، فهل يجب أن أستبدل بها قطعة من الخبز؟ هل يجب أن أستبدل بسيجارتني الأخيرة، التي تركتها من مكافأة تلقّيتها قبل أسبوعين، طشت من الحساء؟ كيف يمكن أن أحصل على قطعة من السّلك لتحلّ محلّ القطعة التي كانت بمثابة رباط من رباطي حذائي؟ هل يمكن أن أصل إلى موقع عملنا في الوقت المناسب للانضمام إلى فريق العمل الذي اعتدتُ العمل معه أو هل عليّ أن أنضمّ إلى فريق آخر، فريق قد يكون رئيس عمّاله فظاً؟ ما الذي يمكن أن أفعله للحصول على علاقات جيّدة مع فرد الكابو، الذي يمكنه أن يساعدني في الحصول على عمل في المعسكر بدلاً من القيام بهذه المسيرة اليوميّة الطويلة الرّهيبه؟

لقد شعرت بالاشمئزاز من الوضع الذي جعلني مضطّراً، في كلّ يوم وكلّ ساعة، إلى ألا أفكر سوى في مثل هذه الأشياء التّافهة فقط. وقد

(42) - من منظور أبدي *sub specie aeternitatis*: باللاتينية في الأصل. وهو تعبير يصف ما هو صحيح عموماً وبشكل أبدي (المترجم).

أجبرت أفكاري على أن تنتقل إلى موضوع آخر. فجأة رأيت أنني أقف على منصّة في غرفة محاضرات جيّدة الإضاءة ودافئة وممتعة. وكان يجلس أمامي جمهور ينصت بانتباه على مقاعد منجدة مريحة. كنت ألقى محاضرة في علم نفس معسكر الاعتقال! كلّ ذلك الذي سبّب لي الشعور بالاضطهاد في تلك اللّحظة صار موضوعيًّا، يُرى ويوصّف من وجهة نظر علميّة محايدة. وبهذه الطّريقة نجحت بطريقة أو بأخرى في أن أسموّ فوق الموقف، فوق أشكال المعاناة في تلك اللّحظة، ورأيتها كما لو كانت قد حدثت بالفعل من الماضي. أصبحت ومشاكلي موضوعَ دراسة نفسيّة علميّة مثيرة للاهتمام أجريها بنفسِي. ماذا يقول سبينوزا في كتاب الأخلاق؟ - «إنّ المشاعر التي تسبّب المعاناة، لا تكون سببًا للمعاناة بمجرد أن نشكّل صورة واضحة ودقيقة لها»⁽⁴³⁾.

السّجين الذي فقد الثّقة في المستقبل - مستقبله - محكوم عليه بالفشل. مع فقدان إيمانه بالمستقبل، يكون قد فقد أيضًا قبضته الرّوحية. يكون قد ترك نفسه تتدهور وأصبح عرضة للاضمحلال العقليّ والجسديّ. عادة ما كان هذا يحدث بشكل مفاجئ تمامًا، على شكل أزمة، كانت أعراضها مألوفة لسجين المعسكر المتمرّس. انتابنا الخوف جميعًا من هذه اللّحظة - ليس من أجل أنفسنا التي كانت ستصبح بلا هدف، ولكن من أجل أصدقائنا. عادة ما يبدأ السّجين بأن يرفض ذات صباح أن يرتدي ملابسه

(43) - الجملة في الأصل باللاتينية *Affectus, qui passio est, desinit esse passio simulatque eius* ثم بالإنجليزية. والأخلاق *Ethics*: أطروحة فلسفية كتبها باللاتينية باروخ سبينوزا. وقد كتبت بين عام 1661 وعام 1675 ونشرت لأول مرة بعد وفاته في عام 1677 (المترجم).

وأن يغتسل أو يخرج إلى ساحة العرض. ولم يكن للتوسّل أو الضرب أو التهديد أيّ تأثير. كان يستلقي هناك فقط، ولا يتحرّك تقريبًا. وإذا كانت هذه الأزمة ناجمة عن مرض، كان يرفض أن يُؤخذ إلى العيادة أو يفعل أيّ شيء لمساعدة نفسه. كان يستسلم ببساطة. يبقى هناك، مستلقيًا في فضلاته، ولم يعد هناك ما يزعجه.

لقد حضرت ذات يوم عرضًا دراميًّا للعلاقة الوثيقة بين فقدان الثقة في المستقبل وهذا الاستسلام الخطير. في أحد الأيام باح لي «ف...»، كبير حراس جناحي، وهو ملحن وكاتب أوبرا مشهور تمامًا، قائلاً: «أودّ أن أخبرك بشيء يا دكتور. لقد حلمتُ حلمًا غريبًا. قال لي صوت إنني أستطيع أن أتمنى شيئًا، وإنه يجب أن أقول فقط ما كنت أريد أن أعرفه، وسوف يتم الردّ على جميع أسئلتني. عمّ تظنّ أنني سألتُ؟ إنني أودّ أن أعرف متى تنتهي الحرب بالنسبة إليّ. أنت تعرف ما أعنيه يا دكتور، بالنسبة إليّ! أردت أن أعرف متى نتحرّر، متى يتحرّر معسكرنا وتنتهي معاناتنا».

سألتُ: «ومتى حلمت بهذا الحلم؟»

أجاب: «في فبراير 1945». وكنا حينذاك في بداية مارس.

«بم أجاب الصّوت في حلمك؟»

همس لي بسرعة: «في الثلاثين من مارس».

حين حدّثني «ف...» عن حلمه، كان لا يزال مُفعمًا بالأمل وكان مقتنعًا بأنّ الصّوت الذي سمعه في حلمه سوف يتحقّق. ولكن مع

اقتراب اليوم الموعود، كانت أخبار الحرب التي وصلت إلى معسكرنا تدلّ على أنه من غير المرجح أن نكون أحرارًا في الموعد المنشود. في التاسع والعشرين من مارس، مرض «ف...» فجأة وارتفعت درجة حرارته. في الثلاثين من مارس، وهو اليوم الذي أخبرته فيه نبوءته بأن الحرب والمعاناة سوف تنتهيان بالنسبة إليه، دخل في حالة هذيان وفقد الوعي. في الحادي والثلاثين من مارس، مات. وقد مات بسبب التيفوس طبقًا لجميع الأعراض الخارجيّة.

إن أولئك الذين يعرفون مدى الصّلة الوثيقة بين الحالة الذهنيّة للإنسان - شجاعته وأمله، أو افتقاره إليهما - وحالة مناعة جسده، سوف يفهمون أنّ فقدان الأمل والشّجاعة بشكل مفاجئ يمكن أن يكون له تأثير مميّت. كان السّبب النهائيّ لوفاة صديقي هو أنّ التّحرير المتوقّع لم يأت وشعر بخيبة أمل شديدة. وأدّى هذا فجأة إلى انخفاض مقاومة جسده لعدوى التّيفوس الكامنة. وقد صار إيمانه بالمستقبل وإرادته في الحياة مشلولين، سقط جسده ضحية للمرض، وبالتالي كان صوت حلمه على حق رغم كلّ شيء.

إن ملاحظات هذه الحالة والاستنتاج المستخلص منها تتوافق مع شيء لفت انتباهي إليه كبير الأطباء في معسكر الاعتقال الذي كنا فيه. ارتفع معدّل الوفيات في الأسبوع بين عيد الميلاد عام 1944 ورأس السنة الجديدة عام 1945، في المعسكر بما يتجاوز جميع الخبرات السّابقة. وفي رأيه إنّ تفسير هذه الزيادة لا يكمن في ظروف العمل الأصعب أو تدهور إمداداتنا الغذائيّة أو تغيّر الطّقس أو الأوبئة الجديدة. كان الأمر

ببساطة أن غالبية السّجناء عاشوا على أمل ساذج بأنهم سوف يعودون إلى بيوتهم مرّة أخرى بحلول عيد الميلاد. ومع اقتراب الوقت وعدم وجود أخبار مشجّعة، كان السّجناء يفقدون شجاعتهم وتتغلب عليهم خيبة الأمل. كان لهذا تأثير خطير على قوى المقاومة في أجسادهم مما أدى إلى وفاة عدد كبير منهم.

كما قلنا من قبل، كان على أيّ محاولة لاستعادة القوّة الداخليّة للإنسان في المعسكر أن تنجح أولاً في الكشف عن بعض الأهداف المستقبلية له. يمكن أن تكون كلمات نيتشه: «من لديه سبب يعيش من أجله يتحمّل غالباً الحياة كيفما كانت»، شعاراً لجميع الجهود العلاجيّة والنفسية فيما يتعلّق بالسّجناء. كلما كانت هناك فرصة لذلك، كان على المرء أن يقدّم لهم سبباً - هدفاً - لحياتهم، من أجل تقويتهم لتحمل الكيفية الرهيبة لوجودهم. ويل لمن لم يعد يرى معنى في حياته أو هدفاً أو غاية، وبالتالي لا يكون هناك أيّ معنى في الاستمرار. سرعان ما كان يضيع. كان الردّ المعتاد الذي رفض به مثل هذا الإنسان كل الحجج المشجّعة هو «ليس لديّ ما أتوقّعه من الحياة بعد الآن». ما نوع الإجابة التي يمكن للمرء أن يردّها على هذا الكلام؟

كان المطلوب حقاً تغييرٌ جوهريٌّ في موقفنا تجاه الحياة. كان علينا أن نعلّم أنفسنا، وأن نعلّم الرّجال اليائسين، أنه لا يهمّ حقاً ما كنا نتوقّعه من الحياة، بل ما نتوقّعه الحياة منّا. كنّا في حاجة إلى التوقف عن التّساؤل عن معنى الحياة، وبدلاً من ذلك نفكّر في أنفسنا باعتبار أنّ الحياة تستجوبنا في كلّ يوم وكلّ ساعة. يجب أن تتكوّن إجابتنا، ليس في الحديث والتأمّل،

ولكن في العمل الصحيح والسلوك الصحيح. تعني الحياة في النهاية
تحمل المسؤولية للعثور على الإجابة الصحيحة لمشاكلها والوفاء بالمهام
التي تحددها باستمرار لكل فرد.

تختلف هذه المهام، وبالتالي يختلف معنى الحياة من إنسان إلى آخر،
ومن لحظة إلى أخرى. وبالتالي من المستحيل تحديد معنى الحياة بطريقة
عامة. لا يمكن أبداً الإجابة عن الأسئلة حول معنى الحياة من خلال
عبارات شاملة. إن «الحياة» لا تعني شيئاً غامضاً، ولكنها تعني شيئاً
حقيقياً وملموساً جداً، تماماً مثلما تكون مهام الحياة حقيقية وملموسة
جداً. إنها تشكل مصير الإنسان، وهو مصير مختلف وفريد بالنسبة إلى
كل فرد. لا يوجد إنسان أو مصير يمكن مقارنته مع أي إنسان آخر أو أي
مصير آخر. لا يوجد موقف يكرر نفسه، وكل موقف يستدعي استجابة
مختلفة. قد يتطلب الموقف الذي يجد فيه الإنسان نفسه أحياناً أن يشكّل
مصيره عن طريق الفعل. وفي أوقات أخرى، يكون من الأفضل له
الاستفادة من فرصة التأمل وإدراك كل ما هو مفيد بهذه الطريقة. وأحياناً
قد يُطلب من الإنسان ببساطة أن يقبل المصير وأن يحمل صليبه. وتتميز
كل حالة بتفردتها، وهناك دائماً إجابة واحدة صحيحة للمشكلة التي
يطرحها الموقف الحالي.

حين يجد إنسان أنّ مصيره أن يعاني، فعليه أن يقبل معاناته على أنّها
مهمته الفردية والفريدة. وسوف يكون عليه أن يعترف بحقيقة أنّه فريد
ووحيد في الكون حتى في معاناته. لا يمكن لأحد أن يخفف عنه معاناته
أو يعاني بدلاً منه. وفرصته الفريدة تكمن في الطريقة التي يتحمل بها

العبء الملقى على كاهله.

بالنسبة إلينا، نحن السّجناء، لم تكن هذه الأفكار تأملات بعيدة عن الواقع. فقد كانت الأفكار الوحيدة التي يمكن أن تساعدنا. لقد أنقذتنا من اليأس حتّى حين بدا أنّه لا توجد فرصة لأن نخرج من المعسكر على قيد الحياة. كنا قد تجاوزنا لفترة طويلة مرحلة التساؤل عن معنى الحياة، وهو بحث ساذج يفهم الحياة على أنّها تحقيق هدف ما من خلال الخلق النّشط لشيء له قيمة. بالنسبة إلينا، كان معنى الحياة يتضمّن الدورات الأوسع للحياة والموت، وللمعاناة والاحتضار.

بمجرّد أن تمّ الكشف عن معنى المعاناة لنا، رفضنا أن نهوّن أو نخفّف من عذابات المعسكر عن طريق تجاهلها أو اعتناق أوهام كاذبة بشأنها أو بالتفأول المصطنع. لقد صارت المعاناة مهمّة لا نريد أن ندير لها ظهورنا. لقد أدركنا الفرص الخفيّة للانهاك فيها، الفرص التي جعلت الشّاعر ريلكه يكتب: «كم هناك من المعاناة التي عليك أن تجتازها!»⁽⁴⁴⁾ كان ريلكه يتحدّث عن «اجتياز المعاناة» بينما كان الآخرون يتحدّثون عن «اجتياز العمل». كان هناك الكثير من المعاناة التي علينا اجتيازها. لذلك، كان من الضّروري مواجهة هذا القدر الكامل من المعاناة، في محاولة لإبقاء لحظات الضّعف والدموع المخجلة عند الحدّ الأدنى. ولكن لم تكن هناك حاجة إلى الخجل من الدموع، لأنّها كانت تشهد على أنّ الإنسان يتمتّع بأكبر قدر من الشّجاعة، شجاعة أن يعاني. ولم يدرك ذلك إلاّ عدد ضئيل جدًّا. ومن الواضح أنّ البعض اعترفوا أحيانًا بأنّهم بكوا،

(44) - البيت في الأصل بالألمانية *Wie viel ist aufzuleiden*. ثم الإنجليزية: ريلكه (1875 - 1826): الشاعر النمساوي الشهير (المترجم).

مثل الرفيق الذي أجاب عن سؤالي حول كيفية تجاوزه للوظيفة، بالاعتراف بأنه «قد تخلص منها بالبكاء».

كانت البدايات الهشة للعلاج النفسي أو الصحة النفسية، حين كانت ممكنة عمومًا في المعسكر، إما فردية أو جماعية بطبيعتها. وكثيرًا ما كانت محاولات العلاج النفسي الفردي نوعًا من أنواع «الإجراءات المنقذة للحياة». عادة ما كانت هذه الجهود معنية بالوقاية من الانتحار. كانت القواعد الصارمة جدًا في المعسكر تحظر أي جهد لإنقاذ إنسان حاول الانتحار. كان ممنوعًا، مثلًا، قطع الطريق على إنسان كان يحاول شنق نفسه. لذا كان من المهم منع حدوث هذه المحاولات.

أتذكر حالتين من حالات الانتحار المحتمل، وكانتا متشابهتين بشكل لافت للنظر. تحدّث الرجلان عن النية في الانتحار. استخدم كلاهما الحجّة النموذجية أنهما لم يكونا يتوقعان المزيد من الحياة. في كلتا الحالتين كان الأمر يتطلب جعلها يدرك أن الحياة لا تزال تتوقع شيئًا منها؛ كان هناك شيء متوقع منها في المستقبل. وقد وجدنا، في الواقع، أنه بالنسبة إلى أحدهما كان ابنه الذي كان يحبه بشدة وكان ينتظره في بلد أجنبي. وبالنسبة إلى الآخر كان ينتظره شيء، وليس شخصًا. كان هذا الرجل عالمًا وقد كتب سلسلة من الكتب التي لا تزال في حاجة إلى أن تكتمل. ولا يمكن لأي شخص أن يقوم بعمله، بالضبط كما أنه لا يمكن لأي شخص آخر أن يحل محل الأب في مشاعره تجاه ابنه.

هذا التميّز والتفرد الذي يميّز كل فرد ويعطي معنى لوجوده له تأثير على العمل الإبداعي بقدر ما له تأثير على الحبّ الإنساني. حين يتم إدراك

استحالة استبدال الشخص، فإنّ هذا الإدراك يسمح للمسؤوليّة التي يتحمّلها الإنسان من أجل وجوده واستمراريّته بالظهور بكل ثقلها. إنّ الإنسان الذي يصبح واعياً بالمسؤوليّة التي يتحمّلها تجاه إنسان يتظره بشغف، أو تجاه عمل لم يكتمل، لن يستطيع أن يتخلّص من حياته أبدًا. إنّهُ يعرف «سبب» وجوده، وغالبًا ما يكون قادرًا على تحمّله بأيّ «كيفية» كانت.

كانت فرص العلاج النفسيّ الجماعيّ محدودة طبعًا داخل المعسكر. كان تقديم المثال المناسب أكثر فعاليةً مما يمكن أن تكون عليه الكلمات. كان لدى كبير حرّاس الجناح الذي لم يكن يقف إلى جانب السّلطات، سلوكه العادل والمشجّع، ألف فرصة لممارسة تأثير أخلاقيّ بعيد المدى على أولئك الخاضعين لحكمه. إنّ التأثير المباشر للسلوك يكون دائمًا أكثر فعاليةً من تأثير الكلمات. ولكنّ الكلمة كانت فعّالة أيضًا في بعض الأحيان، حين زاد التقبّل العقليّ للوضع نتيجة بعض الظروف الخارجيّة. أتذكرّ حادثة حين كانت هناك مناسبة لإجراء علاج نفسيّ على نزلاء كوخ كامل، نتيجة شدة تقبّلهم للوضع بسبب حالة خارجيّة معيّنة.

لقد كان يوما سيئًا. في العرض، تمّ الإعلان عن عديد الأعمال التي سوف تعتبر، منذ ذلك الحين، تخریبية وبالتالي يعاقب من يقترفها بالموت شنقًا على الفور. وكان من بينها جرائم مثل قطع شرائط صغيرة من بطانياتنا القديمة (من أجل تحسين دعامات الكاحل) و«السّرقات» الصّغيرة جدًّا. قبل بضعة أيّام، اقتحم سجين يوشك على الموت جوعًا مخزن البطاطس كي يسرق بضعة أرطال من البطاطس. تمّ اكتشاف

السَّرقة وعرف بعض السَّجناء «السَّارق». حين سمعت سلطات المعسكر بالأمر، أمرت بتسليم الرّجل المذنب إليهم وإلاّ فإنّ المعسكر كلّهُ سوف يحرم من الطّعام ليوم. طبعاً، فضّل 2500 رجل أن يصوموا.

في مساء ذلك اليوم، يوم الصّيام، كنا نرقد في أكواخنا القذرة، في حالة مزاجيّة سيّئة للغاية. قيل القليل جدّاً وكانت كلّ كلمة تنمّ عن توتّر. ثمّ انطفأ النّور مما جعل الأمور أسوأ. ووصلت الحالة المزاجيّة إلى أدنى مستوى. لكن حارس الجناح كان رجلاً حكيمًا. ارتجل كلمة قصيرة عن كلّ ما كان يدور في أذهاننا في تلك اللّحظة. تحدّث عن عديد الرّفاق الذين ماتوا في الأيام القليلة الماضية، إمّا بسبب المرض أو الانتحار. ولكنّه ذكر أيضًا ما قد يكون السّبب الحقيقي وراء وفياتهم: التخلّي عن الأمل. وواصل قائلاً إنّّه يجب أن تكون هناك طريقة ما لمنع الضّحايا المحتملين في المستقبل من الوصول إلى مثل هذه الحالة المتطرّفة. وكنتُ من أشار إليه الحارس لتقديم هذه النّصيحة.

يعلم الرّب، لم أكن في حالة مزاجيّة تسمح لي بتقديم تفسيرات نفسيّة أو للتبشير بأيّ عظات، كي أقدم لرفاقي نوعًا من الرّعاية الطّبية لأرواحهم. كنت أشعر بالبرد والجوع والتوتّر والتعب، ولكنّ كان لا بدّ أن أبذل الجهد وأستغلّ هذه الفرصة الفريدة. أصبح التّشجيع الآن أكثر ضرورة من أيّ وقت مضى.

لذا بدأت أوّلاً بذكر أكثر وسائل الرّاحة تفاهة. قلت إنّّه حتّى في أوروبا هذه في الشّتاء السّادس من الحرب العالميّة الثّانية، فإنّ وضعنا لم يكن أفظع وضع كان يمكن أن نفكر فيه. قلت إنّّه على كلّ منّا أن يسأل

نفسه عن الخسائر التي تكبدها ولا يمكن تعويضها الآن. لقد تخّنت في أنّ هذه الخسائر بالنسبة إلى معظمهم كانت قليلة حقًا. كلّ من كان على قيد الحياة كان لديه سبب يبعث على الأمل. الصّحة والأسرة والسّعادة والقدرات المهنيّة والثروة والمكانة في المجتمع. كلّ هذه الأشياء يمكن تحقيقها مرّة أخرى أو استعادتها. ورغم كلّ شيء، مازالت كلّ عظامنا سليمة. كلّ ما مررنا به يمكن أن يكون مصدر قوّة لنا في المستقبل. وقد اقتبست من نيتشه: «ما لا يقتلني يزيدني قوّة».⁽⁴⁵⁾

وبعد ذلك تحدّثت عن المستقبل. قلت إنّهُ بالنسبة إلى من ينظر نظرة موضوعيّة لا بدّ أنّ المستقبل يبدو ميؤوسًا منه. وافقت على أنّ كلّ واحد منا يمكن أن يخمّن لنفسه في مدى ضآلة فرصه في البقاء على قيد الحياة. قلتُ لهم إنّهُ رغم عدم وجود وباء التّيفوس في المعسكر، إلّا أنّني قدّرت فرصي بواحد على عشرين تقريبًا. لكنني قلتُ لهم أيضًا إنّهُ رغم ذلك، لم يكن لديّ أيّ نيّة لفقدان الأمل والاستسلام. لأنّه لا أحد يعرف ما سوف يجلبه المستقبل، ناهيك عن السّاعة القادمة. حتّى لو لم نكن نتوقّع أيّ أحداث عسكريّة مثيرة في الأيام القليلة المقبلة، من يعرف أكثر منا، من خلال خبرتنا في المعسكرات، مدى الفرص الكبيرة التي تسنح في بعض الأحيان، فجأة، على الأقلّ بالنسبة إلى الفرد. مثلاً، قد يكون المرء مرتبطًا بشكل غير متوقّع بمجموعة خاصّة تكون ظروف عملها جيّدة بشكل استثنائيّ، لأنّ هذا النوع من الأشياء هو الذي كان يشكّل «حظّ» السّجين.

(45) - الاقتباس في الأصل بالألمانية *Was mich nicht umbringt, macht mich stärker*، ثم بالإنجليزية (المترجم): والمقولة من كتاب "غسق الأوثان"، في هامش سابق للمترجم؛ ونص المقولة كاملاً: "عن المدرسة الحربية في الحياة، ما لا يقتلني يزيدني قوّة" (المترجم).

لكنني لم أتحدّث فقط عن المستقبل والحجاب الذي أسدل عليه. لقد ذكرت الماضي أيضًا؛ بكلّ أفراحه، وكيف كان نوره يشرق حتّى في الظلام الحاليّ. مرّة أخرى اقتبست عن شاعر - كي أتجنّب أن أبدو مثل واعظ - كتب: «لا يمكن لأيّ قوّة على الأرض أن تسلبك خبرتك»⁽⁴⁶⁾. ليس فقط خبراتنا، ولكن كلّ ما قمنا به، مهما كانت الأفكار الرّائعة التي لدينا، وكلّ ما عانينا منه، كلّ هذا لم نفقده، رغم أنّه ماضٍ؛ لقد جلبناه إلى الوجود. وكان لدينا أيضًا نوع من الوجود، وربما النوع الأكثر تأكيدًا.

ثم تحدّثت عن الفرص العديدة لإعطاء معنى للحياة. قلتُ لرفاقي (الذين يرقدون بلا حراك، رغم أنّه يمكن سماع التنهّد في بعض الأحيان) إنّ حياة الإنسان لا تتوقّف أبدًا عن أن يكون لها معنى تحت أيّ ظرف، وإنّ هذا المعنى اللّامتناهي للحياة يشمل المعاناة والاحتضار والحرمان والموت. سألت الخلق البائسين الذين استمعوت لي بانتباه في ظلمة الكوخ أن ينظروا إلى خطورة موقفنا. ويجب ألاّ يفقدوا الأمل بل يجب أن يحافظوا على شجاعتهم باليقين بأنّ اليأس في نضالنا لم ينتقص من نبل نضالنا ومعناه. قلتُ إنّ شخصًا ما ينظر إلى كلّ واحد منّا في ساعات صعبة - صديق أو زوجة أو شخص على قيد الحياة أو ميّت أو إله - ولا يتوقّع أن نخيّب آماله. إنّّه يأمل في أن يجدنا نعاني بفخر - وليس ببؤس - حين يعرف كيف نموت.

وأخيرًا تحدّثت عن توضحياتنا التي كان لها معنى في كلّ حالة. كان من طبيعة هذه التّضحية أن تبدو عديمة الجدوى في العالم العاديّ، عالم

(46) - الاقتباس في الأصل بالألمانية *Was Du erlebst, kann keine Macht der Welt Dir rauben*. ثم بالإنجليزية: ولم أتمكن من معرفة المصدر الأصلي الذي اقتبس منه فيكتور فرانكل (المترجم).

النجاح المادي. لكنّ تضحياتنا كان لها معنى في الحقيقة. وقلت بصراحة إنّ من لديهم من بيننا أيّ إيمان ديني، يمكن أن يفهموا ذلك دون صعوبة. أخبرتهم عن رفيق حاول لدى وصوله إلى المعسكر أن يعقد اتفاقاً مع السّماء بأنّ معاناته وموته ينبغي أن ينقذا الإنسان الذي كان يجبه من نهاية مؤلمة. بالنّسبة إلى هذا الرجل، كان هناك معنى للمعاناة والموت؛ كانت لتضحيته أهميّة بالغة العمق. لم يكن يريد أن يموت دون مقابل. لا أحد منا كان يريد ذلك.

كان الغرض من كلماتي هو إيجاد معنى كامل في حياتنا على الفور، في هذا الكوخ وفي هذا الوضع الذي يدعو إلى اليأس عملياً. رأيت أنّ جهوداتي كانت ناجحة. حين أضاء المصباح الكهربائيّ مرّة أخرى، رأيت الأشباح الباهتة لأصدقائي يعرجون باتجاهي ليشكروني والدموع في عيونهم. ولكن لا بدّ من الاعتراف هنا إنّني نادراً ما كنتُ أتمتّع بالقوّة الداخليّة للقيام بالاتّصال برفاقي في المعاناة وقد فاتتني فرص عديدة للقيام بذلك.

نأتي الآن إلى المرحلة الثالثة من ردود الفعل العقليّة التي يمرّ بها السّجين: أي نفسيّة السّجين بعد تحرّره. ولكن قبل ذلك سوف ننظر في سؤال يطرحه المتخصّص في علم النفس بشكل متكرّر، خاصّة حين يكون على معرفة شخصيّة بهذه الأمور: ماذا يمكنك أن تخبرنا عن التّكوين النفسيّ لحراس المعسكر؟ كيف يمكن لرجال من لحم ودم أن يعاملوا الآخرين بالطريقة التي يحكي عنها عدد كبير من السّجناء الذين خضعوا للعلاج؟ بعد أن سمعت هذه الروايات ذات مرّة، وبعد أن

صَدَقْتُ أن هذه الأشياء قد حدثت، لا بدّ للمرء أن يتساءل عن كيفية حدوثها من الناحية النفسية. للإجابة عن هذا السؤال دون الخوض في تفاصيل كثيرة، لا بدّ من الإشارة إلى بعض الأمور:

أولاً، بين الحراس كان هناك بعض السّاديين بأوضح معنى إكلينيكيّ. ثانياً، تمّ اختيار هؤلاء السّاديين دائماً حين كان الأمر يتطلب سرّيّة صارمة من الحراس حقاً.

كان هناك فرح كبير في موقع عملنا حين حصلنا على إذن لتدفئة أنفسنا لبضع دقائق (بعد ساعتين من العمل في الصّقيع القارس) أمام موقد صغير تمت تلقيمه بأغصان وبقايا قطع من الخشب. ولكنّ كان هناك دائماً بعض رؤساء العمّال الذين كانوا يجدون متعة كبيرة في سلب هذا الإحساس بالراحة منا. وكم كان من الواضح أنّ وجوههم تعكس هذه المتعة حين كانوا لا يكتفون بمنعنا فقط من الوقوف هناك بل كانوا يقلّبون الموقد ويلقون بنيرانه الرّائعة في الجليد! حين كان حارس الأمن الخاصّ يكره شخصاً، كان هناك دائماً رجل مميّز في صفوفهم معروف بأنّ لديه شغفاً بالتعذيب السّاديّ وأنّه متخصص فيه بشكل كبير، ويتمّ إرسال السّجين سيّء الحظّ إليه.

ثالثاً، خفتت مشاعر غالبية الحراس طبقاً لعدد السنوات التي شهدت باستمرار جرعات متزايدة من الأساليب الوحشية في المعسكر. هؤلاء الرّجال الأقوياء أخلاقياً وعقليّاً رفضوا على الأقلّ المشاركة بشكل نشط في التدابير السّادية. لكنهم لم يمنعوا الآخرين من اقترافها.

رابعاً، يجب أن نذكر أنّه حتّى بين الحراس كان هناك بعض الذين

أشفقوا علينا. سوف أذكر فقط قائد المعسكر الذي تحررت منه. وقد وجدنا بعد التحرر - ولم يكن يعرف ذلك إلا طبيب المعسكر، وكان هو نفسه سجينًا، مسبقًا - أن هذا الرجل لم يدفع مبلغًا صغيرًا من المال من جيبه لشراء الأدوية لسجنائه من أقرب بلدة بها سوق⁽⁴⁷⁾. لكنّ كبير حراس المعسكر، وهو نفسه سجين، كان أصعب من أيّ من حارس من حراس قوّات الأمن الخاصّ. كان يضرب السّجناء الآخرين في كلّ فرصة، بينما لم يرفع قائد المعسكر، على حدّ علمي، يده مرّة واحدة على أيّ شخص منّا.

من الواضح أنّ مجرد أنّ نعرف أنّ الرجل كان حارسًا في المعسكر أو سجينًا فيه لا يدلّنا على أيّ شيء تقريبًا. يمكن العثور على العطف الإنسانيّ في كلّ الجماعات، حتّى تلك التي قد ندينها بسهولة على وجه العموم. تداخلت الحدود بين الجماعات ويجب ألاّ نحاول تبسيط الأمور بالقول إنّ هؤلاء النّاس كانوا ملائكة وأولئك النّاس كانوا شياطين. من المؤكّد أنّه كان إنجازًا كبيرًا أن يكون الحارس أو رئيس العمّال لطيفًا مع السّجناء رغم كلّ التّأثيرات في المعسكر، ومن ناحية أخرى، كان السّجين

(47) - هناك حادث مثير للاهتمام فيما يتعلق بقائد قوات الأمن الخاص هذا يتعلق بالموقف تجاهه من بعض سجنائه اليهود. في نهاية الحرب حين قامت القوات الأمريكية بتحرير الأسرى من معسكرنا، قام ثلاثة من اليهود المجريين الشباب بإخفاء هذا القائد في الغابة البافارية. ثم ذهبوا إلى قائد القوات الأمريكية الذي كان حريصًا جدًّا على إلقاء القبض على قائد قوات الأمن الخاص وقالوا إنهم سوف يخبرونه بمكانه ولكن فقط بشروط معينة: يجب على القائد الأمريكي أن يعد بأنه لن يسبب أي ضرر على الإطلاق لهذا الرجل. بعد فترة، وعد الضابط الأمريكي أخيرًا هؤلاء الشباب اليهود بأن قائد قوات الأمن الخاص عند احتجازه لن يتعرض لأي أذى. لم يقم الضابط الأمريكي فقط بالوفاء بوعدده، ولكن في الواقع، بمعنى ما تمت إعادة هذا القائد السابق من قوات الأمن الخاص لمعسكر الاعتقال هذا إلى قيادته. لأنه أشرف على جمع الملابس بين القرى البافارية المجاورة، وتوزيعها على كل الذين كانوا في ذلك الوقت لا يزالون يرتدون الملابس التي ورثناها من السجناء الآخرين في معسكر أوشفيتز الذين لم يكونوا محظوظين مثلنا، حيث تم إرسالهم إلى غرفة الغاز فور وصولهم إلى محطة السكك الحديدية (المؤلف).

المنحط الذي يعامل رفاقه بشكل سيئ يحتقر احتقارًا استثنائيًا. من الواضح أنّ السّجناء وجدوا أن انعدام الشخصية لدى هؤلاء الرّجال كان أمرًا مزعجًا للغاية، في حين أنّهم تأثروا بشدّة من أقلّ قدر من العطف تلقّوه من أيّ حارس من الحراس. أتذكر كيف أعطاني رئيس العمال يومًا ما قطعة من الخبز بشكل سرّي وكنت أعلم أنه لا بدّ أن يكون قد ادخرها من حصّته في الإفطار. كانت تلك القطعة أكثر بكثير من مجرد قطعة صغيرة من الخبز مما دفعني إلى البكاء في ذلك الوقت. لقد كانت «شيئًا» إنسانيًا منحني إياه هذا الرّجل في الكلمة والنّظرة اللّتين صاحبتا الهدية.

قد نتعلّم من كلّ هذا أنّ هناك جنسين من البشر في هذا العالم، لكنّهما فقط - «جنس» الإنسان المهذب و«جنس» الإنسان البذيء. والجنسان كلاهما موجودان في كلّ مكان؛ إنّهما يتغلغلان في كلّ فئات المجتمع. لا تتكوّن أيّ مجموعة من أشخاص محترمين جميعًا أو من أشخاص بذيئين جميعًا. وبهذا المعنى، لا توجد مجموعة من «جنس خالص»، وبالتالي وجد المرء أحيانًا رفيقًا مهذبًا بين حراس المعسكر.

إنّ الحياة في معسكر من معسكرات الاعتقال كانت تمزّق روح الإنسان وتكشف أعماقها. هل من المدهش أن نجد في تلك الأعماق مرّة أخرى صفات بشريّة فقط كانت في طبيعتها مزيجًا من الخير والشرّ؟ إن الصّدع الذي يفصل الخير عن الشرّ الذي يمرّ عبر جميع البشر، يصل إلى أدنى الأعماق ويصبح واضحًا حتّى في قاع الهاوية التي يفتحها معسكر الاعتقال على مصراعيها.

والآن إلى الفصل الأخير في علم نفس معسكر اعتقال نفسيّة السّجين الذي تمّ الإفراج عنه. في وصف خبرات التّحرّر التي ينبغي أن تكون شخصيّة طبعاً، يجب أن نلتقط خيوط ذلك الجزء من أحداث ذلك الصّباح الذي تمّ فيه رفع العلم الأبيض فوق أبواب المعسكر بعد أيام من التّوتر الشّديد. وأعقب هذه الحالة من التّشويق الدّاخلي حالة استرخاء تامّ. ولكن قد يكون من الخطأ الاعتقاد بأنّه قد جنّ جنوننا من الفرح. ماذا حدث إذن؟

بخطوات متعبة جرّزنا أقدامنا نحن السّجناء إلى بوابات المعسكر. بوجل نظرنا حولنا وإلى بعضنا بعضاً نظرات مليئة بالشّك. ثم غامرنا بالخروج بضع خطوات خارج المعسكر. هذه المرّة لم يصرخ فينا أحد بالأوامر، ولم تكن هناك حاجة إلى أن نزوغ بسرعة لتجنّب ضربة أو ركلة. أوه لا! هذه المرّة قدم لنا الحراس السّجائر! فلم نكد نتعرّف عليهم؛ كانوا قد غيّروا ملابسهم وارتدوا ملابس مدنيّة. سرنا ببطء على طول الطّريق الممتدّ من المعسكر. سرعان ما شعرنا بالألم في أرجلنا التي كادت تخذلنا. لكننا واصلنا ونحن نعرج عليها. كنّا نريد أن نرى ما يحيط بالمعسكر لأوّل مرّة بأعين أناس أحرار. «الحرّيّة» - كرّرنا الكلمة لأنفسنا، ومع ذلك لم نتمكن من فهمها. لقد نطقنا بهذه الكلمة مراراً طوال كلّ هذه السّنوات التي حلمنا فيها بالحرّيّة حتى فقدت معناها. لم تتغلغل حقيقتها في وعينا. لم نتمكن من إدراك حقيقة أن الحرّيّة كانت حرّيتنا.

وصلنا إلى مروج مليئة بالزهور. رأيناها وأدركنا أنّها كانت هناك،

لكن لم نحس بأيّ مشاعر تجاهها. وقد جاءت أولى شرارات البهجة حين رأينا ديكًا له ذيل من الريش متعدّد الألوان. لكنها بقيت مجرد شرارة؛ لم نكن ننتهي بعد إلى هذا العالم.

في المساء حين التقينا جميعًا مرّة أخرى في كوخنا، قال شخص ما سرًّا لشخص آخر، «قل لي، هل كنت سعيدًا هذا اليوم؟»

وردّ الآخر، وقد شعر بالخجل لأنّه لم يكن يعرف أنّنا جميعًا أحسننا بما شعر به، «بصدق، لا!» لقد فقدنا القدرة تمامًا على الشعور بالسعادة وكان علينا أن نتعلّم هذا الشعور مرّة أخرى ببطء.

من الناحية النفسيّة، يمكن أن يسمّى ما كان يحدث للسجناء المحرّرين «تبدّد الشخصية»⁽⁴⁸⁾. بدا كلّ شيء غير واقعيّ، غير محتمل، كما يبدو في حلم. لم نستطع أن نصدّق أن ما حدث كان حقيقيًّا. كثيرًا ما خدعتنا الأحلام في السّنوات الماضية! كنّا نحلم بأنّ يوم التّحرير جاء، وقد تمّ إطلاق سراحنا وعدنا إلى الوطن ورحب بنا أصدقاؤنا واحتضنا زوجاتنا وجلسنا إلى الطاولة وبدأنا نحكي عن كلّ الأشياء التي مررنا بها - حتّى عن أنّنا كثيرًا ما رأينا يوم التّحرر في أحلامنا. وبعد ذلك - تنطلق صافرة مدويّة في آذاننا، إشارة إلى النهوض، وتنتهي أحلامنا في الحرّية. والآن وقد تحقّق الحلم. ولكن هل يمكن أن نصدّق حقًا أنّه تحقّق؟ إنّ العوامل التي تثبط الجسم أقلّ من تلك التي تثبط العقل. لقد استفاد

(48) - تبدد الشخصية depersonalization: يمكن تعريفه باختصار بأنه اضطراب يشعر فيه المرء بأنه لم يعد هنا. وأنه منفصل عن نفسه. وينظر إليها كما لو كان ينظر إلى شخص آخر: وكثيرًا ما يرتبط بما يعرف بتبدد الواقع derealization. حيث يشعر المرء بأن المحيط الذي يعيش فيه لم يعد كما كان (المترجم).

الجسد بشكل جيد من الحرّية الجديدة منذ اللحظة الأولى. لقد بدأ يأكل بشراهة لساعات وأيام، حتى في منتصف الليل. إنه لأمر مدهش أن يعرف المرء كمّيات الطّعام التي يمكن أن يأكلها. وحين وجّه مزارع ودود في حيّ مجاور الدّعوة إلى أحد السّجناء، كان السّجين يأكل ويأكل ثمّ يشرب القهوة، ممّا أطلق لسانه، ثم شرع في التّحدث، لساعات غالبًا. أخيرًا انطلق الضّغط الذي كان في ذهنه لسنوات. عند سماعه يتحدّث، يتكون انطباع لدى المرء بأنّه مضطرّ إلى التّحدّث، وأن رغبته في الكلام لا تقاوم. وقد عرفتُ أنّ الأشخاص الذين تعرّضوا لضغط شديد لفترة قصيرة فقط (مثلاً، من خلال استجواب دقيق من قبل الجستابو) كانت لديهم ردود فعل مماثلة. مرّت عدّة أيّام، إلى أن انطلق اللّسان، ولم ينطلق وحده فحسب، بل انطلق أيضًا شيء ما من داخل نفس المرء؛ ثمّ شعر فجأة بالتحرّر من الأغلال الغريبة التي كانت تقيده.

في أحد الأيّام، بعد أيّام قليلة من التّحرّر، مشيت في الرّيف ومررتُ بالمروج المزهرة أميالًا، نحو سوق البلدة القريبة من المعسكر. صعدت القبّرات إلى السّماء واستطعت أن أسمع أغنيّتها المبهجة. وعلى مدى أميال لم يكن هناك أحد يمكن رؤيته بالقرب مني. لم يكن هناك سوى الأرض الواسعة والسّماء وابتهاج القبّرات والفضاء الحرّ. توقّفت ونظرت حولي وإلى السّماء، ثمّ جثوت على ركبتيّ. في تلك اللّحظة لم أكن أعرف سوى القليل عن نفسي أو عن العالم - كانت هناك جملة واحدة فقط في ذهني - الجملة نفسها دائمًا: «مِنَ الضّيقِ دَعَوْتُ الرَّبَّ فَأَجَابَنِي

لم تعد الذاكرة تستطيع أن تستعيدَ كم من الوقت ركعت هناك وكرّرت هذه الجملة. لكنني أعلم أن حياتي الجديدة بدأت في ذلك اليوم، وفي تلك الساعة. خطوة خطوة تقدّمت حتى أصبحت إنساناً مرة أخرى.

من المؤكّد أن الطّريق الذي كان يمتدّ من التّوتر العقليّ الحادّ في الأيام الأخيرة في المعسكر (من حرب الأعصاب إلى السّلام العقليّ) لم يكن يخلو من العقبات. قد يكون من الخطأ الاعتقاد بأنّ السّجين الذي تحرّر لم يعد في حاجة إلى رعاية روحية. علينا أن نعتبر أنّ الإنسان الذي تعرّض لمثل هذا الضّغط النفسيّ الهائل لمثل هذه الفترة الطويلة يبقى في خطر بشكل طبيعيّ بعد تحرّره، خاصّة حين يتمّ التحرّر من الضّغط فجأة. هذا الخطر (في ما يتعلّق بالصّحة النفسيّة) هو النّظير النفسيّ للالتواء. تمامًا كما قد تعرّض الصّحة الجسديّة لعامل يعمل في غوّاصة للخطر إذا غادر غرفة الغوّاصين فجأة (حيث يتعرّض لضغط جويّ هائل)، هكذا يمكن للإنسان الذي تحرّر فجأة من الضّغط العقليّ أن يعاني من تلف في صحّته المعنويّة والروحيّة.

في هذه المرحلة النفسيّة، لاحظ المرء أنّ الأشخاص ذوي الطّبيعة الأكثر بدائيّة لا يمكنهم الهروب من التّأثيرات الوحشيّة التي أحاطت بهم في حياة المعسكر. كانوا يعتقدون الآن، وهم أحرار، أنّ بإمكانهم استخدام حرّيتهم بفجور وبلا رحمة. الشّيء الوحيد الذي تغيّر بالنّسبة

(49) - الاقتباس من المزامير، 118 - 5؛ والترجمة عن الترجمة العربية للكتاب المقدس (المترجم).

إليهم هو أنهم الآن ظالمون بدل أن يكونوا مظلومين. لقد أصبحوا محرضين على القوة والظلم المتعمدين وليسوا خاضعين لها. وقد برروا سلوكهم بخبراتهم الرهيبة. وكثيراً ما تمّ الكشف عن هذا في أحداث غير مهمة على ما يبدو. كان أحد أصدقائي يسير عبر حقل معي نحو المعسكر حين وصلنا فجأة إلى حقل به محاصيل خضراء. تجنّب الحقل بشكل تلقائي، لكنه مدّ ذراعه إلى ذراعي وجرتني عبر الحقل. وقد تمتتُ بشيء ما حول عدم السير على المحاصيل الصغيرة. انزعج، ونظر إليّ نظرة غاضبة وصاح: «لا تقل ذلك! هل ما سلب منا لا يكفي؟ ماتت زوجتي وطفلي في أفران الغاز - ناهيك عن أيّ شيء آخر - وتمنعني من السير على بضع سيقان من الشوفان!»

كان يمكن فقط إرشاد هؤلاء الرّجال مرة أخرى ببطء إلى الحقيقة الشّائعة التي تقول بأنّه لا يحقّ لأحد أن يخطئ، حتّى لو ارتكب ضده خطأ. كان علينا أن نسعى جاهدين لإرشادهم مرّة أخرى إلى هذه الحقيقة، وإلاّ فإنّ العواقب سوف تكون أسوأ بكثير من فقدان بضعة آلاف من سيقان الشّوفان. مازلت أستطيع أن أرى السّجين الذي طوى كُمّي قميصه، ودفع يده اليمنى تحت أنفي وصاح: «لُتُطَع هذه اليد إذا لم أصبغها بالدمّ في اليوم الذي أعود فيه إلى البيت!» أريد أن أوكد أنّ الرّجل الذي قال هذه الكلمات لم يكن زميلاً سيّئاً. لقد كان أفضل الرّفاق في المعسكر وبعد ذلك.

بصرف النظر عن التّشوّه الخلقّي الناتج عن التّخلّص المفاجئ من الضّغط العقليّ، كانت هناك خبرتان أساسيتان أخريان تهددان بإلحاق

الضّرر بشخصيّة السّجين المحرّر: المرارة وخيبة الأمل حين عاد إلى حياته السابقة.

كانت المرارة نتيجة لعدد من الأمور التي واجهها السّجين في موطنه الأصليّ السابق. حين وجد إنسان، لدى عودته، أنّه لم يقابل في أماكن كثيرة إلاّ بهزّ الكتفين وبعبارات مبتذلة، كان يميل إلى الشعور بالمرارة ويسأل نفسه لماذا مرّ بكلّ ما مرّ به. حين كان يسمع العبارات نفسها في كلّ مكان تقريبًا - «لم نكن نعرف ذلك»، وقد «عانينا نحن أيضًا»، وبعد ذلك كان يسأل نفسه: أليس لديهم كلام أفضل يقولونه لي؟

إنّ خبرة خيبة الأمل مختلفة. لم يكن الأمر هنا مرتبطًا بواحد من الزملاء (الذين كانت سطحيّتهم وانعدام شعورهم مثيرين للاشمئزاز إلى درجة أنّ المرء شعر في النهاية وكأنّه يزحف إلى حفرة ويكفّ عن سماع البشر ورؤيتهم بعد ذلك) بل بالقدر نفسه الذي بدا قاسيًا للغاية. الإنسان الذي اعتقد لسنوات أنّه وصل إلى الحدّ الأقصى لكلّ أشكال المعاناة الممكنة، وجد الآن أنّ المعاناة لا حدود لها، وأنّه يمكن أن يعاني أكثر وأكثر، وبأكثر حدّة.

حين تحدّثنا عن محاولات منح إنسان في معسكر شجاعة عقليّة، قلنا إنّ لا بدّ من الكشف عن شيء ما يتطلّع إليه في المستقبل. كان لا بدّ من أن نذكّره بأنّ الحياة لا تزال في انتظاره، وأنّ هناك إنسانًا ينتظر عودته. لكن بعد التحرّر؟ كان هناك بعض الناس الذين لم يجدوا أيّ أحد في انتظارهم. ويل لمن وجد أنّ الشخص الذي منحته ذكراه وحدها الشجاعة في المعسكر لم يعد موجودًا! ويل لمن وجد، حين جاء يوم تحقيق

أحلامه في النهاية، أن الأمر مختلف تمامًا عن كل ما كان يشاق إليه! ربها استقلّ ترولي، وسافر إلى البيت الذي رآه لسنوات في ذهنه، وفي ذهنه فقط، وضغط على الجرس، تمامًا كما كان يتوق في آلاف الأحلام، فقط ليجد أن الشخص الذي كان يجب أن يفتح له الباب لم يكن هناك، ولن يكون هناك مرة أخرى.

قلنا لبعضنا بعضا في المعسكر إنه لا يمكن أن تكون هناك سعادة أرضية يمكن أن تعوّضنا عن كل ما عانينا منه. لم نكن نأمل في السعادة، فلم تكن هي التي أعطتنا الشجاعة وأعطتنا معنى لمعاناتنا وتضحياتنا وموتنا. ومع ذلك لم نكن على استعداد لاستقبال التعاسة. كانت خيبة الأمل هذه التي لم تكن تنتظر عددًا صغيرًا من السجناء، خبرة وجد هولاء الرجال صعوبة بالغة في تجاوزها، وبالنسبة إلى الطبيب النفسي، كان من الصعب جدًا مساعدتهم في التغلب عليها. ولكن هذا لا ينبغي أن يمثل تشييطًا له؛ على العكس من ذلك، ينبغي أن يوفر له حافزًا إضافيًا.

ولكن بالنسبة إلى كل واحد من السجناء المحرّرين، يأتي اليوم الذي لم يعد قادرًا فيه على فهم كيف تحمل هذا كله، بالنظر إلى تجارب معسكره. حين جاء يوم تحرّره في نهاية المطاف، حين بدا له كل شيء وكأنه حلم جميل، كذلك يأتي اليوم الذي يبدو فيه أن جميع خبراته في المعسكر لا تبدو له سوى كابوس.

وقمة كل الخبرات، بالنسبة إلى الشخص العائد إلى بيته، هي الشعور الرائع أنه بعد كل ما عانى، لم يعد هناك ما يحتاج إلى أن يخاف منه - إلا إلهه.

الجزء الثاني

العلاج بالمعنى

<https://t.me/Mamlukbooks>

العلاج بالمعنى

«باختصار» (50)

عادةً ما يطلب مني قراء قصتي القصيرة عن السيرة الذاتية شرحًا أكثر شمولًا ومباشرة لمذهبي العلاجي. وبناءً على ذلك، أضفت قسمًا موجزًا عن العلاج بالمعنى إلى النسخة الأصلية من كتابي من معسكر الموت إلى الوجودية. لكن ذلك لم يكن كافيًا، وقد حُوصرتُ بطلبات من أجل معالجة أكثر توسعًا. لذا قمتُ، في الطبعة الحالية، بإعادة كتابة كاملة لتعليقي وتوسيعه إلى حد كبير.

ولم تكن المهمة سهلة. لأن القيام بنقل جميع المواد التي احتاجت إلى عشرين مجلدًا باللغة الألمانية، إلى القارئ في مساحة قصيرة مهمة تكاد تكون مستحيلة. أتذكر الطبيب الأمريكي الذي زارني ذات مرة في مكثبي في فيينا وسألني: «يا دكتور، هل أنت الآن محلل نفسي؟» وحين أجبتُ: «لستُ مجرد محلل نفسي؛ لنقل إنني معالج نفسي». ثم استمر في استجوابي: «ما المدرسة التي تنتمي إليها؟» أجبتُ: «إنها نظريتي الخاصة. يطلق عليه اسم العلاج بالمعنى». فسألني: «هل يمكنك أن تخبرني في جملة

(50) - ظهر هذا الجزء. الذي تم تنقيحه وتحديثه. لأول مرة باسم "المفاهيم الأساسية للعلاج بالمعنى" في طبعة عام 1962 من كتاب الإنسان والبحث عن معنى (المؤلف).

واحدة ما المقصود بالعلاج بالمعنى؟ على الأقل، ما الفرق بين التحليل النفسي والعلاج بالمعنى؟» قلت: «نعم، ولكن في البداية، هل يمكنك أن تخبرني في جملة واحدة عن رأيك في جوهر التحليل النفسي؟» وكان هذا جوابه: «في أثناء التحليل النفسي، على المريض أن يستلقي على أريكة ويخبرك بأشياء تكون أحياناً مزعجة للغاية». ومن ثمّ قمت على الفور بالردّ عليه بحسم بارتجال الإجابة التالية: «الآن، في العلاج بالمعنى، قد يظلّ المريض جالساً منتصباً ولكن لا بدّ أن يسمع أشياء يكون سماعها أحياناً مزعجاً جداً».

بالطبع، كان المقصود أن يكون هذا الردّ رداً طريفاً ولا يكون على هيئة نسخة موجزة جداً من العلاج بالمعنى. ومع ذلك، بقدر ما يكون العلاج بالمعنى طريقة أقلّ استرجاعية وأقلّ استبطاناً⁽⁵¹⁾. فإنّ فيه شيئاً ما من التحليل النفسي، يُركّز العلاج بالمعنى بدلاً من ذلك على النظر إلى المستقبل، أي على المعاني التي على المريض أن يحققها في مستقبله. (إنّ العلاج بالمعنى، في الواقع، علاج نفسيّ يركّز على المعنى.) وفي الوقت نفسه، يلغي العلاج بالمعنى بؤر كلّ تكوينات الحلقة المفرغة وآليات التغذية الاسترجاعية التي تلعب دوراً كبيراً في تطوّر الاضطرابات العصابية. وهكذا يتمّ تفكيك التمرکز الذاتي النموذجي في العصاب بدلاً من أن يتمّ تعزيزه وتقويته باستمرار.

من المؤكّد أنّ هذا النوع من التصريحات يمثل تبسيطاً مفرطاً؛ ومع ذلك، ففي العلاج بالمعنى تتمّ مواجهة المريض فعلياً ويُعاد توجيهه نحو

(51) - استرجاعية *retrospective*: أي طريقة تعتمد على النظر إلى الخلف أو إلى ماضي المرء: استبطان *introspective*: أي طريقة تعتمد على النظر في أعماق نفسية المرء (المترجم).

معنى حياته. ويمكن أن يساهم جعله على وعي بهذا المعنى كثيرًا في قدرته على التغلب على الاضطراب العُصابي الذي يعاني منه.

اسمحوا لي أن أشرح لماذا استخدمت مصطلح «العلاج بالمعنى - logotherapy» اسمًا لنظريتي. إن كلمة «لوجوس - Logos» كلمة يونانية تدلّ على «المعنى». والعلاج بالمعنى، أو كما يطلق عليه بعض المؤلفين، «مدرسة فيينا الثالثة في العلاج النفسي»، يركّز على معنى وجود الإنسان وكذلك على بحث الإنسان عن مثل هذا المعنى. ووفقًا للعلاج بالمعنى، فإن السعي إلى إيجاد معنى في حياة المرء هو القوة التحفيزية الأساسية في الإنسان. وهذا هو السبب في أنني أتحدّث عن «إرادة للمعنى - will to Meaning» مقابل مبدأ اللذة (أو، كما يمكننا أن نطلق عليه أيضًا، مبدأ إرادة اللذة - will to pleasure) الذي يتمحور حوله التحليل النفسي الفرويدي، وكذلك مقابل (مبدأ إرادة القوة - will to power) الذي يركّز عليه علم النفس عند أدلر، باستخدام مصطلح «السعي من أجل التّفوق».

إرادة المعنى

إنّ الإنسان والبحث عن المعنى هو الدافع الأساسي في حياته وليس «تبريرًا ثانويًا» للدوافع الغريزية. هذا المعنى فريد وخاص من حيث إنّه ينبغي أن ينجزه الإنسان بمفرده، ويمكن أن ينجزه؛ وبعد ذلك فقط يحقق المعنى دلالة ترضي إرادة الإنسان للمعنى. هناك بعض المؤلفين

الذين يؤكّدون أنّ المعاني والقيم «ليست سوى آليات دفاعيّة، أي شكل من أشكال تشكيل ردّ الفعل وأشكال التّسامي». ولكن بالنّسبة إليّ، لن أكون على استعداد للعيش فقط من أجل البحث عن «آليات الدّفاع» التي أستخدمها، ولن أكون مستعدًّا للموت لمجرد البحث عن «أشكال تشكيل ردّ الفعل» التي أستخدمها. إنّ الإنسان، مع ذلك، قادر على أن يعيش وحتىّ على أن يموت من أجل المثل والقيم التي يؤمن بها!

تمّ إجراء استطلاع للرّأي العامّ في فرنسا قبل بضع سنوات. وأظهرت النتائج أنّ 89 في المائة ممن شملهم الاستطلاع اعترفوا بأنّ الإنسان يحتاج إلى «شيء ما» ليعيش من أجله. وبالإضافة إلى ذلك، اعترف 61 في المائة أنّ هناك شيئًا ما، أو شخصًا ما، في حياتهم، هم على استعداد حتىّ للموت من أجله. كرّرت هذا الاستطلاع في أحد أقسام المستشفى الذي أعمل فيه في فيينا بين المرضى والأفراد العاديين، وعمليًّا لم تكن النتيجة مختلفة عن تلك التي تمّ التّوصّل إليها من فحص آلاف الأشخاص في فرنسا؛ كان الفرق 2 في المائة فقط.

وهناك مسح إحصائيّ آخر، تمّ إجراؤه على 7948 طالبًا في ثمان وأربعين كليّة، وقد أجراه علماء اجتماع من جامعة جونز هوبكنز⁽⁵²⁾. ويمثّل تقريرهم الأوّلي جزءًا من دراسة استمرّت عامين برعاية المعهد الوطني للصّحة العقليّة. حين سُئل أفراد العيّنة عمّا يعتبرونه «مهمًّا للغاية» بالنّسبة إليهم الآن، وضع 16 في المائة من الطّلاب علامة «نعم» على «كسب مبلغ كبير من المال»؛ وقال 78 في المائة إنّ هدفهم الأوّل هو

(52) - جامعة جونز هوبكنز Johns Hopkins University: أقدم جامعة بحثية في أمريكا، تأسست سنة 1876، ومقرها بالتيمور بولاية ماريلاند (المترجم).

«إيجاد هدف ومعنى لحياتي».

بالطبع، قد تكون هناك بعض الحالات التي يكون فيها اهتمام الفرد بالقيم في الحقيقة مجرد تمويه لصراعات داخلية خفية؛ ولكن، إذا كان الأمر كذلك، فإن هؤلاء الأفراد يمثلون الاستثناء من القاعدة ولا يمثلون القاعدة نفسها. في هذه الحالات، علينا في الواقع التعامل مع القيم الزائفة، وبالتالي لا بدّ من كشفها. ومع ذلك، يجب أن يتوقف الكشف بمجرد أن يواجه المرء ما هو حقيقي وأصيل في الإنسان، مثلاً، رغبته في حياة ذات معنى قدر الإمكان. إذا لم يتوقف الكشف بعد ذلك، فإن الشيء الوحيد الذي يكشفه "عالم النفس الذي يقوم بالكشف" هو في الحقيقة "دافعه الخفي" - أي حاجته اللاشعورية إلى تحقير ما هو حقيقي وما هو إنساني بشكل أصيل، والتقليل من قيمته في الإنسان.

الإحباط الوجودي

يمكن أيضاً أن تُحَبَط إرادة الإنسان للمعنى، وفي هذه الحالة يتحدّث العلاج بالمعنى عن «الإحباط الوجودي - Existential Frustration» ويمكن استخدام مصطلح «الوجودي» بثلاث طرق: للإشارة إلى (1) الوجود نفسه، أي نمط وجود الإنسان على وجه التحديد؛ (2) معنى الوجود؛ (3) السعي إلى إيجاد معنى ملموس في وجود الشخص، أي إرادة المعنى.

يمكن أن يؤدي الإحباط الوجودي أيضاً إلى الإصابة بالاضطرابات

العصائبيّة. بالنّسبة إلى هذا النوع من الاضطرابات العصائبيّة، صاغ العلاج بالمعنى مصطلح «الاضطرابات العصائبيّة ذات المنشأ العقليّ - noögenic Neuroses» مقابل الاضطرابات العصائبيّة بالمعنى التقليديّ للكلمة، أي الاضطرابات العصائبيّة ذات المنشأ النّفسيّ. ليس للاضطرابات العصائبيّة ذات المنشأ العقليّ أصل في البعد النّفسيّ، بل بالأحرى في البعد (العقليّ) - «noölogical» من عقل «noös» (اليونانيّ) لوجود الإنسان. وهو مصطلح علاجيّ آخر يشير إلى أيّ شيء يتعلّق بالبعد الإنسانيّ على وجه التّحديد.

الاضطرابات العصائبيّة ذات المنشأ العقليّ

لا تظهر الاضطرابات العصائبيّة ذات المنشأ العقليّ من الصّراعات بين الدّوافع والغرائز لكن تنشأ بالأحرى من المشاكل الوجوديّة. من بين هذه المشاكل، يلعب إحباط إرادة المعنى دورًا كبيرًا. من الواضح أنّه في الحالات ذات المنشأ العقليّ لا يكون العلاج النّفسيّ بشكل عامّ هو العلاج المناسب والكافي لكنّها تحتاج بالأحرى إلى العلاج بالمعنى. وهو العلاج الذي يجرؤ على إدخال البعد الإنسانيّ على وجه التّحديد.

اسمحوا لي أن أقتبس المثال التّالي: جاء دبلوماسيّ أمريكيّ رفيع المستوى إلى مكّتي في فيينا من أجل مواصلة العلاج بالتحليل النّفسيّ الذي بدأه قبل خمس سنوات مع محلّ نفسيّ في نيويورك. سألته في البداية عن السّبب الذي يجعله يعتقد أنّه يجب أن يخضع للتحليل النّفسيّ،

والسبب الذي جعله يبدأ التحليل النفسي أولاً. وقد تبين أن المريض كان مستاءً من حياته المهنية وكان يجد صعوبة في الامتثال للسياسة الخارجية الأمريكية. ومع ذلك، قال له محلله النفسي مراراً إنه ينبغي أن يحاول التصالح مع والده؛ لأن حكومة الولايات المتحدة ورؤساءه «لم يكونوا سوى» صور ذهنية للأب، وبالتالي، كان استياؤه من وظيفته بسبب الكراهية التي كان يكتنحها دون وعي تجاه والده. من خلال تحليل استمر خمس سنوات، تم دفع المريض تكراراً لقبول تفسيرات محلله النفسي حتى أنه لم يكن قادراً في النهاية على أن يرى غابة الواقع بسبب أشجار الرموز والصور الذهنية التي وضعها أمامه المحلل النفسي. بعد بضع مقابلات، كان من الواضح أن إرادته للمعنى قد أُحبطت بسبب مهنته، وكان يتوق حقاً إلى أن يشارك في نوع آخر من العمل. ونظراً إلى عدم وجود سبب يجعله لا يتخلى عن مهنته والشروع في مهنة مختلفة، فقد فعل ذلك، مع تحقيق نتائج مرضية للغاية. وقد ظل راضياً عن هذه الوظيفة الجديدة أكثر من خمس سنوات، كما ذكر مؤخراً. وأشك في أنني كنت أتعامل في هذه الحالة، مع أي حالة من حالات الاضطرابات العصابية على الإطلاق، ولهذا السبب اعتقدت أنه لم يكن يحتاج إلى أي علاج نفسي، ولا حتى إلى علاج بالمعنى، لسبب بسيط هو أنه لم يكن مريضاً حقاً. ليس كل صراع عصابياً بالضرورة؛ هناك قدر من الصراع يُعتبر طبيعياً وصحياً. وبالتالي، إن المعاناة ليست دائماً ظاهرة مرضية؛ قد تكون المعاناة إنجازاً إنسانياً، بدل أن تكون عرضاً من أعراض اضطراب عصابي، خاصة إذا كانت المعاناة ناجمة عن إحباط وجودي. وأود أن أنكر بشكل قاطع أن بحث المرء عن معنى لوجوده، أو حتى شكّه في معنى وجوده،

في كلّ حالة يكون مشتقاً من أيّ مرض أو ناتجاً عنه. الإحباط الوجودي في حدّ ذاته ليس مَرَضِيًّا Pathological أو مسبباً للمرض Pathogenic. إنّ قلق الإنسان أو حتى يأسه بشأن جدارة الحياة يمثل ضائقة وجودية «Existential Distress» ولكن ليس مرضاً نفسياً «Mental Disease» بأيّ حال من الأحوال. قد يحفز أيضاً تفسير الضائقة الوجودية فيما يتعلق بالمرض النفسي طبيياً على أن يقوم بدفن اليأس الوجودي لمريضه تحت كوم من الأدوية المهدئة. إنّ مهمة الطبيب، بالأحرى، توجيه المريض من خلال أزماته الوجودية للنمو والتطور.

يُعتبر العلاج بالمعنى أنّ مهمته مساعدة المريض على إيجاد معنى في حياته، بقدر ما يجعله يدرك المعاني «logos» الخفية لوجوده، فيكون الأمر عملية تحليلية. وإلى هذا الحدّ، يشبه العلاج بالمعنى التحليل النفسي. ومع ذلك، فإنّ العلاج بالمعنى في محاولته أن يجعل شيئاً ما شعورياً مرة أخرى، لا يقصر نشاطه على الحقائق «الغريزية - Instinctual» داخل لا شعور الفرد ولكنه يهتم أيضاً بالحقائق الوجودية، مثل المعنى المحتمل لوجوده بالإضافة إلى إرادته للمعنى. ومع ذلك، فإنّ أيّ تحليل، حتى حين يكفّ عن تضمين «البعد العقلي - noölogical» في عمليته العلاجية، يحاول أن يجعل المريض على دراية بما يتوق إليه في أعماق كينونته. يتعد العلاج بالمعنى عن التحليل النفسي من حيث إنه يعتبر الإنسان كائناً يتمثل اهتمامه الرئيسي في تحقيق معنى، بدلاً من مجرد إرضاء الدوافع والغرائز وإشباعها، أو في التوفيق بين الادعاءات المتضاربة «اللهو-id» و«الأنا-ego» و«الأنا العليا - Supereg»، أو في مجرد التكيف والتأقلم مع المجتمع والبيئة.

ديناميات النّو (53)

من المؤكّد أنّ بحث الإنسان عن المعنى قد يثير التّوتر الداخلي بدل أن يثير التّوازن الداخلي. ومع ذلك، فإنّ مثل هذا التّوتر تحديدا شرط أساسي لا غنى عنه للصّحة العقليّة. وأغامر بقول إنّه لا يوجد شيء في العالم يمكن أن يساعد المرء بشكل فعّال على البقاء على قيد الحياة حتّى في أسوأ الظروف مثل المعرفة بأنّ هناك معنى في حياة المرء. هناك قدر كبير من الحكمة في كلمات نيتشه: «من لديه سبب يعيش من أجله يتحمّل غالبا الحياة كيفما كانت». أستطيع أن أرى في هذه الكلمات شعارا ينطبق بشكل صحيح على أيّ شكل من أشكال العلاج النفسي. كان يمكن للمرء في معسكرات الاعتقال النّازيّة، أن يرى أنّ أولئك الذين كانوا يعرفون أنّ هناك مهمّة في انتظارهم كي يحقّقوها كانوا الأكثر استعدادا للبقاء على قيد الحياة. وقد توصل إلى النتيجة نفسها منذ ذلك الحين بعض المؤلّفين الآخرين الذين أنجزوا كتبًا عن معسكرات الاعتقال، وكذلك من خلال الفحوص التي أجراها الأطباء النفسيّون في معسكرات أسرى الحرب في اليابان وكوريا الشماليّة وفيتنام الشماليّة.

بالنسبة إليّ، عندما تمّ نقلني إلى معسكر الاعتقال في أوشفيتز، تمّت

(53) - ديناميات النّو Noö-Dynamics: مصطلح يصف به فرانكل التوتربين ما حققه المرء بالفعل وما على على المرء أن يحققه. ويرى فرانكل أن الأشخاص الأصحاء يجب أن يعيشوا في حالة توتربين الماضي والحاضر. ويساعد العلاج بالمعنى الأشخاص على تحمل هذا التوتروتحقيق الاستفادة القصوى منه بدلا من تشجيعهم على العيش دون توتر (المترجم).

مصادرة مخطوطة من مخطوطاتي كانت جاهزة للنشر⁽⁵⁴⁾. ومن المؤكد أن رغبتني العميقة في كتابة هذه المخطوطة من جديد قد ساعدتني على النجاة من قسوة المعسكرات التي كنت فيها. مثلاً، حين مرضتُ في معسكر في بافاريا بحمى التيفوس، قمت بتدوين ملاحظات كثيرة على قصاصات صغيرة من الورق كان الهدف من ورائها أن أتمكن من إعادة كتابة المخطوطة، وكان ينبغي أن أعيش حتى يوم التحرير. أنا متأكد من أن إعادة كتابة مخطوطتي التي فقدت في ثكنات معسكر الاعتقال في بافاريا قد ساعدتني في التغلب على خطر انهيار القلب والأوعية الدموية.

وهكذا يمكن أن نرى أن الصّحة العقلية تقوم على درجة معينة من التوتّر، التوتّر بين ما حقّقه المرء بالفعل وما على المرء أن يحقّقه، أو الفجوة بين ما يكون المرء عليه وما يجب أن يصير إليه. مثل هذا التوتّر متأصل في الإنسان وبالتالي لا غنى عنه للرّفاهية العقلية. لا ينبغي لنا، إذن، أن نتردّد في تحديّ الإنسان بمعنى محتمل من أجل أن يحقّقه. هكذا فقط نستحضر إرادته للمعنى من حالة الكمون. أعتبر أنّ من بين المفاهيم الخاطئة الخطيرة في الصّحة العقلية أن نفترض أنّ ما يحتاجه الإنسان في البداية هو التوازن أو «الاستقرار»⁽⁵⁵⁾، كما يطلق عليه في علم الأحياء، أي حالة خالية من التوتّر. ما يحتاجه الإنسان في الواقع ليس حالة خالية من التوتّر، بل بالأحرى النضال والصّراع من أجل هدف له قيمة، مهمّة يتم اختيارها بحريّة. ما يحتاج إليه ليس تصريف التوتّر بأيّ ثمن بل استدعاء

(54) - كانت النسخة الأولى من كتابي الأول، وقد نشرت الترجمة الإنجليزية لها دار ألفريد أ. كنوف Alfred A. Knopf، في نيويورك، في عام 1955، تحت عنوان الطبيب والروح: مقدمة في العلاج بالمعنى *The Doctor and the Soul: An Introduction to Logotherapy* (المؤلف).

(55) - الاستقرار homeostasis: قدرة الكائن الحي على الحفاظ على الاستقرار الداخلي أمام التغيرات البيئية (المترجم).

معنى محتمل يتظر أن يحققه. ما يحتاجه الإنسان ليس الاستقرار ولكن ما أسميه «ديناميات النمو»، أي الديناميات الوجودية التي توجد في مجال توتر قطبي حيث يُمثل أحد القطبين بمعنى يجب تحقيقه ويُمثل القطب الآخر بالإنسان الذي عليه تحقيق هذا المعنى. ولا ينبغي للمرء أن يعتقد أن هذا ينطبق على الظروف العادية فقط؛ إنه يصح أكثر في الأفراد الذين يعانون من اضطرابات عصائية. إذا أراد المهندسون المعماريون تقوية قوس متداع، فإنهم يزيدون الحمل الذي يوضع عليه، وبالتالي تترابط الأجزاء معاً ترابطاً أكثر قوة. لذا، إذا كان المعالجون يرغبون في تعزيز الصحة العقلية لمرضاهم، فلا يجب أن يخافوا من خلق قدر كبير من التوتر من خلال إعادة توجيهه نحو معنى حياة المرء.

بعد أن بينت التأثير المفيد للتوجه إلى معنى ما، أنتقل إلى التأثير الضار لهذا الشعور الذي يشكو منه عدد كبير من المرضى في هذه الأيام، وهو الشعور بعدم وجود معنى لحياتهم بشكل كلي ونهائي. إنهم يفتقرون إلى إدراك معنى يستحق أن يعيشوا من أجله. ويطاردهم شعورهم بفراغهم الداخلي، الخواء في نفوسهم. إنهم عالقون في تلك الحالة التي أطلقت عليها اسم «الفراغ الوجودي - Existential Vacuum».

الفراغ الوجودي

إن الفراغ الوجودي ظاهرة منتشرة على نطاق واسع في القرن العشرين. وهي ظاهرة يمكن فهمها؛ قد تكون نتيجة خسارة مزدوجة

اضطرّ الإنسان إلى تحمّلها منذ أن أصبح إنسانًا بشكل حقيقيّ. ففي بداية تاريخ الإنسان، فقد الإنسان بعض الغرائز الحيوانية الأساسية التي يكون فيها سلوك الحيوان متجذّرًا بقوة بحيث يستطيع أن يؤمن نفسه بواسطة تلك الغرائز. وقد أغلقت أبواب هذا النوع من الأمان، مثلما أغلقت أبواب الجنة، في وجه الإنسان إلى الأبد؛ على الإنسان أن يختار .

بالإضافة إلى ذلك، عانى الإنسان من خسارة أخرى في تطوره الأخير تتمثل في أنّ التقاليد التي دعمت سلوكه أخذت تتضاءل الآن بسرعة. لا غريزة ولا تقاليد تخبرانه بما عليه فعله. وفي بعض الأحيان لا يعرف حتى ما يريد القيام به. بدلاً من ذلك، فهو إمّا أن يتمنى أن يفعل ما يفعله الآخرون (المطابقة) أو يفعل ما يتمنى الآخرون أن يفعله (الشمولية).

أظهر استطلاع إحصائيّ مؤخرًا أنّ 25٪ من الطلاب الأوروبيين أظهروا درجة ملحوظة إلى حدّ ما من الفراغ الوجودي. ومن بين طلابي الأمريكيين لم تكن النسبة 25 في المائة، لكنّها كانت 60 في المائة.

يتجلّى الفراغ الوجوديّ بشكل رئيسيّ في حالة الملل. الآن يمكننا أن نفهم شوبنهاور حين قال إنّ البشر محكوم عليهم على ما يبدو بالتأرجح إلى الأبد بين الطرفين، «طرف الكرب - Distress» و«طرف السأم - Boredom» في الواقع، إنّ السأم يسبّب الآن مشاكل أكثر من تلك التي يسببها الكرب، ومن المؤكّد أنه يجلب للأطباء النفسيين مشاكل حلّها أكثر مما يجلب الكرب. وتتحوّل هذه المشاكل إلى مشاكل مصيرية بشكل متزايد، لأنّ الأنظمة الآلية التي تتطور باستمرار سوف تؤدي على الأرجح إلى زيادة هائلة في ساعات الفراغ المتاحة للعامل العاديّ. ومن

المؤسف أن الكثير من هؤلاء العمال لن يعرفوا ماذا يفعلون بكل وقت فراغهم الذي اكتسبوه حديثاً.

لتفكر مثلاً، في «عصاب الأحد»، هذا النوع من الاكتئاب الذي يصيب الناس الذين يدركون فقر المحتوى في حياتهم حين ينتهي اندفاع الأسبوع المزدهم بالعمل ويتجلى الفراغ الذي يكمن في نفوسهم. وحالات الانتحار نتيجة لهذا الفراغ الوجودي لا يمكن أن تكون قليلة بأي حال. ولا يمكن فهم مثل هذه الظواهر المنتشرة من قبيل الاكتئاب والعدوان والإدمان ما لم نعرف بالفراغ الوجودي الكامن وراءها. وينطبق هذا أيضاً على الأزمات التي يعاني منها المتقاعدون والمسنون.

بالإضافة إلى ذلك، هناك أقنعة وأشكال مختلفة يظهر تحتها الفراغ الوجودي. في بعض الأحيان يتم تعويض الإرادة المحبطة للمعنى بشكل بديل عن طريق إرادة القوة، بما في ذلك الشكل الأكثر بدائية لإرادة القوة، إرادة المال. وفي حالات أخرى، تحل إرادة اللذة مكان الإرادة المحبطة للمعنى. هذا هو السبب في أن الإحباط الوجودي غالباً ما يتجلى عنه تعويض جنسي. يمكننا أن نلاحظ في مثل هذه الحالات أن الرغبة الجنسية تنفسي في الفراغ الوجودي.

يحدث أمر مماثل في حالات الاضطرابات العصابية. هناك أنواع معينة من آليات التغذية الاسترجاعية وتشكيلات الحلقة المفرغة التي سوف أتطرق إليها لاحقاً. ومع ذلك، يمكن للمرء أن يلاحظ مرة بعد أخرى أن هذه الأعراض قد غزت الفراغ الوجودي إذ تستمر بعد ذلك في الازدهار. ومع مثل هؤلاء المرضى، ما يجب أن نتعامل معه ليس اضطراباً

عصابياً ذا منشأ عقليّ. ومع ذلك، لن ننجح أبداً في أن نجعل المريض يتغلب على حالته إذا لم نكمل العلاج النفسيّ بالعلاج بالمعنى. لأنه سوف تتمّ وقاية المريض من المعاناة من انتكاسات إضافية من خلال ملء الفراغ الوجوديّ. وبالتالي لا يوصف العلاج بالمعنى فقط في الحالات ذات المنشأ العقليّ، كما هو موضح من قبل، ولكنه يوصف أيضاً في حالات ذات منشأ «نفسيّ - Psychogenic»، وأحياناً حتى الاضطرابات العصائبيّة ذات المنشأ الجسديّ (somatogenic) - الاضطرابات العصائبيّة الزائفة). وفي ضوء هذا، هناك ما يبرّر تصريح ماجدة ب. أرنولد⁽⁵⁶⁾: «لا بدّ أن يكون كل علاج بطريقة ما، بغض النظر عن مدى محدوديته، علاجاً بالمعنى أيضاً».⁽⁵⁷⁾

لنفكر الآن فيما يمكننا القيام به إذا سأل المريض عن معنى حياته.

معنى الحياة

أشكّ في أنّ الطّبيب يمكن أن يجيب عن هذا السّؤال بعبارات عامّة. لأنّ معنى الحياة يختلف من إنسان إلى آخر ومن يوم إلى آخر ومن ساعة إلى أخرى. ما يهمّ، إذن، ليس معنى الحياة بشكل عامّ ولكن بالأحرى المعنى الخاصّ لحياة شخص في لحظة معيّنة. إنّ طرح السّؤال بعبارات

(56) - الاضطرابات العصائبيّة الزائفة pseudo-neuroses: لدى المريض الذي يعاني من اضطراب عصائبي زائف قد تظهر عليه كل الأعراض المعروفة في الاضطرابات العصائبيّة في الوقت نفسه. أو تتغير بسرعة؛ وتعرف أيضاً ب pan-neurosis. ماجدة ب. أرنولد Magda B. Arnold (1903 - 2002): عالمة نفس أمريكية. وتعتبر أول منظرة معاصرة تطور نظرية لتقييم الانفعالات (المترجم).

(57) - Magda B. Arnold and John A. Gasson, *The Human Person*, Ronald Press, New York, 1954, p. 618.

عامّة يمكن مقارنته بطرح السّؤال التّالي على بطل من أبطال الشّطرنج: «أخبرني، يا مستر، ما أفضل حركة شطرنج في العالم؟» ببساطة لا يوجد شيء من قبيل أفضل حركة أو حتّى حركة جيّدة في الشّطرنج بصرف النظر عن موقف معيّن في اللّعبة والشّخصيّة التي يتميّز بها خصمك. وينطبق الأمر نفسه على وجود الإنسان. لا ينبغي للمرء أن يبحث عن معنى مجرّد للحياة. فلكلّ شخص وظيفته أو رسالته الخاصّة في الحياة وعليه القيام بمهمّة ملموسة تتطلّب الإنجاز. في ذلك لا يمكن استبدال الشخص، ولا يمكن تكرار حياته. وبالتالي، تكون مهمّة كل فرد فريدة من نوعها بقدر ما تكون الفرصة التي تسنح له لتنفيذها.

وبما أنّ كلّ موقف في الحياة يمثل تحدّيًا للإنسان ويمثّل مشكلة عليه أن يحلّها، فقد يتمّ عكس السّؤال عن معنى الحياة بالفعل. في النّهاية، لا ينبغي للإنسان أن يسأل عن معنى حياته، بل عليه أن يدرك أنّه هو الذي ينبغي أن يتمّ توجيه السّؤال إليه. باختصار، تطرح الحياة السّؤال على كلّ إنسان؛ ولا يمكنه أن يردّ على الحياة إلّا من خلال الإجابة عن حياته الخاصّة؛ لا يمكن أن يردّ على الحياة إلّا من خلال أن يكون مسؤولًا. وهكذا، يرى العلاج بالمعنى في المسؤوليّة الجوهر الحقيقيّ لوجود الإنسان.

جوهر الوجود

ينعكس هذا التأكيد على المسؤوليّة في الضّرورة الحتميّة⁽⁵⁸⁾ للعلاج

(58) - الضّرورة الحتميّة categorical imperative: (في الأخلاق عند كانط) التزام أخلاقي غير مشروط ملزم في جميع الظروف ولا يعتمد على ميول الشخص أو أغراضه؛ وهو من المبادئ الأساسيّة عند كانط (المترجم).

بالمعنى، وهي: «عش كما لو كنت تعيش بالفعل للمرة الثانية وكأنك تصرّفت في المرة الأولى بشكل خاطئ وأنت على وشك أن تتصرّف الآن بالشكل نفسه!» يبدو لي أنّه لا يوجد شيء يحفز إحساس الإنسان بالمسؤولية أكثر من هذا القول المأثور، الذي يدعو إلى أن يتخيّل أولاً أن الحاضر ماضٍ، وثانيًا، أنّ الماضي مازال من الممكن أن يتغيّر ويُعدّل. مثل هذا المبدأ يواجه الإنسان «بمحدوديّة - finiteness» الحياة وكذلك «بغائيّة - finality» ما يصنعه بكلّ من حياته ونفسه.

يحاول العلاج بالمعنى أن يجعل المريض على دراية كاملة بمسؤوليته. لذلك يجب أن يترك له الخيار في أن يفهم ما هو مسؤول عنه، أو ما الشيء الذي هو مسؤول تجاهه، أو من هو الشخص الذي هو مسؤول تجاهه. هذا هو السبب في أنّ المعالج بالمعنى هو الأقلّ إغراء من بين كل المعالجين النفسيين في أن يفرض أحكام قيمة على مرضاه، لأنّه لن يسمح للمريض أبدًا بنقل مسؤولية إصدار الحكم إلى الطبيب.

لذا، فإنّ الأمر متروك للمريض ليقرّر ما إذا كان عليه تفسير مهمّة حياته على أنّه مسؤول تجاه المجتمع أو تجاه ضميره. ومع ذلك، هناك أشخاص لا يفسّرون حيواتهم الخاصّة فقط فيما يتعلّق بالمهمّة الموكلة إليهم ولكن أيضًا فيما يتعلّق بالمشرف على العمل الذي كلّفهم بهذه المهمّة.

العلاج بالمعنى ليس تعليليًا ولا وعظًا. إنّهُ بعيد كل البعد عن التفكير المنطقيّ بقدر ما هو بعيد عن الحثّ الأخلاقيّ. لتوضيح الأمر بشكل مجازيّ، إنّ الدور الذي يلعبه أخصائيّ العلاج بالمعنى هو دور أخصائيّ

العيون وليس دور الرّسام. يحاول الرّسام أن ينقل إلينا صورة للعالم كما يراه؛ ويحاول طبيب العيون أن يجعلنا نتمكّن من رؤية العالم كما هو في الواقع. يتكوّن دور أخصائيّ العلاج بالمعنى من توسيع المجال البصريّ للمريض بحيث يصبح الطّيف الكامل للمعنى المحتمل في مجال إدراكه ومجال رؤيته.

من خلال الإعلان عن أنّ الإنسان مسؤول ويجب أن يحقق المعنى المحتمل لحياته، أودّ أن أوّكد على أنّه يجب اكتشاف المعنى الحقيقيّ للحياة في العالم وليس داخل الإنسان أو داخل نفسيّته، كما لو كان المعنى نظامًا مغلقًا. لقد أطلقتُ على هذه الخاصيّة التّأسيسية اسم «تجاوز الذات في وجود الإنسان». إنّها تدلّ على حقيقة أن كون المرء إنسانًا يشير دائمًا، وبتوجّه، إلى شيء ما، أو إلى شخص آخر، غير نفسه - سواء كان ذلك معنى للوفاء به أم إنسانًا آخر لمواجهة. كلّما نسي المرء نفسه أكثر - بالتفاني في خدمة قضية أو في خدمة شخص آخر يحبّه - كان أكثر إنسانيّة وحقق نفسه أكثر. إن ما يسمّى بتحقيق الذات ليس هدفًا يمكن تحقيقه عمومًا، لسبب بسيط هو أنّه كلّما سعى المرء أكثر من أجله، افتقده أكثر. وبالتالي، لا يمكن تحقيق الذات إلاّ على هيئة أثر جانبيّ لتجاوز الذات.

لقد وضحنا حتّى الآن أنّ معنى الحياة يتغيّر دائمًا، ولكنّ هذا لا يتوقّف أبدًا. وفقًا للعلاج بالمعنى، يمكننا اكتشاف هذا المعنى في الحياة بثلاث طرق مختلفة: (1) عن طريق ابتكار شغل أو القيام بعمل؛ (2) من خلال الشّعور بشيء ما أو لقاء شخص ما؛ (3) بالموقف الذي نتّخذه تجاه المعاناة التي لا مفرّ منها. الطّريقة الأولى واضحة تمامًا، وهي إنجاز

شيء بنجاح أو إنجاز شيء عظيم. الطريقة الثانية والطريقة الثالثة في حاجة إلى مزيد من التفصيل.

الطريقة الثانية لإيجاد معنى في الحياة هي من خلال الخبرة بشيء ما - مثل الخير والحقيقة والجمال - من خلال الخبرة بالطبيعة والثقافة، وفي نهاية المطاف، من خلال الخبرة بإنسان آخر في تفرده الحقيقي عن طريق محبته.

معنى الحب

الحب هو السبيل الوحيد لفهم إنسان آخر في جوهر شخصيته الأكثر عمقًا. لا يمكن لأحد أن يدرك تمامًا الجوهر الحقيقي لإنسان آخر ما لم يحبه. فمن خلال حبه، يتمكن من رؤية السمات والخصائص الأساسية في الشخص المحبوب؛ وأكثر من ذلك، يرى ما هو ممكن فيه ولم يتحقق بعد، ومع ذلك ينبغي أن يتحقق. وبالإضافة إلى ذلك، من خلال الحب، يمكن الشخص المحب الشخص المحبوب من تحقيق هذه الإمكانيات. من خلال جعله يدرك ما يمكن أن يكون عليه وما يجب أن يصبح عليه، بما يجعل هذه الإمكانيات تتحقق.

في العلاج بالمعنى، لا يُفسر الحب على أنه مجرد ظاهرة ثانوية⁽⁵⁹⁾ للدوافع والغرائز الجنسية فيما يسمى التسامي. إنَّ الحب ظاهرة أولية مثله مثل الجنس. ومن المعتاد أن يكون الجنس وسيلة للتعبير عن الحب. الجنس له ما يبرره، بل ما يقده، بمجرد أن يكون معبرًا عن الحب، ولكن فقط طالما كان معبرًا عنه. وبالتالي لا يفهم الحب على أنه مجرد أثر

(59) - ظاهرة ثانوية epiphenomenon: ظاهرة تحدث نتيجة لظاهرة أولية (المؤلف).

جانبي للجنس؛ بدلاً من ذلك، الجنس هو وسيلة للتعبير عن خبرة ذلك التوحد النهائي الذي يسمى الحب.

الطريقة الثالثة لإيجاد معنى في الحياة هي المعاناة.

معنى المعاناة

ينبغي ألا ننسى أبداً أننا قد نجد أيضاً معنى في الحياة حتى حين نواجه وضعاً ميؤوساً منه، أو حين نواجه مصيراً لا يمكن تغييره. ما يهم إذن، هو أن يكون المرء شاهداً على الإمكانية البشرية الفريدة في أفضل حالاتها، أي تحويل مأساة شخصية إلى انتصار، ومأزق الإنسان إلى إنجاز إنساني. حين نكون غير قادرين على تغيير موقف - مجرد التفكير في مرض لا علاج له مثل السرطان الذي لا يمكن إزالته بعملية جراحية - يكون أمامنا تحدٍ لتغيير أنفسنا.

دعني أستشهد بمثال بالغ الوضوح: استشارني ذات مرة، ممارس عام من لأنه كان يعاني من اكتئاب شديد. لم يستطع التغلب على فقدان زوجته التي توفيت قبل عامين وكان يحبها أكثر من كل ما عداها. فكيف يمكن أن أساعده؟ ماذا يجب أن أقول له؟ حسناً، لقد أحجمتُ عن قول أي شيء ولكنني واجهته بدلاً من ذلك بالسؤال: «ماذا كان سيحدث يا دكتور إذا توفيت أنت أولاً، وكان على زوجتك أن تبقى على قيد الحياة بعدك؟» قال: «أوه، كان سيكون أمراً سيئاً بالنسبة إليها. كم كانت ستعاني!» وعند ذلك قلتُ: «تري يا دكتور، لقد تم إنقاذها من هذه

المعاناة، وأنت الذي أنقذتها من هذه المعاناة، ومن المؤكد أنه بهذا الثمن عليك الآن أن تتحمل المعاناة وتأسى عليها». لم يقل كلمة إلا أنه صافحني وغادر مكثبي في هدوء. بطريقة ما، تتوقف المعاناة عن أن تكون معاناة في اللحظة التي تجد فيها معنى، مثل معنى التضحية.

بالطبع، لم يكن هذا علاجًا بالمعنى الصحيح، أولًا، لأنّ يأسه لم يكن مرضًا؛ وثانيًا، لم أكن أستطيع أن أغير قدره. لم أكن أستطيع أن أحيي زوجته. لكن في تلك اللحظة نجحت في تغيير موقفه تجاه قدره الذي لا يمكن تغييره لأنّه منذ ذلك الوقت كان يستطيع على الأقل أن يرى معنى في معاناته. إنه مبدأ من المبادئ الأساسية للعلاج بالمعنى يتمثل في ألا يشغل الإنسان باله من أجل الحصول على المتعة أو تجنب الألم بل من أجل أن يرى معنى في حياته. هذا هو السبب في أنّ الإنسان على استعداد حتى للمعاناة، بشرط، أن يكون لمعاناته معنى بالتأكيد.

لكن دعوني أوضح تمامًا أنه لا توجد بأيّ حال معاناة ضرورية لإيجاد معنى. أصرّ فقط على أنّ وجود المعنى ممكن رغم وجود المعاناة، بشرط أن تكون معاناة لا مفرّ منها. إذا كان من الممكن تجنبها، فإنّ الشيء المفيد الذي يجب القيام به هو إزالة سببها، سواء كان نفسيًا أم بيولوجيًا أم سياسيًا. إنّ المعاناة بلا داع هي مازوشية وليست بطولة.

أكدت إديث فيسكوف جويلسون⁽⁶⁰⁾، وكانت قبل وفاتها أستاذة في علم النفس في جامعة جورجيا، في مقالها عن العلاج بالمعنى، على أن (فلسفتنا الحالية في مجال الصحة العقلية تشدد على فكرة أن الناس يجب

(60) - إديث فيسكوف جويلسون Edith Weisskopf-Joelson (1910 - 1983): عالمة نفس من مواليد النمسا هاجرت إلى الولايات المتحدة الأمريكية في عام 1939 (المترجم).

أن يكونوا سعداء، وأن التعاسة عرض من أعراض سوء التكيف. قد يكون نظام القيم هذا مسؤولاً عن حقيقة أن عبء التعاسة الذي لا يمكن تفاديه يزداد نتيجة التعاسة لأن المرء تعيس. (61) « وفي بحث آخر، أعربت عن أملها في أن العلاج بالمعنى » قد يساعد في مواجهة بعض الاتجاهات غير الصحية في الثقافة الحالية في الولايات المتحدة، حيث لا يمنح من يعاني من معاناة لا شفاء منها سوى فرصة ضئيلة جداً للفخر بمعاناته واعتبارها شرفاً وليست أمراً مهيناً «بحيث» لا يتخلص فقط من عدم سعادته، بل ينجل أيضاً من أنه غير سعيد. (62)

هناك حالات يتم فيها عزل المرء عن فرصة القيام بعمله أو الاستمتاع بحياته؛ ولكن ما لا يمكن استبعاده أبداً هو حتمية المعاناة. بقبول هذا التحدي للمعاناة بشجاعة، يكون للحياة معنى حتى اللحظة الأخيرة، وتحفظ بهذا المعنى بكل معنى الكلمة حتى النهاية. وبالتالي، فمعنى الحياة معنى غير مشروط، لأنه يتضمن حتى المعنى المحتمل لمعاناة حتمية.

دعوني أتذكر تلك الخبرة التي ربّما كانت أعمق خبرة اكتسبتها في معسكر الاعتقال. كانت احتمالات النجاة من المعسكر لا تزيد عن واحد على ثمانية وعشرين، ويمكن التحقق منها بسهولة عن طريق الإحصائيات الدقيقة. لم يكن من الممكن حتى أن يتم إنقاذ مخطوطة كتابي الأول، التي أخفيتها في معطفي حين وصلت إلى معسكر أوشفيتز،

(61) - "Some Comments on a Viennese School of Psychiatry," *The Journal of Abnormal and Social Psychology*, 51 (1955), pp. 701-3.

(62) - "Logotherapy and Existential Analysis," *Acta Psychotherapeutica*, 6 (1958), pp. 193-204.

ناهيك عن احتمال إنقاذها. وهكذا اضطررت إلى الخضوع لفقدان طفلي العقلي والتغلب على هذا الفقدان. وحينها بدا لي كأن لا شيء ولا أحد يمكن أن ينقذني؛ لا طفلي الجسدي ولا طفلي العقلي! وبالتالي وجدت نفسي في مواجهة السؤال عما إذا كانت حياتي في مثل هذه الظروف خالية من أي معنى.

لم أكن قد لاحظتُ بعدُ أن الإجابة عن هذا السؤال الذي كنت أقارعه بشغف، كانت على موعد معي بالفعل، وبعد ذلك بوقت قصير يتم تقديم هذه الإجابة إليّ. كان هذا هو الحال حين أرغمتُ على التنازل عن ملابسي وورثتُ في المقابل الخرق البالية لسجين كان قد تم إرساله بالفعل إلى غرفة الغاز مباشرة إثر وصوله إلى محطة سكك حديد أوشفيتز. بدلاً من الصفحات العديدة من مخطوطتي، وجدت في جيب المعطف الذي اكتسبته حديثاً صفحة واحدة ممزقة من كتاب صلاة بالعبرية، تحتوي على أهم صلاة يهودية، اسمع إسرائيل⁽⁶³⁾. كيف يجب أن أفسر مثل هذه «المصادفة» بخلاف أن تكون تحدياً يواجهني لأعيش أفكارى بدلاً من مجرد وضعها على الورق؟

بعد ذلك بقليل، على ما أتذكر، بدا لي أنني سأموت في المستقبل القريب. ومع ذلك وفي هذه الحالة الحرجة، كان قلقي مختلفاً عن قلق معظم رفاقي. كان سؤالهم، «هل يمكن أن ننجو من المعسكر؟ إذا لم ننج، فإن كل هذه المعاناة لا معنى لها». وكان السؤال الذي حاصرني هو «هل

(63) - اسمع إسرائيل *Shema Yisrael*: صلاة يهودية. وهي عنوان للصلاة التي تشكل محور خدمات الصلاة اليهودية في الصباح والمساء. "اسمع يا إسرائيل: الرب إلهنا، الرب واحد". سفر التثنية 6: 4 (المترجم).

لكل هذه المعاناة وهذه الوفيات من حولنا، معنى؟ لأنه إن لم يكن لها معنى، فإن البقاء في النهاية لا معنى له؛ بالنسبة إلى حياة يعتمد معناها على مثل هذه الصدفة - ما إن كان المرء سوف ينجو أم لا - في النهاية لا تستحق أن تُعاش على الإطلاق».

المشاكل بعد الإكلينيكية

يتصل المرضى بشكل متزايد في هذه الأيام بالطبيب النفسي ويعرضون عليه مشاكل إنسانية بدل أن يعرضوا عليه أعراضاً لاضطرابات عصائية. كان يمكن لبعض الناس الذين يتصلون في الوقت الحاضر بطبيب نفسي أن يعرضوا أنفسهم على قس أو كاهن أو حاخام في سالف الأيام. وفي الوقت الحاضر يرفضون غالباً تسليمهم إلى رجل دين ويواجهون بدلاً من ذلك الطبيب بأسئلة من قبيل: «ما معنى حياتي؟»

دراما العلاج بالمعنى (64)

أود أن أشير إلى المثال التالي: تمّ ذات يوم، حجز والدة صبي توفي في الحادية عشرة في القسم الذي أعمل فيه بالمستشفى بعد محاولة انتحار. وقد دعاها الدكتور «كورت كوكوريك - Kurt Kocourek» إلى الانضمام إلى مجموعة علاجية، وحدث أنني دخلت إلى الغرفة حيث كان يشرف على جلسة «دراما نفسية - Psychodrama». كانت تروي قصتها.

(64) - دراما العلاج بالمعنى *A Logodrama*: تقنية تعتمد على العلاج بالمعنى لاكتشاف معنى موقف من مواقف الحياة والاستجابة له بشكل هادف (المترجم).

عند وفاة ابنها، تُرِكَت وحدها مع ابن آخر أكبر، وكان مُقعداً، يعاني من آثار شلل الأطفال. كان على الطفل المسكين أن يتحرك على كرسي متحرك. لكن والدته تمردت على قدرها. لكن حين حاولت أن تنتحر معه، كان الابن المعوق هو الذي منعها من القيام بذلك؛ كان يحب الحياة! بالنسبة إليه، بقيت الحياة ذات مغزى. لماذا لم تكن كذلك في نظر أمه؟ كيف يمكن أن تكون حياتها ذات معنى؟ وكيف كان يمكن مساعدتها على أن تدرك ذلك؟

شاركتُ في المناقشة بشكل مرتجل، وطرحْتُ سؤالاً على امرأة أخرى في المجموعة. سألتها كم كان عمرها فأجابت «ثلاثون». فقمْتُ بالرد عليها: «لا، أنت لست في الثلاثين لكنك بدلاً من ذلك في الثمانين وتستلقين على فراش الموت. وأنت الآن تنظرين إلى حياتك، حياة كانت دون أطفال ولكنها مليئة بالنجاح المالي والمكانة الاجتماعية». ثم طلبت منها أن تتخيل ما سوف تشعر به في هذه الحالة. «ماذا سيكون رأيك في ذلك؟ ماذا ستقولين لنفسك؟» واسمحوا لي أن أقتبس ما قالته بالفعل من شريط تم تسجيله في تلك الجلسة: «أوه، لقد تزوجت مليونيراً، وقد عشتُ حياة سهلة مليئة بالثروة، وقد استمتعتُ بها! وقد هوتُ مع الرجال ومازحتهم! ولكنني الآن في الثمانين. ليس لدي أبناء من رحمي. بالنظر إلى الوراء باعتباري امرأة عجوزاً، لا أستطيع أن أفهم لماذا كان كل ذلك. في الواقع، يجب أن أقول إن حياتي كانت فاشلة!»

ثم طلبتُ من والدة الابن المعوق أن تتخيل نفسها وهي تنظر إلى حياتها بشكل مماثل. فلنستمع لما قالته كما هو مسجل في الشريط: «تمنيت

أن أنجب أطفالاً وقد تمّ تحقيق هذه الرغبة لي. توفي ولد؛ وكان من الممكن إرسال الآخر المُقعد إلى مؤسسة لو لم أقم برعايته. مع أنه مُقعد وعاجز، فهو رغم كل شيء ولدي. وهكذا جعلت الحياة بالنسبة إليه أكثر اكتمالاً بقدر الممكن؛ لقد جعلت من ابني إنساناً أفضل». في هذه اللحظة، تدفقت الدموع من عينيها، باكية، وواصلت: «أما بالنسبة إليّ، يمكن أن أنظر بسلام إلى حياتي؛ لأنني أستطيع أن أقول إن حياتي كانت مليئة بالمعاني، وقد حاولت جاهدة تحقيقها؛ لقد بذلت قصارى جهدي من أجل ابني. لم تكن حياتي فاشلة!» وهي تنظر إلى حياتها كما لو كانت على فراش الموت، تمكّنت فجأة من رؤية معنى فيها، وهو معنى شمل حتى كل معاناتها. وعلى المنوال نفسه، مع ذلك، أصبح واضحاً أيضاً أن حياة قصيرة مثل تلك، حياة طفلها الميت مثلاً، يمكن أن تكون غنية جداً بالبهجة والحبّ بحيث يمكن أن تحتوي على معنى أكثر من حياة تدوم ثمانين سنةً.

وبعد برهة انتقلتُ إلى سؤال آخر، هذه المرّة كنت أخطب المجموعة كلها. كان السؤال هو ما إذا كان القرد الذي تمّ استخدامه لتطوير مصل شلل الأطفال، ولهذا السبب تمّ بزله مرّة بعد أخرى، يمكن أن يكون قادراً على فهم معنى معاناته. ردّت المجموعة بالإجماع بأنه بالطبع لن يفهم معناها؛ بذكائه المحدود، لا يمكن أن يدخل إلى عالم الإنسان، أي العالم الوحيد الذي يمكن فيه أن تكون معاناته قابلة للفهم. ثمّ طرحْتُ السؤال التالي: «وماذا عن الإنسان؟ هل أنتم متأكدون من أن عالم الإنسان هو نقطة نهائية في تطوّر الكون؟ أليس من الممكن تصوّر أنه لا يزال هناك بُعدٌ آخر، عالم وراء عالم الإنسان؛ عالم قد يجد فيه السؤال

إجابة عن معنى نهائي لمعاناة الإنسان؟»

المعنى الفائق (65)

هذا المعنى النهائي يتجاوز بالضرورة ويفوق القدرات الفكرية المحدودة للإنسان؛ في العلاج بالمعنى، نتحدث في هذا السياق من معنى أسمى. المطلوب من الإنسان ليس، طبقاً لتعاليم بعض الفلاسفة الوجوديين، أن يتحمل انعدام معنى الحياة، بل أن يتحمل عدم قدرته على فهم انعدام معناها غير المشروط بعبارات عقلانية. «المعنى - Logos أكثر عمقاً من المنطق.

إن الطيب النفسي الذي يتخطى مفهوم المعنى الأسمى سوف يرتبك أمام مرضاه عاجلاً أم آجلاً، تماماً كما حدث لي حين طرحت عليّ ابنتي وهي في السادسة تقريباً السؤال التالي: «لماذا نتحدث عن الرب الطيب؟» فقلت: «منذ عدة أسابيع، كنت تعانين من الحصبة، ثم أرسل إليك الرب الطيب الشفاء التام». ومع ذلك، لم تقتنع الفتاة الصغيرة؛ ردّت قائلة: «حسناً، ولكن من فضلك، يا أبي، لا تنس: إنه الذي أرسل إليّ الحصبة أولاً».

ومع ذلك، حين يقف المريض على الأرض الصلبة لمعتقد ديني، لا يمكن أن يكون هناك اعتراض على الاستفادة من التأثير العلاجي لقناعاته الدينية وبالتالي الاعتماد على طاقاته الروحية. وللقيام بذلك، قد

(65) - المعنى الفائق The Super-Meaning: المعنى الأوسع للحياة والموت والمعاناة. المعنى الذي لا يستطيع الإنسان فهمه (المترجم).

يضع الطيب النفسى نفسه مكان المريض. هذا بالضبط ما فعلته ذات مرة، على سبيل المثال، حين التفت إليّ حاخام من أوروبا الشرقية وحكى لي قصته. لقد فقد زوجته الأولى وأطفالها الستة في معسكر اعتقال أوشفيتز حيث تعرّضوا للموت بالغاز، وقد اتضح الآن أنّ زوجته الثانية كانت عاقراً. لاحظتُ أنّ الإنجاب ليس هو المعنى الوحيد للحياة، لأنّ الحياة في حدّ ذاتها قد تصبح بلا معنى، وشيء لا معنى له في حدّ ذاته لا يمكن أن يصبح ذا معنى بمجرد إدامته. ومع ذلك، قام الحاخام بتقييم محنته بصفته يهودياً أرثوذكسياً وقد أصابه اليأس لأنّه لم يكن له ابن يمكنه أن يصلي قادش⁽⁶⁶⁾ من أجله بعد وفاته.

لكنني ما كنتُ لأستسلم. قمت بمحاولة أخيرة لمساعدته من خلال الاستفسار عما إذا كان لا يأمل في رؤية أطفاله مرة أخرى في الجنة. ومع ذلك، عقب سؤالى تدفقت الدموع من عينيه، وقد ظهر حينها السبب الحقيقي لليأس في الواجهة: وأوضح أنّ أولاده، لأنهم ماتوا باعتبارهم شهداء أبرياء⁽⁶⁷⁾، وبالتالي يتبين أنهم يستحقون أعلى مكان في الجنة، ولكن بالنسبة إليه هو نفسه، لا يمكن أن يتوقع، باعتباره رجلاً عجوزاً أنّها، أن يحل في المكانة نفسها. لم أستسلم ولكنني قمتُ بالرد بحسم: «ليس من الممكن أن نتصور يا حاخام، أن هذا بالضبط هو معنى بقائك على قيد الحياة بعد موت أطفالك: بحيث يمكن تطهر في أثناء هذه

(66) - قادش Kaddish: صلاة يهودية من أجل الموتى (المؤلف).

(67) - L'kiddush basbem، أي ليتقدس اسم الرب (المؤلف). [L'kiddush basbem هكذا في الأصل، واطن أن الصواب Kiddush HaShem (المترجم)].

السنوات من المعاناة، حتى أنه في النهاية، رغم أنك لست بريثًا مثل
أبنائك، قد تصبح جديرًا بالانضمام إليهم في السماء؟ أليس في المزامير أن
الرب يحفظ كل دموعك؟⁽⁶⁸⁾ فربما لم يكن أي من آلامك ليضيع هباءً.
وللمرة الأولى منذ سنوات عديدة وجد راحة من معاناته من خلال
وجهة النظر الجديدة التي تمكنت من عرضها عليه.

زوال الحياة

تلك الأشياء التي يبدو أنها تسلب المعنى من حياة الإنسان لا تشمل
المعاناة فقط بل والموت أيضًا. لا أتعب أبدًا من قول إن الجوانب الزائلة
الوحيدة في الحياة هي الإمكانيات؛ ولكن بمجرد تحقيقها، تصبح حقائق
في اللحظة ذاتها؛ تحفظ وتسلم إلى الماضي، إذ تُنقذ وتحفظ من الزوال. لأن
في الماضي، لا يتم فقد أي شيء فقدًا نهائيًا لا رجعة فيه ولكن كل شيء يتم
تخزينه تخزينًا نهائيًا لا رجعة فيه.

وبالتالي، فإن زوال وجودنا لا يجعله بأي شكل من الأشكال بلا
معنى. لكنه يشكل مسؤوليتنا؛ لأن كل شيء يتوقف بشكل أساسي على
إدراكنا للإمكانيات الزائلة. يقوم الإنسان باستمرار بالاختيار بين
مجموعة من الإمكانيات الحالية؛ أي إمكانية من هذه الإمكانيات سوف
يُحكّم عليه بالآ يكون لها وجود وأي منها سوف تتحقق؟ أي اختيار
سوف يصبح حقيقة مرّة وإلى الأبد، «بصمة» خالدة «على رمال الزمن»؟

(68) - "تَهَانِي رَاقِبَتِ. اجْعَلِ أَنْتِ دُمُوعِي فِي زِقِكَ. أَمَا هِيَ فِي سِفْرِكَ؟" (المزامير 56، 8) (المؤلف) وترجمة
الهامش عن الترجمة العربية للكتاب المقدس (المترجم).

على الإنسان في أي لحظة، أن يقرر، سواء كان ذلك للأفضل أم للأسوأ، ماذا سوف يكون النُصب التذكارِي لوجوده.

من المؤكّد أنّ الإنسان لا يضع في الاعتبار عادة سوى قسّ الزوال ويتجاهل مخازن حبوب الماضي الممتلئة، حيث كان قد أنقذ مرّة وإلى الأبد مآثره وأفراحه ومعاناته أيضًا. لا يمكن التراجع عن أيّ شيء، ولا يمكن التخلّص من أيّ شيء. يجب أن أقول إنّ هذا هو أكثر أنواع الوجود رسوخًا.

العلاج بالمعنى، مع الأخذ في الاعتبار الزوال الأساسي لوجود الإنسان، ليس تشاؤميًا لكنّه بالأحرى نشط. للتعبير عن هذه النقطة بشكل مجازي، قد نقول: إنّ المتشائم يشبه رجلًا يلاحظ في خوف وحزن أن نتيجة الحائط، التي يمزق منها كلّ يوم ورقة، تصير أكثر نحافة مع كل يوم يمرّ. من ناحية أخرى، فإنّ الشخص الذي يواجه مشاكل الحياة بشكل نشط يشبه الرّجل الذي يزيل كل ورقة متآلية من نتيجته ويضعها بدقّة وعناية مع سابقاتها، بعد أن يدوّن أولاً بعض الملاحظات اليوميّة على ظهرها. إذ يستطيع أن يفكر بكلّ فخر وبهجة في الثراء المكنون في تلك الملاحظات، في الحياة التي عاشها كلّها على أكمل وجه. ماذا يعني بالنسبة إليه إذا لاحظ أنّه يتقدّم في السنّ؟ هل لديه أيّ سبب يجعله يحسد الشبان الذين يراهم، أو يؤرّقه الحنين إلى شبابه الضائع؟ ما الأسباب التي تجعله يحسد شابًا على الاحتمالات التي يمتلكها وعلى مستقبله الذي مازال أمامه؟ سوف يفكر: «لا، شكرًا لك. بدلاً من الاحتمالات، لديّ حقائق في ماضيّ، ليس فقط حقيقة العمل المنجز والحبّ الذي عشّته،

ولكن حقيقة أشكال المعاناة التي عانيتها بشجاعة. وهذه الأشكال من المعاناة هي أكثر ما أفتخر به، رغم أنها أشياء لا يمكن أن تدعو إلى الحسد».

العلاج بالمعنى بوصفه تقنية

لا يمكن تهدئة خوف واقعي، مثل الخوف من الموت، من خلال تقديم تفسيره «الديناميكي النفسي - Psychodynamic» ؛ ومن ناحية أخرى، لا يمكن علاج خوف عصابي، مثل «رهاب الخلاء - Agoraphobia» من خلال تقديم فهم فلسفي له. ومع ذلك، فقد طور العلاج بالمعنى تقنية خاصة للتعامل مع مثل هذه الحالات أيضًا. لفهم ما يحدث كلّمًا تمّ استخدام هذه التقنية، نأخذ حالة، باعتبارها نقطة بداية، تلاحظ بشكل متكرر لدى الأفراد العصبيين، أعني «القلق الاستباقي - Anticipatory Anxiety» من سمات هذا الخوف أنه يتج بالضببط ما يخاف منه المريض. إنّ الفرد الذي يخشى، على سبيل المثال، من احمرار الخدين خجلًا حين يدخل إلى غرفة كبيرة ويواجه عددًا كبيرًا من الناس سوف يكون في الواقع أكثر عرضة لاحمرار الخدين في ظلّ هذه الظروف. وفي هذا السياق، يمكن للمرء أن يعدّل عبارة «الرغبة أم الفكر» إلى «الخوف أبو الحدث».

ومن المفارقات، أنّه بالطريقة نفسها التي يجلب بها الخوف ما يخشاه المرء، فإنّ النية القسريّة بطريقة مماثلة تجعل ما يريده المرء بالقوة مستحيلًا. هذه النية المبالغ فيها، أو «النية المفرطة - Hyper-Intention»، كما

أسميها، يمكن ملاحظتها بشكل خاص في حالات «العصاب الجنسي» - Sexual Neurosis» كلما حاول الرجل إظهار قدرته الجنسية أو حاولت المرأة إظهار قدرتها على الشعور بذروة النشوة الجنسية، قلت قدرتها على النجاح في العلاقة. إن المتعة أثر جانبي أو منتج ثانوي، ويجب أن تظل كذلك، ويتم تدميرها وإفسادها بالدرجة التي نسعى بها للحصول عليها باعتبارها هدفاً في حد ذاته.

بالإضافة إلى النية المفرطة كما هو موضح من قبل، قد يكون الانتباه المفرط، أو «التأمل المفرط»، كما يطلق عليه في العلاج بالمعنى، مؤدياً إلى Pathogenic (أي يؤدي إلى المرض). ويشير التقرير الإكلينيكي التالي إلى ما أعنيه: جاءت إليّ امرأة شابة تشكو من البرود الجنسي. أظهر تاريخ الحالة أنها تعرّضت في طفولتها لانتهاك جنسي من والدها. ومع ذلك، لم تكن هذه الخبرة المؤلمة في حد ذاتها هي التي تسببت في عصابها الجنسي، كما يمكن إثباته بسهولة. لأنه اتضح أنه من خلال قراءة أدب التحليل النفسي الشعبي، عاشت المريضة باستمرار مع توقع مخيف للخسائر التي سوف تلحق بها ذات يوم نتيجة لخبرتها الصادمة. وقد أدى هذا القلق الاستباقي إلى نية مفرطة لتأكيد أنوثتها والاهتمام المفرط الذي يتمحور حول نفسها بدل أن يتمحور حول شريكها. وكان هذا كافياً لإضعاف شعور المريضة بخبرة المتعة الجنسية القصوى، إذ كانت النشوة الجنسية هدفاً للنية، وهدفاً للانتباه أيضاً، بدلاً من أن تبقى أثراً غير مقصود للتفاني التلقائي والاستسلام للشريك. بعد الخضوع للعلاج بالمعنى على المدى القصير، تم «تثبيت» الانتباه المفرط والنية المفرطة لدى المريضة في أن تستطيع أن تشعر بالنشوة الجنسية، بإدخال شرط آخر للعلاج بالمعنى.

حين تمت إعادة تركيز انتباهها نحو الكائن المناسب، أي الشريك، رسخت النشوة الجنسية نفسها بشكل تلقائي⁽⁶⁹⁾.

تعتمد تقنية العلاج بالمعنى التي تسمى «النية المتناقضة-Paradoxical Intention» على الحقيقة المزدوجة التي مفادها أن الخوف يجلب ما يخشاه المرء، وأن النية المفرطة تجعل من المستحيل تحقيق ما يرغب فيه المرء. لقد وصفتُ النية المتناقضة باللغة الألمانية في وقت مبكر من عام 1939⁽⁷⁰⁾ وفي هذه المقاربة، يطلب من المريض الذي يعاني من الرهاب أن ينوي، حتى ولو للحظة واحدة، ما يخشاه بالضبط.

لأتذكر هنا حالة. استشارني طبيب شاب بسبب خوفه من العرق. فكلما توقع تدفق العرق، كان هذا القلق الاستباقي كافيًا للتعجيل بتدفق العرق بغزارة. ومن أجل قطع هذا الشكل الدائري، نصحت المريض، في حالة تكرار تدفق العرق، أن يقرر عمدًا أن يظهر للناس كم كان يستطيع أن يعرق. بعد ذلك بأسبوع عاد ليقول إنه كلما التقى بأي شخص ممن كانوا يثيرون قلقه الاستباقي، يقول لنفسه: «لقد صيبتُ من قبل ربع لتر من العرق فقط، ولكنني سأصبت الآن عشرة لترات⁽⁷¹⁾ على الأقل!» وكانت النتيجة أنه بعد معاناته من رهابه أربع سنوات، تمكن بعد جلسة

(69) - من أجل علاج حالات العجز الجنسي، تم تطوير تقنية علاجية محددة بالمعنى، بناءً على نظرية فرط النية hyper-intention وفرط الانعكاس كما هو موضح أعلاه (فيكتور إي. فرانكل، "مبدأ المتعة والعصاب الجنسي The Pleasure Principle and Sexual Neurosis"، المجلة الدولية لعلم الجنس *The International Journal of Sexology*، المجلد الخامس، رقم 3 [1952]، ص 128 - 130). بالطبع، لا يمكن تناول هذا الموضوع في هذا العرض الموجز لمبادئ العلاج بالمعنى (المؤلف).

(70) - Viktor E. Frankl, "Zur medikamentösen Unterstützung der Psychotherapie bei Neurosen," *Schweizer Archiv für Neurologie und Psychiatrie*, Vol. 43, pp. 26-31

(71) - في الأصل عشرة كوارتات quarts، والكوارت ربع جالون، أو ما يعادل 0,94 لتر تقريبًا في الولايات المتحدة، أو 1,13 لتر في المملكة المتحدة (المترجم).

واحدة من أن يتخلص منه بشكل دائم في غضون أسبوع واحد.

سوف يلاحظ القارئ أن هذا الإجراء يتكوّن من عكس موقف المريض، إذ يتمّ استبدال خوفه برغبة مناقضة. من خلال هذا العلاج، يتمّ إضعاف قوّة تأثير القلق.

ومع ذلك، يجب أن يستخدم مثل هذا الإجراء قدرة الإنسان على وجه التّحديد في «الانفصال عن الذات - self-detachment» المتأصل في روح الدّعابة. يتمّ تحقيق هذه القدرة الأساسيّة على انفصال المرء عن ذاته كلّما تمّ تطبيق تقنية العلاج بالمعنى الذي يُسمّى النية المتناقضة. في الوقت ذاته، يتمّ تمكين المريض من وضع نفسه على مسافة من الاضطراب العصبيّ الذي يعاني منه. وقد تمّ العثور على تصريح يتفق مع هذا الكلام في كتاب جوردون دبليو ألبورت، «الفرد ودينه»: (72) «مريض العصاب الذي يتعلم كيف يضحك على نفسه قد يكون في طريقه إلى أن يعالج نفسه، وربما إلى الشفاء». (73) النية المتناقضة هي التحقّق التجريبي والتطبيق الإكلينيكي لتصريح ألبورت.

قد يكون عدد قليل من تقارير الحالات بمثابة توضيح لهذه الطريقة بشكل أكبر. كان المريض التالي كاتب حسابات أشرف على علاجه عدد من الأطباء في عدد من العيادات دون تحقيق أي نجاح علاجي. حين تمّ حجزه في القسم الذي أعمل فيه في المستشفى، كان يشعر بيأس شديد، واعترف بأنه كان على وشك الانتحار. كان يعاني، لعدة سنوات، من

(72) - جوردون ويلارد ألبورت Gordon W. Allport (1897 - 1967): عالم نفس أمريكي اهتم بدراسة الشخصية: الفرد ودينه *The Individual and His Religion*: كتاب نشر في عام 1950. وهو ثالث كتب ألبورت (المترجم).

(73) - New York, The Macmillan Co., 1956, p. 92.

تشنج الكاتب⁽⁷⁴⁾ وقد أصبح في الآونة الأخيرة شديداً إلى درجة أنه كان معرضاً لخطر أن يفقد وظيفته. وبالتالي كان يمكن فقط لعلاج فوري قصير الأمد أن يخفف من الوضع. في بداية العلاج، أوصت الدكتورة إيفا كوزديرا المريض بأن يفعل عكس ما كان يفعله عادة؛ أي، بدلاً من أن يحاول الكتابة بأكبر قدر ممكن من الدقة والوضوح قدر الإمكان، يكتب أسوأ شخبطة ممكنة. وقد نُصح بأن يقول لنفسه: «الآن سوف أجعل الناس يرون أي شخص يجيد الشخبطة أنا!» وفي اللحظة التي حاول فيها أن يشخبط عن عمد، كان غير قادر على القيام بذلك. قال في اليوم التالي: «حاولت أن أكتب بشكل رديء لكنني ببساطة لم أستطع أن أفعل ذلك». في غضون ثمان وأربعين ساعة تمّ تخليص المريض بهذه الطريقة من تشنج الكاتب الذي كان يعاني منه، وظلّ متخلصاً منه طوال فترة المتابعة بعد أن تمّ علاجه. إنه الآن رجل سعيد مرّة أخرى وقادر على العمل بشكل كامل.

ثمّة حالة مماثلة لكنها تتناول مشكلة في الكلام بدلاً من الكتابة، وقد قام بتحويلها إليّ أحد الزملاء في قسم الحنجرة في مستشفى فيينا العام.⁽⁷⁵⁾ وكانت هذه أشدّ حالة من حالات التأتأة التي مرّت عليه في سنوات ممارسته الطويلة لمهنته. لم يسبق لهذا المتلعثم في حياته، بقدر ما يمكن أن يتذكّر، أن كان خالياً من مشاكل الكلام، حتى ولو للحظة، إلاّ

(74) - تشنج الكاتب writer's cramp: اضطراب ناجم عن تقلصات أو تشنجات في عضلات معينة في اليد و / أو الساعد، وتظهر هذه التشنجات في أثناء أداء المهام الحركية الدقيقة، مثل الكتابة أو العزف على آلة موسيقية (المترجم).

(75) - مستشفى فيينا العام Vienna Poliklinik Hospital: المركز الطبي الجامعي في فيينا، وهو مقر جامعة فيينا الطبية. يعد أكبر مستشفى في النمسا والقارة الأوروبية، ومبناه واحد من أعلى مباني المستشفيات ارتفاعاً في العالم (المترجم).

مرة واحدة. حدث هذا حين كان عمره اثني عشر عامًا وكان قد ركب
نرامًا دون تذكرة. حين قبض عليه مراقب التذاكر، اعتقد أن الطريقة
الوحيدة للهروب هي أن يستدرّ تعاطفه، وبالتالي حاول أن يثبت أنه مجرد
فتى متلعثم. في تلك اللحظة، حين حاول أن يتلعثم، كان غير قادر على
القيام بذلك. دون قصد، كان يمارس النية المتناقضة، وإن لم تكن في هذه
الحالة لأغراض علاجية.

ومع ذلك، يجب ألا يترك هذا العرض الانطباع بأن النية المتناقضة
فعالة فقط في الحالات أحادية الأعراض. من خلال هذه التقنية العلاجية
نجح العاملون معي في مستشفى فيينا العام في توفير الراحة حتى في
حالات اضطراب عصاب الوسواس الأكثر شدة والأطول مدة. أشير
مثلا، إلى امرأة في الخامسة والستين عانت ستين سنة من الغسيل القهري.
بدأت الذكورة أيضا كوزديرا العلاج بالعلاج بالمعنى عن طريق النية
المتناقضة، وبعد شهرين استطاعت المريضة أن تعيش حياة طبيعية.
اعترفت قبل حجزها في قسم الأعصاب في مستشفى فيينا العام، بأن
«الحياة كانت بالنسبة إليّ جحيمًا». كانت معوقة بسبب اضطرابها القهري
ووسواس رهاب البكتيريا، وكانت في النهاية تبقى في الفراش طوال
اليوم غير قادرة على القيام بأي عمل منزلي. لن يكون دقيقًا أن نقول إنّها
الآن خالية تماما من الأعراض، لأنّ الوسواس قد يتبادر إلى ذهنها. ومع
ذلك، فهي قادرة على «أن تمزح بشأنه» كما تقول. باختصار، بتطبيق نية
متناقضة.

يمكن أيضًا تطبيق النية المتناقضة في حالات اضطراب النوم. يؤدي

الخوف من الأرق⁽⁷⁶⁾ إلى وجود نية مفرطة في النوم، مما يؤدي بدوره إلى أن يعجز المريض عن القيام بذلك. وللتغلب على هذا الخوف بالذات، عادة ما أنصح المريض بعدم محاولة النوم بل محاولة عكس ذلك، أي محاولة أن يبقى مستيقظاً لأطول فترة ممكنة. وبعبارة أخرى، يجب أن يستبدل بالنية المفرطة للنوم، الناشئة عن القلق الاستباقي من عدم القدرة على القيام بذلك، النية المتناقضة في عدم النوم، التي سوف يتبعها النوم بسرعة.

النية المتناقضة ليست حلاً سحرياً. ومع ذلك، فإنها تعد أداة مفيدة في علاج حالات الوسواس القهري والرهاب، خاصة في الحالات التي تتضمن قلقاً استباقياً. بالإضافة إلى ذلك، فهي أداة علاجية قصيرة المدى. ومع ذلك، لا ينبغي للمرء أن يستتج أن مثل هذا العلاج قصير المدى يؤدي بالضرورة إلى تأثيرات علاجية مؤقتة فقط. أحد «الأوهام الأكثر شيوعاً للأرثوذكسية الفرويدية»، على حد تعبير الراحل إميل أ. جوئيل⁽⁷⁷⁾: «أن صمود النتائج يتوافق مع طول فترة العلاج»⁽⁷⁸⁾. في ملفاتي مثلاً، تقرير حالة مريضة كانت قد خضعت للعلاج بالنية المتناقضة منذ أكثر من عشرين عاماً، وقد أثبت التأثير العلاجي، مع ذلك، أنه دائم.

واحدة من أكثر الحقائق لفتاً للانتباه هي أن النية المتناقضة فعالة بغض

(76) - يرجع الخوف من الأرق، في معظم الحالات، إلى جهل المريض بحقيقة أن الكائن الحي يوفر لنفسه بنفسه الحد الأدنى من النوم المطلوب حقاً (المؤلف).

(77) - إميل أ. جوئيل (1889 - 1959) Emil A. Gutheil: طبيب نفسي أمريكي من أصول بولندية تخصص في النشاط الجنسي والعلاج بالموسيقى والتحليل النفسي.

(78) - *American Journal of Psychotherapy*, 10 (1956), p. 134.

نظر عن الأساس المسبب للحالة المعنوية. هذا يؤكد تصريحًا أدلى به إديث فيكوف جويلسون ذات مرة: «رغم أن العلاج النفسي التقليدي كان يصر على أن الممارسات العلاجية يجب أن تستند إلى نتائج في علم أسباب الأمراض، فمن المحتمل أن عوامل معينة قد تسبب حالات العصاب في الطفولة المبكرة وأن عوامل مختلفة تمامًا قد تخفف حالات العصاب في مرحلة البلوغ»⁽⁷⁹⁾.

أما بالنسبة إلى السبب الفعلي للاضطرابات العصائية، بصرف النظر عن العناصر البنيوية، سواء كانت جسدية أم نفسية في طبيعتها، فإن آليات التغذية الاسترجاعية مثل القلق الاستباقي تبدو عاملاً رئيسياً في حدوث المرض. تتم الاستجابة لعرض معين برهاب، فيثير الرهاب العرض ويؤدي العرض بدوره إلى تعزيز الرهاب. ومع ذلك، يمكن ملاحظة سلسلة مماثلة من الأحداث في حالات الوسواس القهري التي يجرب فيها المريض الأفكار التي تطارده⁽⁸⁰⁾. ومع ذلك، فإن المريض يريد من قدرة الأفكار على إزعاجه، إذ أن الضغط يرتب الضغط هذا. مرة أخرى يتم تعزيز الأعراض! من ناحية أخرى، بمجرد أن يحرق المريض عن محاربة وساوسه ويحاول بدلاً من ذلك السخرية منها من خلال التعامل معها بطريقة ساخرة - من خلال تطبيق النية العاقبة - يتم قطع الدائرة المفرغة، ويقطع العرض ويضمحل في النهاية. في حالة المحظوظة التي لا يوجد فيها فراغ وجودي يستدعي الأعراض

(79) - "Some Comments on a Viennese School of Psychiatry," *The Journal of Abnormal and Social Psychology*, 51 (1955), pp. 701-3.

(80) - غالبًا ما يكون هذا مدفوعًا بخوف المريض من أن الوسواس التي يعاني منها تشير إلى زهان وشيك. من نغان فعلي: لا يدرك المريض الحقيقة التجريبية القائلة بأن عصاب الوسواس القهري يحصنه ضد المحارر الفعلي بدلاً من أن يعرضه للخطر في هذا الاتجاه (المؤلف).

ويثيرها، لن ينجح المريض في السخرية من مخاوفه العصابية فحسب، لكنه سوف ينجح في تجاهلها تمامًا.

كما نرى، يجب أن يُقابل القلق الاستباقي بالنية المتناقضة؛ النية المفرطة وكذلك الانعكاس المفرط يجب مواجهتهما عن طريق التخلص من التفكير في الأمر؛ ومع ذلك، فإن التخلص من التفكير في الأمر لا يكون ممكنًا في نهاية المطاف إلا بتوجيه المريض نحو مهمته ورسالته المحددة في الحياة. (81)

ليس انشغال مريض العصاب بذاته، سواء كان شفقة أم ازدراء، هو الذي يكسر تشكيلة الدائرة؛ مفتاح العلاج هو التسامي بالذات!

العصاب الجماعي

لكل عصر عصابه الجماعي الخاص، وكل عصر يحتاج إلى علاج نفسي خاص به للتعامل معه. يمكن وصف الفراغ الوجودي، وهو العصاب الجماعي في الوقت الحاضر، بأنه شكل خاص من أشكال العدمية؛ وإذا أن العدمية يمكن تعريفها بأنها الجدل في أن الوجود لا معنى له. ومع ذلك، وفيما يتعلق بالعلاج النفسي، لن يكون قادرًا على التعامل مع هذه الحالة على نطاق واسع إذا لم يتعد عن أثر الاتجاهات المعاصرة في الفلسفة العدمية وتأثيرها؛ وإلا فإنه يمثل أحد أعراض العصاب الشامل بدلاً من أن يمثل علاجه المحتمل. لن يعكس العلاج النفسي الفلسفة العدمية

(81) - يدعم ألبورت هذه الإدانة حين قال ذات مرة: "بينما يتحول تركيز السعي من الصراع إلى أهداف غير أنانية، تصبح الحياة ككل أسلم على الرغم من أن العصاب قد لا يختفي تمامًا" (المرجع السابق، ص 95).

قط، لكنه أيضًا، رغم عدم الرغبة وعدم التعمد، ينقل إلى المريض ما هو في الواقع صورة كاريكاتورية للإنسان بدل أن ينقل إليه صورة حقيقية.

قبل أي شيء، هناك خطر متأصل في تعليم أن الإنسان «ليس إلا»، نظرية القائلة بأن الإنسان ليس إلا نتيجة للظروف البيولوجية والنفسية والاجتماعية، أو نتاج الوراثة والبيئة. ومثل هذه النظرة إلى الإنسان تجعل الشخص الذي يعاني من العصاب يصدق ما يميل إلى أن يصدقه على أي حال، أي أن يصدق أنه البيدق وضحية التأثيرات الخارجية أو الظروف الداخلية. هذه الحتمية العصابية يتم تعزيزها وتقويتها من خلال العلاج النفسي الذي ينكر أن الإنسان حرّ.

من المؤكد أن الإنسان محدود وحرّيته مقيدة. وإن حرّيته تلك ليست تحررًا من الظروف، لكنها حرّية اتخاذ موقف تجاه الظروف. كما قلت ذات مرة: "بصفتي أستاذًا في مجالي علم الأعصاب والطب النفسي، فإنني أعرك تمامًا مدى تعرّض الإنسان لظروف بيولوجية ونفسية واجتماعية. ولكن بالإضافة إلى كوني أستاذًا في مجالين، فقد نجوتُ من أربعة معسكرات - أي معسكرات اعتقال - وعلى هذا النحو، فإنني أشهد أيضًا على المدى غير المتوقع الذي يستطيع الإنسان من خلاله تحدي أسوأ الظروف التي يمكن تصوّرها ومواجهتها." (82)

82 - أبعاد القيمة في التعليم Value Dimensions in Teaching، فيلم تليفزيوني ملون من إنتاج Hollywood Animators، جمعية كلية كاليفورنيا للناشئين California Junior College (المؤلف).

نقد الحتمية المطلقة (83)

غالبًا ما يتم إلقاء اللوم على التحليل النفسي بسبب ما يسمى النظرية الجنسية المطلقة⁽⁸⁴⁾. أنا مثلاً، أشك في ما إذا كان هذا اللوم مشروعاً في يوم من الأيام. ومع ذلك، هناك شيء يبدو لي أنه حتى افتراضاً أكثر خطأ وخطورة، وهو ما أسميه «الحتمية المطلقة». أعني بذلك النظرة إلى الإنسان التي تتجاهل قدرته على اتخاذ موقف تجاه أي ظرف مهما يكن. الإنسان ليس كائناً مشروطاً ومسيراً بشكل كامل لكنه بالأحرى يقرر لنفسه إما أن يستسلم للظروف أو يواجهها. وبتعبير آخر، إن الإنسان هو الذي يقرر مصيره في نهاية المطاف. لا يوجد الإنسان ببساطة ولكنه يقرر دائماً ما سوف يكون عليه وجوده، وما سوف يصبح عليه في اللحظة التالية.

على النوال نفسه، لكل إنسان حرية التغيير في أي لحظة. وبالتالي، يمكن أن نتنبأ بمستقبله فقط في الإطار الكبير لمسح إحصائي يشير إلى مجموعة كاملة؛ ومع ذلك تبقى الشخصية الفردية غير قابلة للتنبؤ بشكل أساسي. قد يتم تمثيل أساس أي تنبؤ بظروف بيولوجية أو نفسية أو اجتماعية. ومع ذلك، فإن إحدى السمات الرئيسية لوجود الإنسان هي القدرة على تجاوز مثل هذه الظروف، والنمو خارجها. إن الإنسان قادر

(83) - الحتمية المطلقة Pan-Determinism: فكرة ترى أن سلوك الإنسان عرض من أعراض الظروف البيولوجية والاجتماعية. وبتعبير آخر، أن البشر لا يسيطرون على ما يصبحون عليه، ولكنهم يصبحون ببساطة بالصورة الذين ترغبهم جيناتهم وتربيتهم على أن يكونوا عليها. ولا يوافق فرانكل على الحتمية المطلقة - فهو يعتقد أن البشر لديهم إرادة حرة وقدرة على التغيير في أي لحظة (المترجم).

(84) - النظرية الجنسية المطلقة pan-sexualism: نظرية في علم النفس "تنظر إلى كل الرغبات والاهتمامات على أنها مستمدة من الغريزة الجنسية" أو بتعبير آخر نظرية ترى أن "الغريزة الجنسية تلعب الجزء الأساسي في كل نشاط بشري، عقلي وجسدي" (المترجم).

على تغيير العالم للأفضل إن أمكن، وتغيير نفسه للأفضل إذا لزم الأمر.

لأستشهد بحالة الدكتور ج. لقد كان الرجل الوحيد الذي قابلته في حياتي كلها والذي كنت أجرو على أن أصفه بأنه كائن مفيستوفيلي⁽⁸⁵⁾، شخصية شيطانية. في ذلك الوقت كان يطلق عليه بشكل عام «القاتل الجماعي في شتاينهوف» (مستشفى الأمراض العقلية الكبير في فيينا). حين بدأ النازيون برنامج القتل الرحيم، كان يمسك بكل الخيوط في يديه وكان متعصبًا للغاية في الوظيفة الموكلة إليه إلى درجة أنه حاول عدم السماح لأي شخص مُصاب بالذهان بالهروب من غرفة الغاز. بعد الحرب، حين عدت إلى فيينا، سألت ما الذي حدث للدكتور ج. أخبروني بأن «الروس سجنوه في إحدى زنازين العزل في شتاينهوف». ولكن في اليوم التالي، كان باب زنزانه مفتوحًا ولم يُر دكتور ج. مرة أخرى قط. «في وقت لاحق كنت مقتنعا أنه، مثل الآخرين، فرّ بمساعدة رفاقه وكان في طريقه إلى أمريكا الجنوبية. ولكن في الآونة الأخيرة، امتشارني دبلوماسي نمساوي سابق كان سجينًا خلف الستار الحديدي لسنوات عديدة، أولًا في سيبريا ثم في سجن لوبيانكا الشهير في موسكو. بينما كنت أفحصه عصبيًا، سألني فجأة عما إذا كنت قد تعرّفت على الدكتور ج. بعد ردي بالإيجاب، تابع: لقد توفي هناك، في الأربعين تقريبًا، بسبب سرطان المثانة البولية. قبل وفاته، تصرّف على أنه أفضل رفيق يمكنك تخيله! قدّم العزاء للجميع. لقد عاش على أعلى مستوى خلقي يمكن تصوّره. لقد كان أفضل صديق قابلته على الإطلاق خلال

(85) - مفيستوفيلي Mephistophelean: نسبة إلى مفيستوفيليس، الشخصية الرئيسية في الحكاية الألمانية الشعبية عن الخيميائي الألماني الدكتور يوهان فاوست الذي يبرم عقدًا مع الشيطان يسلم إليه روحه في مقابل الحصول على المعرفة المطلقة وكافة الملذات الدنيوية (المترجم).

سنوات حياتي الطويلة في السجن!»!

هذه قصة الدكتور ج. «القاتل الجماعي في شتاينهوف». كيف نجرؤ على التنبؤ بسلوك الإنسان؟ قد نتنبأ بحركات آلة، إنسان آلي. أكثر من ذلك، قد نحاول حتى التنبؤ بآليات أو «ديناميكيات» نفسية الإنسان أيضًا. لكن الإنسان أكثر من مجرد نفسية.

لكن الحرية ليست نهاية المطاف. فهي ليست سوى جزء من القصة ونصف الحقيقة. الحرية ليست سوى الجانب السلبي للظاهرة كلها التي لها جانب إيجابي هو المسؤولية. في الواقع، تكون الحرية في خطر أن تتدهور إلى مجرد تعسف ما لم تُمارس مرتبطة بالمسؤولية. لهذا السبب أوصي بأن يتم استكمال تمثال الحرية على الساحل الشرقي بتمثال المسؤولية على الساحل الغربي.

عقيدة الطب النفسي

لا يوجد شيء قابل للتصور من قبيل ظرف يمكن أن يجرد الإنسان من حرّيته كاملة ويتركه دون أدنى قدر من الحرية. وبالتالي، تُترك للإنسان بقايا حرّية، مهما كانت محدودة، في حالات الإصابة بالاضطرابات العصائية وحتى بالاضطرابات الذهانية. وبالفعل، إنّ الاضطراب الذهاني لا يمَسّ من جوهر شخصية المريض، جوهرها الأكثر عمقًا.

قد يفقد الفرد الذي يعاني من الذهان، بشكل لا يمكن علاجه،

القدرة على تقديم عمل نافع ولكنه يحتفظ بكرامة الإنسان. هذه هي عقيدتي في الطبّ النفسيّ. ومن دونها، لا أعتقد أنه من المفيد أن أكون طبيباً نفسياً. من أجل من؟ فقط من أجل آلة دماغية تالفة لا يمكن إصلاحها؟ إذا لم يكن المريض بالتأكيد أكثر من مجرد آلة دماغية، فسوف يكون القتل الرحيم مبرراً.

الطبّ النفسيّ يسترجع طابعه الإنسانيّ

لفترة طويلة جداً -لمدة نصف قرن، في الواقع- حاول الطبّ النفسيّ تفسير العقل البشريّ على أنه مجرد آليّة، وبالتالي كان علاج المرض العقليّ يتمّ على أنه مجرد تقنية. أعتقد أن هذا الحلم قد تمّ تخيله. ما يلوح الآن في الأفق ليس مخططات طبّ له طابع نفسيّ ولكنه بالأحرى طبّ نفسيّ ذو طابع إنسانيّ. ومع ذلك، فإنّ الطّبيب، الذي سوف يظلّ يفسّر دوره بشكل أساسيّ على أنه دورٌ تقنيّ، ينبغي أن يعترف بأنّه لا يرى في مريضه سوى آلة، بدلاً من رؤية الإنسان وراء المرض!

ليس الإنسان شيئاً ضمن أشياء أخرى؛ الأشياء تحدّد بعضها البعض، لكنّ الإنسان هو الذي يقرّر مصيره في نهاية المطاف. ما يصبح عليه -في حدود الموقف والبيئة- هو الذي صنعه بنفسه. ففي معسكرات الاعتقال مثلاً، في هذا المختبر الحيّ وعلى أرض اختبار من هذا النوع، رأينا وشاهدنا بعض رفاقنا يتصرّفون مثل الخنازير بينما تصرّف آخرون مثل القديسين. في داخل الإنسان نفسه إمكانيّات؛ والإمكانيّة التي تتحقّق تعتمد على القرارات وليس على الظروف.

جيلنا واقعيّ، لأننا عرفنا الإنسان كما هو حقًا. رغم كلّ شيء،
الإنسان هو الذي اخترع غرف الغاز في معسكر أوشفيتز؛ ومع ذلك،
فهو أيضًا، ذلك الذي دخل غرف الغاز هذه منتصب القامة، مع صلاة
الرّب أو اسمع إسرائيل على شفّتيه.

حاشية - 1984

مهدة إلى ذكرى إديث فيسكوف جويلسون، الذي بدأت جهوده الرائدة في العلاج بالمعنى في الولايات المتحدة في وقت مبكر يرجع إلى 1955 ومساهماته في هذا المجال لا تقدر بثمن.

حالة عن التفاؤل التراجيدي⁽⁸⁶⁾

دعونا نسأل أنفسنا أولاً ما الذي يجب أن يفهم من تعبير «التفاؤل التراجيدي». إنه يعني باختصار أن المرء متفائل ويبقى متفائلاً، رغم «الثالث التراجيدي»، كما يطلق عليه في العلاج بالمعنى، وهو ثالث يتكون من تلك الجوانب من الوجود البشري الذي قد يكون محدوداً بما يلي: (1) الألم؛ (2) والشعور بالذنب؛ (3) والموت. وي طرح هذا الفصل، في الواقع، السؤال التالي: كيف يمكن أن نقول نعم للحياة رغم هذا كله؟ ويمكن طرح السؤال بشكل مختلف: كيف يمكن للحياة أن تحتفظ بمعناها المحتمل رغم جوانبها التراجيديّة؟ رغم كل شيء، «نقول نعم

(86) - يعتمد هذا الفصل إلى محاضرة قدمتها في المؤتمر العالمي الثالث للعلاج بالمعنى Third World Congress of Logotherapy، في جامعة ريجنسبرج Regensburg، ألمانيا الغربية، في يونيو 1983 (المؤلف).

للحياة رغم كل شيء»⁽⁸⁷⁾، باستخدام التعبير الموجود في عنوان كتاب لي بالألمانية، يفترض مسبقاً أن الحياة ذات معنى محتمل تحت أي ظرف، حتى تلك الظروف الأكثر بؤساً. وهذا بدوره يفترض قدرة الإنسان على تحويل الجوانب السلبية للحياة بشكل خلاق إلى شيء إيجابي أو بناء. وبتعبير آخر، ما يهم هو تحقيق أفضل فائدة من أي موقف محدد. ومع ذلك، فإن «الأفضل»، هو ذلك الذي يُسمى باللاتينية «الأمثل - Optimum»، ولهذا السبب أتحدث عن التفاؤل التراجيدي، أي التفاؤل في مواجهة التراجيديا وفي ضوء الإمكانيات البشرية التي تسمح دائماً بأفضل ما تستطيع (1) تحويل المعاناة إلى إنجاز إنساني عظيم ومكتمل؛ (2) أن يستمد الإنسان من الشعور بالذنب فرصة لتغيير نفسه إلى الأفضل؛ (3) أن يستتج من زوال الحياة دافعاً لاتخاذ إجراءات مسؤولة.

ومع ذلك، يجب أن يوضع في الاعتبار أن التفاؤل ليس أمراً يجب أن يصدر به أمر أو طلب. لا يمكن للمرء حتى أن يجبر نفسه على التفاؤل بشكل عشوائي، رغم كل الصعاب، ضد كل أمل. وما يصح على الأمل يصح أيضاً على المكونين الآخرين في الثالوث بقدر ما لا يمكن أن يكون الإيمان والحب أيضاً أمرين بناء على أمر أو طلب.

بالنسبة إلى الأوروبيين، إن من السمات المميزة للثقافة الأمريكية أن المرء يؤمر، مرة بعد أخرى، ويُطلب منه أن «يكون سعيداً». لكن السعادة لا يمكن متابعتها؛ يجب أن تنشأ بصفاتها نتيجة. يجب أن يكون لدى المرء سبب «لأن يكون سعيداً». وبمجرد العثور على السبب، يصبح المرء

(87) - نقول نعم للحياة على الرغم من كل شيء saying yes to life in spite of everything: جزء من الترجمة الدقيقة للعنوان الألماني للكتاب الذي بين أيدينا (المترجم).

سعيداً بشكل تلقائي. كما نرى، إن الإنسان ليس شخصاً يسعى وراء السعادة بل يبحث عن سبب يجعله سعيداً، أخيراً وليس آخراً، من خلال تحقيق المعنى المحتمل المتأصل والكامن في موقف معين.

هذه الحاجة إلى سبب مماثل في ظاهرة بشرية أخرى بشكل خاص وهي ظاهرة الضحك. إذا كنت تريد أن يضحك أي شخص فعليك أن تقدم له سبباً للضحك، وعليك مثلاً، أن تحكي له نكتة. لا يمكن بأي حال من الأحوال إثارة الضحك الحقيقي من خلال حثه أو جعله يضحك نفسه على الضحك. إن القيام بذلك سوف يكون مثل حث الأشخاص الذين تم تصويرهم أمام الكاميرا على أن ينطقوا كلمة «الجبن - cheese»، فقط لتجد أن وجوههم في الصور النهائية مجمدة في ابتسامات مصطنعة.

في العلاج بالمعنى، يسمى هذا النمط السلوكي «النية المفرطة». وهو نمطوازي هذا السلوك، في معسكرات الاعتقال، سلوك أولئك الذين رفضوا في الخامسة من صباح أحد الأيام، الاستيقاظ والذهاب إلى العمل وبدلاً من ذلك مكثوا في الكوخ على القش المبلل بالبول والبراز. لا شيء - لا التحذيرات ولا التهديدات - كان يمكن أن يدفعهم إلى تغيير رأيهم. وبعد ذلك حدث شيء نموذجي: أخرجوا سيجارة من أعماق الجيب حيث كانوا قد أخفوها وشرعوا في التدخين. في تلك اللحظة عرفنا أنه في غضون الثماني والأربعين ساعة القادمة سوف نشاهدهم يحتضرون. انحسر التوجه إلى معنى، وبالتالي حل مكانه البحث عن المتعة الفورية.

ألا يذكرنا هذا بتوازٍ آخر، توازٍ يواجهنا يومًا بعد يوم؟ أفكر في هؤلاء الشباب الذين يشيرون إلى أنفسهم على نطاق عالمي بأنهم جيل «بلا مستقبل - "no future" Generation» من المؤكد أنهم لا يكتفون باللجوء إلى مجرد سيجارة؛ لكنهم يلجؤون إلى المخدرات.

إن مشهد المخدرات، في الواقع، هو أحد جوانب ظاهرة جماهيرية أكثر عمومية، وهي الشعور بعدم وجود معنى نتيجة لإحباط احتياجاتنا الوجودية وقد أصبح هذا الإحباط بدوره ظاهرة عالمية في مجتمعاتنا الصناعية. لا يزعم اليوم من يمارسون العلاج بالمعنى وحدهم بأن الشعور بعدم وجود معنى يلعب دورًا متزايدًا في مسببات العصاب. كما يقول إرفين د. يالوم من جامعة ستانفورد في العلاج النفسي الوجودي⁽⁸⁸⁾: «من بين أربعين مريضًا على التوالي يتقدمون للعلاج في عيادة خارجية للأمراض النفسية ... كان هناك اثنا عشر مريضًا (30 في المائة) يعانون من بعض المشاكل الرئيسية التي تتعلق بالمعنى (بناء على الحكم من التقييمات الذاتية أو أحكام المعالجين أو أحكام مستقلة)»⁽⁸⁹⁾. على بعد آلاف الأميال إلى الشرق من بالو ألتو⁽⁹⁰⁾، يختلف الوضع بنسبة 1 في المائة فقط؛ تشير أحدث الإحصاءات ذات الصلة إلى أن 29٪ من السكان في فيينا يشكون من أن المعنى مفقود في حياتهم.

بالنسبة إلى سبب الشعور بعدم وجود معنى، يمكن للمرء أن يقول، وإن كان ذلك في سياق مبسط بشكل مفرط، إن الناس لديهم ما يكفي

(88) - إرفين د. يالوم Irvin D. Yalom (1931 -): كاتب وطبيب نفسي أمريكي وجودي: وقد صدر كتابه العلاج النفسي الوجودي *Existential Psychotherapy* عام 1980 (المترجم).

(89) - Basic Books, New York, 1980, p. 448.

(90) - بالو ألتو Palo Alto: إحدى مدن مقاطعة سانتا كلارا، في ولاية كاليفورنيا (المترجم)

لأن يعيشوا عليه ولكنه ليس لديهم شيء يعيشون من أجله؛ لديهم الوسائل ولكن ليس لديهم معنى. ومن المؤكد أن بعض الناس لا يمتلكون حتى الوسائل. على وجه الخصوص، أفكر في مجموعة الناس العاطلين عن العمل اليوم. منذ خمسين عامًا، نشرت دراسة⁽⁹¹⁾ مكرّسة لنوع معيّن من الاكتئاب قمت بتشخيصه في حالات المرضى الشباب الذين يعانون مما أطلقتُ عليه اسم «عصاب البطالة - Unemployment Neurosis» وقد استطعتُ أن أوضح أن هذا العصاب نشأ حقًا نتيجة تطابق ينطوي على خطأ مزدوج: إن البطالة كانت تعادل عدم الجدوى، وإن عدم الجدوى كان يعادل حياة لا معنى لها. وبالتالي، كلما نجحت في إقناع المرضى بالتطوُّع في منظمات الشباب، وتعليم الكبار والمكتبات العامة وما شابه ذلك - وبعبارة أخرى، بمجرد أن تمكن المرضى من ملء وقت فراغهم الوفير بنوع من النشاط غير المدفوع ولكنه ذو مغزى - اختفى اكتئابهم رغم أن وضعهم الاقتصادي لم يتغير وكان جوعهم على حاله. الحقيقة هي أن الإنسان لا يعيش بالرفاهية وحدها.

إلى جانب عصاب البطالة، الذي يتفاقم نتيجة الوضع الاجتماعي والاقتصادي للفرد، هناك أنواع أخرى من الاكتئاب يمكن إرجاعها إلى الحالات النفسية الديناميكية أو البيوكيميائية، أيًا كانت الحالة. ووفقًا لذلك يتم وصف العلاج النفسي والعلاج الدوائي على التوالي. ومع ذلك، فيما يتعلق بالشعور بعدم وجود معنى ينبغي ألا نغفل أو ننسى أنه

(91) - الأزمة الاقتصادية والحياة الروحية من وجهة نظر مرشد الشباب Wirtschaftskrise und "Seelenleben vom Standpunkt des Jugendberaters". مجلة Sozialärztliche Rundschau، المجلد الرابع (1933). ص 43 - 46 (المؤلف).

في حد ذاته، ليس أمرًا يتعلّق بعلم الأمراض؛ بدل أن يكون علامة وعَرَضًا لنوع من العصاب، يمكن القول إنّه دليل على إنسانيّة المرء. ولكن رغم أنّه لا يحدث نتيجة لأيّ شيء مرضيّ، إلاّ أنّه قد يسبّب تفاعلاً مرضيّاً؛ وبالتالي، من المحتمل أن يكون مسبباً للمرض. فقط لنضع في الاعتبار متلازمة العصاب الجماعيّ المنتشرة في جيل الشّباب: هناك الكثير من الأدلّة التجريبيّة على أنّ الجوانب الثلاثة لهذه المتلازمة - الاكتئاب والعدوان والإدمان - بسبب ما يسمّى في العلاج بالمعنى «الفراغ الوجودي»، أيّ الشّعور بالفراغ وعدم وجود معنى.

وغنيّ عن القول إنّه لا يمكن تتبّع كلّ حالة من حالات الاكتئاب ونسبتها إلى الشّعور بعدم وجود معنى، وكذلك الحال في الانتحار - الذي يكون نتيجة الاكتئاب في بعض الأحيان - فإنّه يتّج دائماً عن فراغ وجوديّ. ولكن حتّى لو لم تكن كلّ حالة انتحار تنفّذ بدافع من الشّعور بعدم وجود معنى، فقد يكون من الممكن التغلّب على اندفاع الفرد إلى الانتحار لو كان على وعي بمعنى ما وهدف يستحقّ أن يعيش من أجلها.

وبالتّالي، إذا كان وجود توجّه له معنى قويّ يلعب دوراً حاسماً في منع الانتحار، فماذا عن التدخّل في الحالات التي يوجد فيها خطر الانتحار؟ حين كنتُ طبيباً شاباً قضيتُ أربع سنوات في أكبر مستشفى في النمسا حيث كنت مسؤولاً عن الجناح الذي يقيم فيه مرضى الاكتئاب الشّديد، تمّ حجز معظمهم بعد محاولة انتحار. لقد حسبتُ ذات مرّة أنّه لا بدّ أنّي قد فحصتُ اثني عشر ألف مريض خلال تلك السّنوات الأربع. ما قد

تراكم كان يمثل مخزنًا للخبرة مازلتُ أستفيد منه كلما واجهت شخصًا عرضة للانتحار. أشرح لمثل هذا الشخص أن المرضى حكوا لي بشكل متكرر عن مدى سعادتهم لأن محاولة الانتحار لم تنجح؛ قالوا لي بعد أسابيع وأشهر وبعد سنوات، إنه قد تبين أنه كان هناك حل لمشكلتهم، وإجابة على سؤالهم، ومعنى لحياتهم. يتواصل الشرح الذي أقدمه: «حتى لو اتخذت الأمور مثل هذا المنعطف الجيد في واحدة من آلاف الحالات، من يستطيع أن يضمن أن ذلك لن يحدث في يوم ما في حالتك، عاجلاً أم آجلاً؟ ولكن في البداية، يجب أن تعيش لترى اليوم الذي قد يحدث فيه، لذلك عليك أن تعيش من أجل أن ترى ذلك اليوم يشرق، ومن ذلك الوقت فصاعدًا، فإن مسؤولية البقاء على قيد الحياة لن تفارقك».

في ما يتعلق بالوجه الثاني لمتلازمة العصاب الجماعي - العدوان - دعوني أستشهد بتجربة أجرتها كارولين وود شريف⁽⁹²⁾ ذات يوم. لقد نجحت في بناء عداوات متبادلة بشكل مصطنع بين مجموعات من صبية الكشافة، ولاحظت أن العداوات كانت تهدأ فقط حين يكرس الشباب أنفسهم لغرض جماعي - أي مهمة مشتركة كانت تتمثل في سحب عربة من الوحل إذ كان لا بد من إحضار الطعام فيها إلى معسكرهم. على الفور، لم يتم تحديدهم فقط ولكن تم توحيدهم أيضًا بواسطة معنى كان عليهم الوفاء به.⁽⁹³⁾

92 - كارولين وود شريف Carolyn Wood Sherif (1922 - 1982): عالمة أمريكية في علم النفس الجماعي وقد ساهمت بأبحاث رائدة في عدة مجالات (المترجم).

93 - لمزيد من المعلومات حول هذه التجربة، انظر فيكتور إ. فرانكل، إله اللاوعي *The Unconscious*، نيويورك، دار سيمون وشوستر Simon and Schuster، 1978، ص 140؛ وفيكتور إ. فرانكل، صرخة غير مسموعة من أجل المعنى *The Unheard Cry for Meaning*، نيويورك، دار سيمون وشوستر، 1978، ص 36 (المؤلف).

أما بالنسبة إلى المسألة الثالثة، وهي الإدمان، فأنا أتذكر النتائج التي قدّمتها أنميري فون فورستماير التي أشارت، كما يتّضح من الاختبارات والإحصاءات، إلى أن 90 في المائة من مدمني الكحول الذين عالجتهم كانوا يعانون من شعور سيّء بعدم وجود معنى. من بين مدمني المخدرات الذين عالجهم ستانلي كريبنر، أعتقد أن «الأمور بدت» بنسبة 100 في المائة «بلا معنى».⁽⁹⁴⁾

فلنتقل الآن إلى مسألة المعنى نفسه. في البداية، أودّ أن أوضح أنّ المعالج بالمعنى يعالج أولاً المعنى المحتمل المتأصل والكامن في جميع الحالات الفرديّة التي ينبغي على المرء أن يواجهها طوال حياته، أو طوال وجودها. وبالتالي لن أشرح هنا معنى حياة المرء عموماً، رغم أنّي لا أنكر وجود مثل هذا المعنى بعيد المدى. لاستدعاء التماثل الجزئيّ، لنفكر في فيلم: إنّهُ يتكوّن من عدّة آلاف من الصّور الفرديّة، وكلّ صورة منها تشكّل معنى وتحمل معنى، ومع ذلك لا يمكن إدراك معنى الفيلم كلّهُ قبل عرض المشهد الأخير منه. ومع ذلك، لا يمكن أن نفهم الفيلم كلّهُ دون أن نفهم أولاً كلّ مكوّن من مكوّناته، كلّ صورة من الصّور الفرديّة. أليس هذا هو الحال مع الحياة؟ ألا يتجلّى المعنى النهائيّ للحياة أيضاً، إذا كان له أن يتجلّى عموماً، إلّا في نهاية الحياة فقط، على حافة الموت؟ ألا يعتمد هذا المعنى النهائيّ أيضاً على ما إذا كان المعنى المحتمل لكلّ حالة قد تمّ تحقيقه على أفضل وجه بالنسبة إلى معرفة الفرد المعنيّ ومعتقدهِ؟

(94) - ستانلي كريبنر Stanley Krippner (1932 -): عالم نفس أمريكي. متخصص في علم التخاطر. وأستاذ علم النفس في جامعة سايبروك في أوكلاند. في ولاية كاليفورنيا (المترجم). لمزيد من المعلومات، انظر إله اللاوعي. ص 97 - 100: وصرخة غير مسموعة من أجل المعنى. ص 26 - 28 (المؤلف).

تبقى حقيقة أن إدراك المعنى، كما يُرى من زاوية العلاج بالمعنى، ينحدر تمامًا إلى الأرض بدلاً من أن يطفو في الهواء أو يقيم في برج عاجي. بشكل عام، كنت أحدد إدراك المعنى - إدراك المعنى الشخصي للموقف الملموس - في منتصف الطريق بين خبرة «آه»⁽⁹⁵⁾ على غرار مفهوم كارل بوهلر⁽⁹⁶⁾ والإدراك الجشتالتي مثلًا، على غرار نظرية ماكس فيرثيمر⁽⁹⁷⁾. يختلف إدراك المعنى عن المفهوم الكلاسيكي للإدراك الجشتالتي بقدر ما يشير الأخير إلى الإدراك المفاجئ لـ «شخص» على «أرض»، في حين أن إدراك المعنى، كما أراه، يتلخص بشكل أكثر تحديدًا في إدراك إمكانية على خلفية الواقع، أو للتعبير عن الأمر بكلمات واضحة، أن يدرك المرء ما يمكن القيام به حيال موقف معين.

وكيف يشرع الإنسان في العثور على معنى؟ كما صرحت شارلوت بوهلر⁽⁹⁸⁾: «كل ما يمكننا القيام به هو دراسة حيوات الأشخاص الذين يبدو أنهم وجدوا إجابات على الأسئلة المتعلقة بموضوع حياة الإنسان في نهاية المطاف مقابل حيوات أولئك الذين لم يجدوا إجابات على تلك الأسئلة»⁽⁹⁹⁾. ومع ذلك، بالإضافة إلى مثل هذه المقاربة المتعلقة بالسير الذاتية، قد نبدأ أيضًا في مقاربة بيولوجية. يتصور العلاج بالمعنى الضمير

(95) - خبرة "آه aha": رد الفعل الانفعالي الذي يحدث عادة في لحظة التبصر المفاجئ في مشكلة أو قضية معقدة. في العلاج النفسي، هي رؤية العميل بشكل مفاجئ لدوافعه للإدراك أو التأثير أو السلوك. تسمى أيضا لحظة آه أو تفاعل آه (المترجم).

(96) - كارل بوهلر Karl Bühler (1879 - 1963): عالم ألماني في علم النفس واللسانيات (المترجم).

(97) - ماكس فيرثيمر Max Wertheimer (1880 - 1943): عالم نفس من أصول نمساوية مجرية، وأحد مؤسسي علم النفس الجشتالتي (المترجم).

(98) - شارلوت بوهلر Charlotte Bühler (1893 - 1974): عالمة نفس أمريكية من أصول ألمانية (المترجم).

(99) - "مفاهيم نظرية أساسية في علم النفس الإنساني Basic Theoretical Concepts of Humanistic Psychology". مجلة American Psychologist، 26، (أبريل 1971)، ص 387 (المؤلف).

على أنه الموجه الذي يشير، إذا لزم الأمر، إلى المجال الذي يجب أن نتحرك فيه في حالة معينة في حياتنا. من أجل تنفيذ مثل هذه المهمة، يجب أن يطبق الضمير أداة القياس على الوضع الذي يواجهه المرء، ويجب تقييم هذا الوضع في ضوء مجموعة من المعايير، في ضوء التسلسل الهرمي للقيم. ومع ذلك، لا يمكن تبني هذه القيم واعتمادها على مستوى واعٍ - فهي ما نحن عليه. وقد تبلورت في سياق تطور جنسنا البشري؛ إنها مبنية على ماضينا البيولوجي ومتجذرة في عمقنا البيولوجي. قد كان في عقل كونراد لورينز⁽¹⁰⁰⁾ شيء مشابه حين طور مفهوم «بداهة - priori - البيولوجي»، وحين ناقش كلانا مؤخرًا وجهة نظري الخاصة حول الأساس البيولوجي لعملية التقييم، أعرب عن اتفاقه بحماس. على أي حال، في حالة وجود فهم ذاتي للقيمة الفلسفية سابقة على التفكير، قد نفترض أنه مرتبط في نهاية المطاف بترائنا البيولوجي.

كما يعلمّ العلاج بالمعنى، أنّ هناك ثلاث طرق رئيسية يصل منها المرء إلى معنى في الحياة. الأول عن طريق ابتكار شغل أو القيام بعمل؛ والثاني بالشعور بشيء ما أو لقاء شخص ما؛ وبالتالي، يمكن العثور على المعنى ليس في العمل فقط ولكن في الحبّ أيضًا. لاحظت إديث ويسكوف جويلسون في هذا السياق أنّ «مفهوم» العلاج بالمعنى «أنّ الشعور يمكن أن يكون ذا قيمة مثل تحقيقه مفهومًا علاجيًا لأنّه يعوّض تركيزنا من جانب واحد على العالم الخارجي للإنجاز على حساب عالم الخبرة

(100) - كونراد لورينز Konrad Lorenz (1903 - 1989): عالم نمساوي، تخصص في علم الحيوان وعلم نفس الحيوانات؛ ويعتبر أحد مؤسسي علم سلوك الحيوانات؛ وقد حصل على جائزة نوبل مع عالمين آخرين في الطب وعلم وظائف الأعضاء في عام 1973 (المترجم).

ولكن الطريق الأكثر أهمية هو الطريق الثالث إلى المعنى في الحياة: حتى الضحية البائس لموقف ميؤوس منه، الذي يواجه مصيرًا لا يمكنه تغييره، قد يتفوق على نفسه، قد يتجاوز ظروفه، وبهذا يقوم بتغيير نفسه. قد يحول مأساة شخصية إلى انتصار. مرة أخرى كانت إديث ويسكوف جويلسون هي التي عبرت، كما ذكرنا من قبل (ص 148)، ذات مرة عن الأمل في أن العلاج بالمعنى «قد يساعد على مواجهة بعض الاتجاهات غير الصحية في الثقافة الحالية للولايات المتحدة، إذ لا يمنع من يعاني من معاناة لا شفاء منها سوى فرصة ضئيلة جدًا للفخر بمعاناته واعتبارها نبلاً وليست أمرًا مهينًا «بحيث» لا يتخلص فقط من تعاسته، بل ينجل أيضًا من أنه تعيس».

لمدة ربع قرن، كنت أدير قسم الأعصاب في مستشفى عام وكنت شاهدًا على قدرة مرضاي على تحويل مآزقهم إلى إنجازات إنسانية. بالإضافة إلى مثل هذه الخبرة العملية، تتوفر أيضًا أدلة تجريبية تدعم إمكانية أن يجد المرء معنى في المعاناة. «لقد تأثر» الباحثون في كلية الطب بجامعة ييل «بعدد أسرى الحرب في حرب فيتنام الذين ادّعوا صراحةً أنه رغم أن أسرهم كان مرهقًا للغاية - مليئًا بالتعذيب والمرض وسوء التغذية والحبس الانفرادي - إلا أنهم مع ذلك... قد استفادوا من خبرة

(101) - "مكان العلاج بالمعنى في عالم اليوم The Place of Logotherapy in the World Today". المنتدى الدولي للعلاج بالمعنى *The International Forum for Logotherapy*. المجلد الأول. العدد الثالث (1980). ص 3 - 7 (المؤلف).

الأسر، واعتبروها خبرة ساعدتهم على النضج.⁽¹⁰²⁾

لكن أقوى الحجج التي تؤيد «التفاؤل التراجيدي» هي تلك التي تسمى باللاتينية مغالطات الشخصية.⁽¹⁰³⁾ جيري لونج مثلاً، هي شهادة حية على «القوة الجريئة لروح الإنسان»، كما يطلق عليها في العلاج بالمعنى⁽¹⁰⁴⁾. على حد تعبير صحيفة تكساركانا جازيت⁽¹⁰⁵⁾: «أصيب جيري لونج بالشلل من عنقه إلى أسفل نتيجة حادث غوص أصابه بشلل رباعي قبل ثلاث سنوات. كان في السابعة عشرة حين وقع الحادث. اليوم يستطيع لونج أن يستخدم عصا في فمه للكتابة. يحضر دورتين دراسيتين في كلية المجتمع عبر هاتف خاص. ويسمح نظام الاتصال الداخلي للونج بالاستماع والمشاركة في المناقشات التي تجري في الفصل. كما أنه يشغل وقته بالقراءة ومشاهدة التلفزيون والكتابة». وفي رسالة تلقيتها منه، كتب: «أرى أن حياتي غنية بالمعنى والهدف. أصبح الموقف الذي تبنيتُه في ذلك اليوم المشؤوم عقيدة شخصية مدى الحياة: كسرتُ رقبتني ولم أنكسر. أنا مسجل حالياً في أول دورة في علم نفس في الكلية. أعتقد أن إعاقتي سوف تعزز فقط قدرتي على مساعدة الآخرين. أعرف أن النضج الذي حققته كان من المستحيل أن أحققه دون المعاناة».

(102) - . W. H. Sledge, J. A. Boydston and A. J. Rabe, "Self-Concept Changes Related to War Captivity," *Arch. Gen. Psychiatry*, 37 (1980), pp. 430-443.

(103) - مغالطات الشخصية *argumenta ad hominem*: مصطلح يطلق على عدة أنواع من الحجج، ومعظمها مغالطات. ويشير عادة إلى استراتيجية جدلية مضللة يتم من خلالها تجنب مناقشة حقيقية للموضوع المطروح من خلال مهاجمة شخصية أو دافع أو سمة أخرى للشخص الذي يقدم الحجة، أو الأشخاص المرتبطين بالحجة، بدلاً من مهاجمة جوهر الحجة نفسها (المترجم).

(104) - كان «القوة الجريئة لروح الإنسان *The Defiant Power of the Human Spirit*» في الحقيقة عنوان بحث قدمه لونج في المؤتمر العالمي الثالث للعلاج بالمعنى في يونيو 1983 (المؤلف).

(105) - تكساركانا جازيت *Texarkana Gazette*: صحيفة يومية تأسست في عام 1875، وتكساركانا مدينة في ولاية تكساس (المترجم).

هل يعني هذا أن المعاناة لا غنى عنها لاكتشاف المعنى؟ لا، قطعاً. أنا
أصرّ فقط على أن المعنى متاح رغم المعاناة - وحتى من خلالها -، شريطة،
كما هو مذكور في الجزء الثاني من هذا الكتاب، أن تكون معاناة لا يمكن
تجنبها. إذا كان من الممكن تجنبها، فإن الشيء المفيد الذي يجب القيام به
هو إزالة سببها، لأن المعاناة غير الضرورية مازوشية وليست بطولة. من
ناحية أخرى، إذا لم يتمكن المرء من تغيير موقف يسبب له المعاناة، فلا
يزال في استطاعته اختيار موقفه⁽¹⁰⁶⁾. لم يختر لونغ أن يكسر رقبتة، لكنه
قرر ألا يدع نفسه تنكسر بسبب ما حدث له.

كما نرى، تبقى الأولوية لتغيير الوضع الذي يسبب لنا المعاناة، لتغييره
بشكل خلاق. لكن السمو يمضي إلى «معرفة كيف نعاني»، إذا لزم الأمر.
وهناك أدلة تجريبية على أن «رجل الشارع» - بكل معنى الكلمة - له
الرأي نفسه. أفاد استطلاع للرأي العام النمساوي أُجري مؤخراً أن
أولئك الذين يتمتعون بتقدير كبير من قبل معظم الأشخاص الذين تمت
مقابلتهم ليسوا من الفنانين العظماء ولا العلماء العظماء، ولا رجال الدولة
العظماء ولا الشخصيات الرياضية العظيمة، ولكن أولئك الذين يتقنون
التعامل مع الكثير من الصعاب ورؤوسهم مرفوعة.

بالانتقال إلى الجانب الثاني من الثلاث التراجيدي، وهو الشعور
بالذنب، أودّ أن أبتعد عن المفهوم اللاهوتي الذي كان بالنسبة إليّ فاتناً

(106) - لن أنسى مقابلة سمعتها ذات مرة على تلفزيون النمسا. قدمها طبيب قلب بولندي ساعد خلال
الحرب العالمية الثانية في تنظيم اضطراب الحي اليهودي في وارسو. صاح الصحافي: "يا له من عمل
بطولي". رد الطبيب بهدوء قائلاً: "اسمع إن إشهار مسدس وإطلاق النار ليس شيئاً عظيماً. ولكن إذا
فادت القوات الخاصة إلى غرفة غاز أو إلى مقبرة جماعية لإعدامك على الفور، ولا يمكنك أن تفعل أي
شيء، حبال ذلك - إلا أن تمضي في طريقك بكرامة - كما ترى، هذا ما أسميه البطولة." بطولة موقف
Attitudinal heroism. إذا جاز التعبير (المؤلف).

دائمًا. أشير إلى ما يسمّى سرّ الإثم⁽¹⁰⁷⁾، ويعني، كما أراه، أنّ الجريمة في التحليل النهائي لا تزال غير قابلة للتفسير بقدر ما لا يمكن إرجاعها بالكامل إلى العوامل البيولوجية و / أو النفسية و / أو الاجتماعية. إنّ تفسير جريمة المرء تفسيرًا كاملاً سوف يكون بمثابة توضيح لإثبات ذنبه، أو ذنبها، وألا نرى فيه، أو فيها، إنسانًا حرًا ومسؤولًا بل آلة يجب إصلاحها. حتّى المجرمون أنفسهم يكرهون هذه المعاملة ويفضلون تحمّل المسؤولية عن أفعالهم. تلقّيت من شخص صدر ضده حكم ويقضى عقوبته في سجن إينوي، رسالة أعرب فيها عن أسفه لأنّ «المجرم لم يكن لديه فرصة لتفسير موقفه. تُقدّم إليه مجموعة متنوعة من الأعذار للاختيار من بينها. إنّ المجتمع هو الملام وفي كثير من الحالات يقع اللوم على الضحية. وبالإضافة إلى ذلك، حين خاطبت السجّناء في سجن سان كوينتين⁽¹⁰⁸⁾، قلتُ لهم إنكم «بشر مثلي، وبالتالي أنتم أحرار في أن ترتكبوا جريمة، وفي أن تصبحوا مذنبين. ومع ذلك، أنتم الآن مسؤولون عن التغلّب على الشّعور بالذنب من خلال التفوّق عليه، والتفوّق على أنفسكم، والتغيّر نحو الأفضل». بدا أنّهم يفهمون⁽¹⁰⁹⁾.

ومن فرانك إي دبليو، وهو سجين سابق، تلقّيت رسالة قصيرة تفيد بأنّه «بدأ مجموعة علاج بالمعنى للجنة السابقين. نحن 27 من الأشخاص الأقوياء والأحدث نبقي خارج السّجن من خلال قوّة أقراننا من

(107) - سرّ الإثم *mysterium iniquitatis*: باللاتينية في الأصل (المترجم).

(108) - سجن سان كوينتين San Quentin: سجن للرجال في مدينة سان كوينتين، شمال مدينة سان فرانسيسكو، في ولاية كاليفورنيا (المترجم).

(109) - انظر أيضًا جوزيف ب. فابري Fabry، ملاحقة المعنى *The Pursuit of Meaning*، نيويورك، دار Harper and Row، 1980 (المؤلف).

المجموعة الأصلية. وقد عاد واحد فقط، وهو الآن حرّ». (110)

بالنسبة إلى مفهوم الذنب الجماعي، أعتقد شخصياً أنه من غير المبرر على الإطلاق تحميل شخص مسؤولية سلوك شخص آخر أو مسؤولية مجموعة من الأشخاص. فمذ نهاية الحرب العالمية الثانية، لم أمل من الجدل العام ضد مفهوم الذنب الجماعي. (111) ومع ذلك، يتطلب الأمر أحياناً الكثير من الحيل التعليمية لفصل الناس عن معتقداتهم الخرافية. واجهتني امرأة أمريكية ذات يوم لائمة: «كيف يمكن أن تستمر في كتابة بعض كتبك باللغة الألمانية، لغة أدولف هتلر؟» ورداً على ذلك، سألتها إن كان لديها سكاكين في مطبخها، وحين أجابت بأنه لديها، تصرفت بفرع وعبرت عن صدمتي هاتفاً: «كيف يمكن أن تستمر في استخدام السكاكين بعد أن استخدمها عدد كبير من القتلة لظعن ضحاياهم وقتلهم؟» فتوقفت عن الاعتراض على أنني أكتب باللغة الألمانية.

الجانب الثالث من الثالوث التراجيدي يتعلق بالموت. ولكنه يتعلق بالحياة أيضاً، لأنه في أي وقت تموت باستمرار لحظة من اللحظات التي تكون منها الحياة، ولن تتكرر تلك اللحظة أبداً. ومع ذلك، أليس هذا الزوال تذكيراً يتحدانا للاستفادة إلى أقصى حد ممكن من كل لحظة من حياتنا؟ إنه كذلك بالتأكيد، ومن ثم تأتي صيغة الأمر التي أستخدمها: عش كما لو كنت تعيش بالفعل للمرة الثانية وكأنك تصرف في المرة الأولى بشكل خاطئ وأنت على وشك أن تصرف الآن بالشكل نفسه.

(110) - راجع فيكتور إ. فرانكل، كتاب صرخة غير مسموعة من أجل المعنى، نيويورك، دار سيمون وشوستر، 1978، ص 42 - 43 (المؤلف).

(111) - انظر أيضاً، فيكتور إ. فرانكل، كتاب العلاج النفسي والوجودية *Psychotherapy and Existentialism*، نيويورك، دار سيمون وشوستر، 1967 (المؤلف).

في الواقع، تتأثر فرص العمل بشكل صحيح، وإمكانيات تحقيق معنى، بحجة أن حياتنا لا رجعة فيها. ولكن الإمكانيات وحدها تتأثر أيضاً إلى حد بعيد. بمجرد أن نكون قد انتهزنا الفرصة وحققنا معنى محتملاً، نكون قد حققناه مرة وإلى الأبد. لقد أنقذناه في الماضي إذ تم تسليمه وإيداعه بأمان. في الماضي، لا شيء يفقد فقدًا لا رجعة فيه، لكن، على العكس، كل شيء يُخزّن تخزينًا ويُحفظ وحفظًا لا رجعة فيهما. ومن المؤكد أن الناس يميلون إلى رؤية حقول قش الزوال فقط في حياتهم ولكنهم يتجاهلون وينسون مخازن الحبوب الكاملة، مخازن الماضي التي جلبوا إليها حصاد حياتهم: الأفعال التي فعلوها، والحب الذي أحبوه، وأخيرًا وليس آخرًا، المعاناة التي مروا بها بشجاعة وكرامة.

وانطلاقاً من هذا قد يرى المرء أنه لا يوجد سبب للشفقة على كبار السن. يجب أن يحسدهم الشباب بدلاً من ذلك. صحيح أن المسنين ليس لديهم فرص، ولا إمكانيات في المستقبل. لكن لديهم أكثر من ذلك. فبدلاً من الاحتمالات في المستقبل، لديهم حقائق في الماضي - الإمكانيات التي حققوها والمعاني التي استوفوها والقيم التي أدركوها - ولا يستطيع أي شيء، أو أي أحد، إزالة هذه الأصول من الماضي.

بالنظر إلى إمكانية إيجاد معنى في المعاناة، فإن معنى الحياة غير شرطي، افتراضاً على الأقل. ومع ذلك، فإن هذا المعنى غير الشرطي تقابله القيمة غير الشرطية لكل شخص وكل الأشخاص. هذا هو ما يضمن خاصية كرامة الإنسان التي لا تُمحي. مثلما تظل الحياة ذات مغزى تحت أي ظرف من الظروف، حتى تلك الأكثر بؤساً، تظل كذلك قيمة كل

شخص معه، أو معها، لأنها تستند إلى القيم التي أدركها هو، أو هي، في الماضي، ولا تتوقف على الفائدة التي قد يحتفظ بها المرء، أو تحتفظ بها، أو لا يحتفظ بها في الوقت الحاضر.

وبشكل أكثر تحديداً، يتم تعريف هذه الفائدة عادةً من حيث وظيفتها لصالح المجتمع. لكن مجتمع اليوم يتميز بالتوجه إلى الإنجاز، وبالتالي فهو يوقر الناجحين والسعداء، ويوقر الشباب على وجه الخصوص. إنه بنجاهل فعلياً قيمة كل من هم على خلاف ذلك، وبذلك فإنه يطمس الاختلاف الحاسم بين أن يكون للمرء قيمة بمفهوم الكرامة وأن يكون له قيمة بمفهوم الفائدة. إذا لم يكن المرء مدركاً هذا الاختلاف ويرى أن قيمة الفرد تنبع فقط من فائدته الحالية، فصدقوني إذن، يكون المرء مديناً فقط لعدم اتساق الشخصية حين لا يدعو إلى القتل الرحيم على غرار برنامج هتلر، وهذا يعني، قتل «الرحمة» لجميع الذين فقدوا فائدتهم الاجتماعية، سواء بسبب الشيخوخة أو المرض المستعصي أو التدهور العقلي أو أي إعاقة قد يعانون منها.

ينشأ الخلط بين كرامة الإنسان وفائدته فقط من الارتباك في المفاهيم، الذي يمكن إرجاعه بدوره إلى العدمية المعاصرة التي تنتقل في عديد المباني الجامعية والأرائك التحليلية. وقد يحدث مثل هذا التلقين حتى في وضع تحليلات التدريب. لا تؤكد العدمية أنه لا يوجد شيء، لكنها تنص على أن كل شيء لا معنى له. وكان جورج أ. سارجنت⁽¹¹²⁾ على حق عندما نشر مفهوم «عدم المعنى المكتسب». تذكر هو نفسه معالجاً قال: «يا

(112) - جورج أ. سارجنت George A. Sargent: عالم نفس أمريكي، توفي في عام 1998 (المترجم).

جورج، يجب أن تدرك أن العالم نكتة. لا توجد عدالة، وكل شيء عشوائي. فقط حين تدرك هذا تفهم مدى سخافة أن تتعامل بجدية. لا يوجد هدف كبير في الكون. إنه بهذا الشكل بالضبط. ليس هناك معنى خاص في أي قرار تتخذه اليوم حول كيفية أن تتصرف»⁽¹¹³⁾.

على المرء ألا يعمّم مثل هذا النقد. ومن حيث المبدأ، لا غنى عن التدريب، ولكن إذا كان الأمر كذلك، يجب أن يرى المعالجون مهمتهم في تحصين المتدرب ضدّ العدميّة بدلاً من تطعيمه بالسّخرية التي هي آليّة دفاعيّة ضدّ العدميّة التي يتمتّعون بها.

قد يتوافق أخصّائيو العلاج بالمعنى مع بعض متطلّبات التّدريب والتّرخيص المنصوص عليها في مدارس العلاج النفسيّ الأخرى. وبالتالي، يمكن للمرء أن يعوي مع الذّئاب، إذا لزم الأمر، ولكن عند القيام بذلك، على المرء أن يكون، وأودّ أن أوكد على ذلك، حملاً في ثياب الذّئب. وليس هناك حاجة إلى أن يصبح المرء غير وقيّ للمفهوم الأساسيّ للإنسان ومبادئ فلسفة الحياة المتأصّلة في العلاج بالمعنى. ليس من الصّعب الحفاظ على هذا الولاء في ضوء حقيقة أنّه، كما أشارت إليزابيث س. لوكاس ذات يوم: «طوال تاريخ العلاج النفسيّ، لم تكن هناك مدرسة غير متزمّنة عقائديّاً مثل العلاج بالمعنى»⁽¹¹⁴⁾. وفي المؤتمر العالمي

(113) - "الإحالة والإحالة المضادة في العلاج بالمعنى Transference and Countertransference in Logotherapy"، المنتدى الدولي للعلاج بالمعنى *The International Forum for Logotherapy*، المجلد الخامس، العدد الثاني، (خريف / شتاء 1982)، ص 115 - 118 (المؤلف).

(114) - إليزابيث س. لوكاس Elisabeth S. Lukas (1942 -): معالجة نفسية نمساوية (المترجم). لا يفرض العلاج بالمعنى على أولئك الذين يهتمون بالعلاج النفسي. إنه لا يقارن بالبازار الشرقي بل بالسوبر ماركت. في الأول، يتحدث العميل عن شراء شيء ما. في هذا الأخير، يعرض على العميل ويقدم إليه أشياء مختلفة يمكنه من خلالها اختيار ما يراه مفيداً وقيماً (المؤلف).

الأول للعلاج بالمعنى (Congress of Logotherapy First World)
سان دييجو، كاليفورنيا، 6 - 8 نوفمبر 1980) لم أجادل فقط في شأن
إعادة إنسانية العلاج النفسي مرة أخرى ولكن أيضًا في شأن ما أسميه
«انحلال العلاج بالمعنى». لا يكمن اهتمامي في تربية البيغاوات التي تكرر
اصوت صاحبها»، بل بالأحرى في تمرير الشعلة إلى «أرواح مستقلة
ومبدعة ومبتكرة وخلاقة».

قال سيجموند فرويد ذات مرة مؤكدًا: «دع المرء يحاول أن يعرض
عددًا من الأشخاص الأكثر تنوعًا للجوع معًا بالقدر نفسه. مع زيادة
الرغبة الملحة في الجوع، سوف تُطمس كل الاختلافات الفردية، وبدلاً
من ذلك سوف يظهر التعبير بالقدر نفسه عن الرغبة التي لا تهدأ». بفضل
السَّاء، نجا سيجموند فرويد من معرفة معسكرات الاعتقال من
الداخل. كان زبائنه يستلقون على أريكة مصممة بأفخم أساليب الثقافة
الفيكتورية، وليست في قذارة معسكر أوشفيتز. هناك، لم «تطمس
الاختلافات الفردية» ولكن، على العكس، أصبح الناس أكثر اختلافًا؛
كشف الناس عن أنفسهم، سواء كانوا خنازير أم قديسين. واليوم لم تعد
في حاجة إلى التردد في استخدام كلمة «القديسين»: فكّر في الأب
ماكسيميليان كولبي⁽¹¹⁵⁾ الذي تم تجويعه بشكل مميت وقتل في النهاية
عن طريق حقنه بحمض الكربوليك (الفينول) في معسكر أوشفيتز وفي
عام 1983 وتم تكريسه قديسًا.

قد تكون عرضة للوم لاستدعاء الأمثلة التي هي استثناء للقاعدة.

(115) - الأب ماكسيميليان كولبي Father Maximilian Kolbe (1894 - 1941): رجل دين بولندي
(المترجم).

«لكن كل ما هو عظيم يصعب تحقيقه بقدر ما يندر العثور عليه»⁽¹¹⁶⁾ وهي القاعدة التي تنصّ عليها الجملة الأخيرة من كتاب الأخلاق لسبينوزا. قد تسأل بالطبع ما إذا كنا في حاجة حقاً إلى الإشارة إلى «القديسين». ألا تكفي مجرد الإشارة إلى الناس المحترمين؟ صحيح أنهم يشكّلون أقلية. ويمكن أن نقول أكثر من ذلك، إنهم سوف يظلّون دائماً أقلية. ومع ذلك أرى أنّ الانضمام إلى أقلية يمثل تحدياً. لأنّ العالم في حالة سيئة، لكن كلّ شيء سوف يصبح أسوأ ما لم يبذل كل منا قصارى جهده.

لذا، لنكنّ يقظين، تنبيه بمعنى مزدوج: منذ أوشفيتز نعرف ما يستطيع الإنسان أن يفعله. ومنذ هيروشيا نعرف ما هو على المحكّ.

(116) - في الأصل باللاتينية *Sed omnia praeclara tam difficilia quam rara sunt*. ثم بالإنجليزية (المترجم).

كلمة ختامية

في 27 يناير عام 2006، في الذكرى السنوية الحادية والستين لتحرير معسكر الموت في أوشفيتز، حيث توفي 15 مليون شخص، احتفلت الدول في جميع أنحاء العالم باليوم الدولي الأول لإحياء ذكرى المحرقة. بعد بضعة أشهر، ربما كانوا قد احتفلوا بالذكرى السنوية لمقطوعة من أكثر مقطوعات الكتابة التزامًا عن ذلك الوقت الرهيب. نُشرت أول مرة باللغة الألمانية عام 1946 بعنوان أخصائي نفسي يعاني في معسكر

الاعتقال (A Psychologist Experiences the Concentration Camp) ثم أطلق عليه لاحقًا عنوان (قل نعم للحياة رغم كل شيء - Say Yes to Life in Spite of Everything) وتم استكمال الطبقات اللاحقة بمقدمة في العلاج بالمعنى وملحق عن التفاؤل التراجيدي، أو كيفية بقاء المرء متفائلًا في مواجهة الألم والشعور بالذنب والموت. وكانت الترجمة الإنجليزية التي نُشرت لأول مرة عام 1959، بعنوان (الإنسان والبحث عن المعنى - Man's Search for Meaning).

باع كتاب فيكتور فرانكل الآن أكثر من 12 مليون نسخة بلغات يبلغ عددها 24 لغة. وجد مسح أجراه عام 1991 نادي كتاب الشهر / مكتبة الكونجرس يطلب من القراء تسمية «كتاب أحدث فرقًا في حياتك».

كان كتاب الإنسان والبحث عن المعنى من بين الكتب العشرة الأكثر تأثيرًا في أمريكا. وقد ألهم المفكرين في مجال الدين والفلسفة، والمهنيين في مجال الصحة العقلية، والمعلمين، والطلاب، والقراء عامةً من جميع مناحي الحياة. يتم النصح به بشكل روتيني لطلاب الجامعات والخريجين والمدارس الثانوية في علم النفس والفلسفة والتاريخ والأدب ودراسات المحرقة والدين واللاهوت. ما الذي يفسر تأثيره على نطاق واسع وقيمه الباقية على مدار الزمن؟

امتدت حياة فيكتور فرانكل طوال القرن العشرين تقريبًا، منذ ولادته عام 1905 حتى وفاته عام 1997. قرّر أن يصبح طبيبًا وهو في الثالثة. في تأملات سيرته الذاتية، يتذكّر أنّه حين كان شابًا «كنت أفكر لبضع دقائق في معنى الحياة. خاصّة حول معنى اليوم القادم ومعناه بالنسبة إليّ».

كان فرانكل في فترة المراهقة مفتونًا بالفلسفة وعلم النفس التجريبي والتحليل النفسي. ولتكملة فصوله في المدرسة الثانوية، حضر فصول تعليم الكبار وبدأ مراسلات مع سيجموند فرويد مما دفع فرويد إلى تقديم مخطوطة كتبها فرانكل إلى (المجلة الدولية للتحليل النفسي - International Journal of Psychoanalysis) وتمّ قبول المقال ونشره في وقت لاحق. وفي العام نفسه، وهو في السادسة عشرة، حضر فرانكل ورشة عمل في الفلسفة لتعليم الكبار. ودعا المعلم، وقد أدرك ذكاء فرانكل مبكرًا، لإلقاء محاضرة حول معنى الحياة. قال فرانكل للجمهور «علينا أن نجيب عن الأسئلة التي تطرحها الحياة علينا، ولا يمكننا الرّد على هذه الأسئلة إلا من خلال أن نكون مسؤولين عن وجودنا». أصبح

هذا الاعتقاد حجر الزاوية في حياة فرانكل الشخصية وهويته المهنية.

تحت تأثير أفكار فرويد، قرّر فرانكل في أثناء وجوده في المدرسة الثانوية أن يصبح طبيباً نفسياً. واستوحى الفكرة جزئياً من زميل طالب أخبره أن لديه موهبة في مساعدة الآخرين، وبدأ فرانكل يدرك أن لديه موهبة ليس فقط في تشخيص المشاكل النفسية، ولكن أيضاً في اكتشاف ما يحفز الناس.

كانت أول وظيفة استشارية لفرانكل وظيفته تخصّه بالكامل أن أتمس أول برنامج خاصّ لإرشاد الشباب في فيينا وعمل مع الشباب الذي يعاني من اضطرابات. عمل طبيباً نفسياً في عيادة الجامعة في فيينا من عام 1930 إلى عام 1937، حيث كان يقوم برعاية المرضى الذين لديهم ميول انتحارية. سعى إلى مساعدة مرضاه في العثور على طريقة لجعل حياتهم ذات معنى حتى في مواجهة الاكتئاب أو المرض العقلي. وبحلول عام 1939، كان رئيساً لقسم الأعصاب في مستشفى روتشيلد⁽¹¹⁷⁾، المستشفى اليهودي الوحيد في فيينا.

في السنوات الأولى من الحرب، منح عملُ فرانكل في روتشيلد له ولأسرته درجة من الحماية من خطر التهديد بالترحيل. ومع ذلك، حين أغلقت الحكومة القومية الاشتراكية المستشفى، أدرك فرانكل أنهم في خطر كبير من إرسالهم إلى معسكر من معسكرات الاعتقال. وعام 1942، أبلغته القنصلية الأمريكية في فيينا أنه مؤهل للحصول

(117) - مستشفى روتشيلد Rothschild Hospital: مستشفى تم افتتاحه في 1873 حتى أغلقه النازيون عام 1943. وبعد الحرب العالمية الثانية كان مستشفى للمرضى والعجزة النازحين. يحمل المستشفى اسم مؤسسه بارون أنسيلم فون روتشيلد (المترجم).

على تأشيرة الهجرة إلى الولايات المتحدة الأمريكية. رغم أن الهروب من النمسا كان يمكنه من إكمال كتابه عن العلاج بالمعنى، فقد قرّر التخلي عن تأشيرته: شعر بأنّ عليه أن يبقى في فيينا من أجل والديه المسنين. في سبتمبر 1942، تمّ القبض على فرانكل وعائلته وترحيلهم. قضى فرانكل السنوات الثلاث التالية في أربعة معسكرات اعتقال مختلفة - تيريزينشتات، أوشفيتز - بيركيناو وكاوفرينغ وتوركهايم، وكان جزءاً من مجمع معسكر داخاو. (118)

من المهمّ ملاحظة أن سجّن فرانكل لم يكن الدافع الوحيد لكتابة الإنسان والبحث عن المعنى. قبل ترحيله، كان قد شرع بالفعل في صياغة حجّة مفادها أنّ البحث عن المعنى هو مفتاح الصّحة العقليّة وازدهار الإنسان. وهو سجين، أجبر فجأة على تقييم ما إذا كان لا يزال حياته أيّ معنى. وكانت نجاته نتيجة مشتركة لرغبته في الحياة، وغريزته في الحفاظ على الذات، وبعض الأفعال السّخية من الذّوق الإنسانيّ والذكاء. طبعاً، كان الأمر موكولاً إلى الحظّ الأعمى، مثل المكان الذي حدث فيه السّجن، ونزوات الحراس، والقرارات التّعسّفية حول مكان الاصطفاف ومن يثق أو يصدّق. ومع ذلك، كانت هناك حاجة إلى شيء أكثر للتغلب على الحرمان وتدهور الوضع في المعسكرات. كان فرانكل يعتمد باستمرار على القدرات البشريّة الفريدة مثل التّفاؤل المتأصل وروح الدّعابة والانفصال

(118) - تيريزينشتات Theresienstadt: معسكر اعتقال في مدينة تيريزين التشيكية. الواقعة في محمية بوهيميا ومورافيا. كاوفرينغ Kaufering: كان Kaufering واحداً من أحد عشر معسكراً فرعياً من معسكر اعتقال داخاو الواقع حول بلدة لاندسبيرج أم ليخ في بافاريا، والذي عمل بين 18 يونيو 1944 و 27 أبريل 1945. (المترجم).

النفسى ولحظات وجيزة من العزلة والحرية الداخلية والتصميم القوي على عدم الاستسلام أو الإقدام على الانتحار. أدرك أنه يجب أن يحاول العيش من أجل المستقبل، واكتسب قوة من الأفكار المتعلقة بحبه لزوجته ورغبته العميقة في إنهاء كتابه عن العلاج بالمعنى. كما وجد معنى في لمحات الجمال في الطبيعة والفرن. والأهم من ذلك أنه أدرك، بغض النظر عما حدث، أنه قد احتفظ بحرية اختيار كيفية الرد على معاناته. ورأى أن هذا ليس مجرد اختيار، بل مسؤولية كل شخص أن يختار «الطريقة التي يتحمل بها أعباءه».

تكون أفكار فرانكل ملهمة أحياناً، كما هو الحال حين يشرح كيف يتقبل المرضى الذين يواجهون الموت والذين يعانون من الشلل الرباعي مصيرهم. ويكون البعض الآخر دافعاً إلى الطموح، كما هو الحال حين يؤكد أن الشخص يجد معنى من خلال «السعي والنضال من أجل هدف جدير، وهي مهمة يتم اختيارها بحرية». إنه يوضح كيف نشأ الإحباط الوجودي ودفع دبلوماسياً غير سعيد إلى البحث عن مهنة جديدة مرضية بالنسبة إليه. ويستخدم فرانكل أيضاً الحث الأخلاقي للفت الانتباه إلى «الفجوة بين ما يكون عليه المرء وبين ما يجب أن يكون عليه» وفكرة أن «الإنسان مسؤول ويجب أن يحقق المعنى المحتمل لحياته». ويرى فرانكل أن الحرية والمسؤولية وجهان لعملة واحدة. وحين تحدث فرانكل إلى الجماهير الأمريكية، كان مغرمًا بقول: «أوصي بأن يتم استكمال تمثال الحرية على الساحل الشرقي بتمثال للمسؤولية على الساحل الغربي». ويقول إنه لتحقيق المعنى الشخصي، على المرء تجاوز الملذات الذاتية من خلال القيام

بشيء «يشير ويوجه إلى شيء ما أو إلى شخص آخر غير نفسه... بأن يهب نفسه لقضية يخدمها أو لشخص آخر يحبّه». اختار فرانكل نفسه أن يركّز على رعاية والديه من خلال البقاء في فيينا حين كان أمامه ممر آمن إلى أمريكا. بينما كان في معسكر الاعتقال نفسه الذي كان فيه والده، تمكّن فرانكل من الحصول على المورفين لتخفيف آلام والده وبقي بجانبه أيام احتضاره.

حتى حين داهمت فرانكل الخسارة وانتابه الحزن، أدّى تفاؤله، وتأكيداته المستمرّ على الحياة وحيويّته بشأنها، إلى إصراره على أن الأمل والطاقة الإيجابية يمكن أن تحوّل التحدّيات إلى انتصارات. في كتاب الإنسان والبحث عن المعنى، يسارع إلى إضافة أن المعاناة ليست ضروريّة للعثور على معنى، ويؤكد فقط على أن «المعنى ممكن رغم المعاناة». وهو، في الواقع، يمضي ليقول إنّ «المعاناة بلا داع مازوشية وليست بطولة».

قرأت لأوّل مرّة كتاب الإنسان والبحث عن معنى بصفتي بروفيّسور فلسفة في منتصف السّتينات من القرن العشرين. لقد لفت انتباهي إلى الكتاب فيلسوف نرويجي كان محتجزاً هو نفسه في معسكر اعتقال نازي. وقد لاحظ زميلي مدى اتّفاقه القويّ مع فرانكل حول أهميّة تغذية الحرّية الداخليّة للمرء، واعتناق قيمة الجمال في الطّبيعة والفنّ والشعر والأدب، والشّعور بالحبّ للعائلة والأصدقاء. لكنّ الاختيارات الشخصيّة والأنشطة والعلاقات والهوايات وحتى الملذّات البسيطة يمكن أن تعطي أيضاً معنى للحياة. لماذا، إذن، يجد

بعض الناس أنهم يشعرون بفراغ شديد؟ حكمة فرانكل هنا تستحق التأكيد: إنها مسألة الموقف الذي يتخذه المرء تجاه تحديات الحياة وفرصها، كبيرها وصغيرها. يمكن الموقف الإيجابي الشخص من تحمّل المعاناة وخيبة الأمل بالإضافة إلى تعزيز الاستمتاع والرضا. والموقف السلبي يزيد الألم ويعمّق خيبات الأمل؛ إنه يقوّض ويقلل من المتعة والتّعادة والرضا؛ وقد يؤدي إلى الاكتئاب أو إلى مرض جسدي.

كان صديقي وزميلي السابق نورمان كوزينز⁽¹¹⁹⁾ مدافعاً دؤوباً عن قيمة العواطف الإيجابية في تعزيز الصّحة، وحذّر من أن المشاعر السلبية قد تعرض الصّحة للخطر. ورغم أن بعض النقاد هاجموا آراء كوزينز على أنّها مبسّطة، إلاّ أن الأبحاث اللاحقة في علم المناعة العصبي النفسي⁽¹²⁰⁾ دعمت الطرق التي تعزّز بها المشاعر والتوقعات والمواقف الإيجابية جهاز المناعة في أجسادنا. يعزّز هذا البحث أيضاً اعتقاد فرانكل بأنّ مقارنة المرء تجاه كلّ شيء بدءاً من التّحديات التي تهدد الحياة وحتى المواقف اليومية يساعد على تشكيل معنى حياتنا. إنّ الحقيقة البسيطة التي روج لها فرانكل بشدّة لها أهميّة عميقة لكلّ من يسمع.

يجب أن تكون الخيارات التي يتخذها البشر نشطة بدلاً من أن تكون سلبية. إنّنا باتّخاذ الخيارات الشخصية نوّكد استقلالنا. يكتب

(119) - نورمان كوزينز Norman Cousins (1915 - 1990): كاتب وصحفي وبروفيسور أمريكي (المترجم).
(120) - علم المناعة العصبي النفسي psychoneuroimmunology: العلم الذي يدرس التفاعل بين عمليات النفسية والجهاز العصبي وجهاز المناعة في جسم الإنسان (المترجم).

فرانكل: «ليس الإنسان شيئاً ضمن أشياء أخرى؛ الأشياء تحدّد بعضها البعض، لكنّ الإنسان هو الذي يقرّر مصيره في نهاية المطاف. ما يصبح عليه - في حدود الموقف والبيئة - هو الذي صنعه بنفسه». كان ظلام اليأس مثلاً، يهدّد بأن يهيمن على جنديّ إسرائيليّ شابّ فقد ساقه في حرب يوم الغفران. كان يغرق في الاكتئاب ويفكر في الانتحار. وذات يوم لاحظ أحد أصدقائه أنّ نظرتَه قد تغيّرت إلى الصّفاء المأمول. وقد عزا الجندي تحوّلَه إلى قراءة كتاب الإنسان والبحث عن المعنى. حين تمّ إخبار فرانكل بما حدث مع الجنديّ، تساءل فرانكل عمّا إذا كان «يمكن أن يكون هناك شيء من قبيل العلاج الذاتيّ بالعودة إلى المراجع، أي الشّفاء من خلال القراءة».

يشير تعليق فرانكل إلى الأسباب التي تجعل كتاب الإنسان والبحث عن المعنى له تأثير قويّ على عديد القراء. يمكن للأشخاص الذين يواجهون تحديات أو أزمات وجوديّة طلب المشورة أو التوجيه من العائلة أو الأصدقاء أو المعالجين أو المستشارين الدينيين. أحيانا تكون مثل هذه النصيحة مفيدة؛ وأحيانا أخرى لا تكون مفيدة. قد لا يقدر الأشخاص الذين يواجهون خيارات صعبة تماماً إلى أيّ مدى يتعارض سلوكهم مع القرار الذي يحتاجون إلى اتّخاذه أو الإجراء الذي عليهم اتّخاذه. ويقدم فرانكل للقراء الذين يبحثون عن إجابات لمعضلات الحياة مهمّة حاسمة: فهو لا يخبر الناس بما عليهم القيام به، ولكن بما عليهم القيام به.

بعد تحرّر فرانكل عام 1945 من معسكر توركهايم، إذ كان على

وشك الموت بسبب التيفوس، اكتشف فرانكل أنه كان وحيداً تماماً. في اليوم الأول من عودته إلى فيينا في أغسطس عام 1945، علم فرانكل أن زوجته، تيلي، التي كانت حاملاً قد توفيت بسبب المرض أو الجوع الشديد في معسكر اعتقال بيرجن بيلزن.⁽¹²¹⁾ وللأسف، مات والداه وشقيقه في المعسكرات. وللتغلب على خسائره والاكتئاب الذي لا مفر منه، بقي في فيينا لاستئناف حياته المهنية بصفته طبيباً نفسياً، وهو قرار غير عاديّ حين هاجر عدد كبير من الآخرين، ولا سيّما المحللون النفسيون والأطباء النفسيون اليهود، إلى بلدان أخرى. ربّما ساهمت عدّة عوامل في هذا القرار: كان فرانكل يشعر بارتباط قويّ بفيينا، خاصّة مع المرضى النفسيين الذين كانوا يحتاجون إلى مساعدته في فترة ما بعد الحرب. وكان يؤمن أيضاً إيماناً قوياً بالمصالحة بدلاً من الانتقام؛ وقد قال ذات مرّة: «لا أنسى أيّ عمل صالح قدّم إليّ، ولا أحمل ضغينة على عمل سيّء». وتجدر الإشارة إلى أنّه نبذ فكرة الذنب الجماعيّ. وكان فرانكل قادراً على قبول أن زملاءه وجيرانه في فيينا ربّما كانوا يعرفون أو حتّى شاركوا في اضطهاده، ولم يدينهم لفشلهم في الانضمام إلى المقاومة أو الموت ميتة بطوليّة. وبدلاً من ذلك، كان ملتزماً التزاماً عميقاً بفكرة أنّه حتّى المجرم النازيّ الحقير أو المجنون الميؤوس من حالته لديه القدرة على تجاوز الشرّ أو الجنون من خلال اتّخاذ قرارات مسؤولة.

انهمك فرانكل بحماس في عمله. فقام عام 1946، بإعادة تأليف

(121) - بيرجن بيلزن Bergen-Belsen: كان معسكر اعتقال نازياً فيما يعرف اليوم باسم ساكسونيا السفلى في شمال ألمانيا (المترجم).

الكتاب الذي تمّ إتلافه عندما تمّ ترحيله لأول مرّة وقام بتنقيحه (الطبيب والروح - The Doctor and the Soul) وفي العام نفسه - في تسعة أيام فقط - كتب كتاب الإنسان والبحث عن المعنى. وكان يأمل في أن يعالج من خلال كتاباته الاغتراب الشخصي والاستياء الثقافي الذي ابتلي به أيّ أفراد كانوا يشعرون بوجود «فراغ داخلي» أو «فراغ داخل أنفسهم». ربّما ساعدت هذه الفورة من النشاط المهنيّ على أن يستعيد فرانكل معنى حياته الخاصة.

بعد ذلك بعامين تزوّج من إليانور شويندت⁽¹²²⁾، وكانت تعمل ممرضة مثل زوجته الأولى. وعلى عكس زوجته الأولى تيلي التي كانت يهوديّة، كانت إليانور كاثوليكيّة. ورغم أنّ هذا قد يكون مجرد مصادفة، فقد كان من سمات فيكتور فرانكل قبول الأفراد بغضّ النظر عن معتقداتهم الدنيّة أو معتقداتهم العلمانيّة. تمّ توضيح التزامه العميق بتفرد كلّ فرد وكرامته من خلال إعجابه بكلّ من فرويد وأدلر رغم أنّه كان يختلف مع نظريّاتهما الفلسفيّة والنفسية. كما قدرّ علاقاته الشخصيّة مع فلاسفة كانوا على اختلاف جذريّ معه مثل مارتن هايدغر الذي كان متعاطفًا مع النازيّة وقد تمّ تقويمه، وكارل ياسبرز الذي كان أحد دعاة الذنب الجماعيّ، وجابريل مارسيل الذي كان فيلسوفًا وكاتبًا كاثوليكيًا. وقد تجنّب فرانكل، بصفته طبيبًا نفسيًا، الإشارة المباشرة إلى معتقداته الدنيّة الشخصيّة. كان مغرمًا بالقول إنّ الهدف من الطبّ النفسيّ هو شفاء الرّوح، تاركًا

(122) - إليانور شويندت Eleanore Schwindt (1926 -): تمّ الزواج عام 1947 واستمر حتى وفاة فرانكل عام 2 سبتمبر 1997 (المترجم).

خلاص الروح للدين.

وقد ظلّ فرانكل يعمل رئيسًا لقسم الأعصاب في مستشفى فيينا العام خمسة وعشرين عامًا وألف أكثر من ثلاثين كتابًا لكل من المتخصصين والقراء عموماً. وقد ألقى محاضرات على نطاق واسع في أوروبا وأمريكا الشماليّة وأمريكا الجنوبيّة وأستراليا وآسيا وأفريقيا؛ وقد شغل منصب بروفيّسور في جامعة هارفارد وستانفورد وجامعة بيتسبرج؛ وكان أستاذاً متميّزاً في العلاج بالمعنى في الجامعة الدوليّة الأمريكيّة في سان دييجو. التقى بسياسيين وقادة عالميين مثل البابا بولس السادس وفلاسفة وطلابٍ ومعلمين والعديد ممن قرؤوا كتبه واستلهموا منها. واصل فرانكل حتّى في التسعينات من عمره، الحوار مع زوّار من جميع أنحاء العالم والردّ شخصياً على بضع مئات من الرّسائل التي كان يتلقاها كلّ أسبوع. وقد منحته 29 جامعة درجات فخريّة، وكرّمته جمعيّة الطبّ النفسيّ الأمريكيّة بجائزة أوسكار فيستر. (123)

يعود الفضل إلى فرانكل في إنشاء العلاج بالمعنى باعتباره تقنية في الطبّ النفسيّ تستخدم التحليل الوجوديّ لمساعدة المرضى على حلّ صراعاتهم الانفعاليّة. لقد حفّز عددًا كبيرًا من المعالجين على النظر إلى ما

(123) - جائزة أوسكار فيستر Oskar Pfister Award: أسست هذه الجائزة جمعيّة الطبّ النفسيّ الأمريكيّة (APA). مع جمعيّة رجال الدين للصحة العقليّة (الآن رابطة رجال الدين المحترفين). في عام 1983 لتكريم أولئك الذين قدموا مساهمات كبيرة في مجال الدين والطبّ النفسيّ تم تسمية الجائزة تكريمًا لأوسكار فيستر (1873 - 1956). وهو رجل دين سويسري ناقش الجوانب الدنيّة لعلم النفس مع سيموند فرويد. ومنحت الجائزة لفيلكتور فرانكل في عام 1985 (المترجم)

وراء مشاكل المرضى في الماضي أو في الوقت الحالي لمساعدتهم على اختيار مستقبل مثمر من خلال اتخاذ قرارات شخصية وتحمل المسؤولية عنها. وقد استلهمت أجيال عديدة من المعالجين رؤاه الإنسانية الثاقبة، التي اكتسبت تأثيراً نتيجة لغزارة كتاباته ومحاضراته المثيرة وشخصيته الجذابة. وقد شجّع الآخرين على استخدام التحليل الوجودي بشكل خلاق بدلاً من أن ينشئ مذهباً رسمياً. وقد جادل في أن المعالجين يجب أن يركزوا على الاحتياجات المحددة للمرضى باعتبارهم أفراداً بدلاً من استنباط ملاحظات من نظريات مجردة.

ورغم الجدول الزمني المزدحم، وجد فرانكل وقتاً أيضاً لتعلم دروس في الطيران ومتابعة شغفه مدى الحياة في تسلق الجبال. وقال مازحاً إنه على النقيض من «علم نفس الأعماق-Depth Psychology» عند فرويد وأدلر، العلم الذي يؤكد على الخوض في ماضي الفرد وغرائزه ورغباته اللاشعورية، قد مارس «علم نفس الارتفاع-Height Psychology» الذي يركز على مستقبل الشخص وقراراته الواعية وإجراءاته. وقد أكدت مقاربتة في العلاج النفسي على أهمية مساعدة الناس على الوصول إلى آفاق جديدة من المعنى الشخصي من خلال التسامي الذاتي: تطبيق الجهد الإيجابي والتقنية وقبول القيود واتخاذ القرارات الحكيمة. كان هدفه أن يحفز الناس لإدراك أنه يمكنهم بل عليهم ممارسة قدرتهم على الاختيار لتحقيق أهدافهم الخاصة. وكتب عن التفاؤل التراجيدي، وحذرنا من أن «العالم في حالة سيئة، لكن كل شيء سوف يصبح أسوأ ما لم يبذل كل منا قصارى جهده».

طُلب من فرانكل ذات يوم أن يعبر في جملة واحدة عن معنى حياته. كتب الرد على الورق وطلب من طلابه التخمين في ما كتبه. بعد لحظات من التأمل الهادئ، فاجأ أحد الطلاب فرانكل بقوله: «معنى حياتك هو مساعدة الآخرين في العثور على معانيهم».

قال فرانكل: «هذا كل ما في الأمر. هذه هي الكلمات التي كتبتها».

وليم ج. ونسليد (124)

وليم ج. ونسليد فيلسوف ومحام ومحلل نفسي يقوم بتدريس الطب النفسي والأخلاقيات الطبية والفقهاء الطبي في فرع جامعة تكساس الطبي في جلفستون ومركز القانون بجامعة هيوستن.

(124) - وليم ج. ونسليد William J. Winslade (1941 -): كاتب أمريكي وبروفيسور في فلسفة الطب (المترجم).

<https://t.me/Mamlukbooks>

فيكتور إميل فرانكل

الإنسان والبحث عن المعنى

التسامي بالذات كظاهرة إنسانية

الإنسان والبحث عن المعنى ليس مجرد كتاب يوضع فوق رفّ كي يأكله الغبار وتحرسه أعين القراء وتخيّم عليه الظلمة حين تكمل المصاييح مهمتها، بل هو تجربة حياتية فريدة من نوعها، ونادرا ما تتكرر، غيرت من حيوات ملايين البشر حول العالم وجعلت من الكتاب أحد أهم الكتب التي يركز عليها الفكر الإنساني في العصر الحديث. عندما تنهار الروح ويقف الإنسان كي يرقم ذاته، لن يجد سبيلا آخر كي يعيد ترميم تلك الذات المخدوشة والمجروحة دون اللجوء إلى المعنى والبحث عنه. كيف عاش فيكتور فرانكل تجربة المعتقل وكيف غيرت تلك العذابات من نظرتة إلى العالم وكيف يمكننا أن نغير حياتنا انطلاقا من تجربته؟

أسئلة كثيرة يجيب عنها هذا الكتاب ويضعنا أمام مرآة الذات الإنسانية التي طالما بحثنا عن علاج لها.. تمّ بيع خمس عشرة مليون نسخة من هذا الكتاب حول العالم وأحدث ثورة في علم النفس، أدت إلى مراجعات كبيرة لها علاقة بالإنسان وصراعاته الداخلية التي لا تتوقف أبدا.

ISBN 9786039135296



9 786039 135296

WWW.PAGE-7.COM

